منهج علماء الحديث والسنة

في

أصول الدين

(علم الكلام)

تأليف

الدكتور مصطفى حلمي

أستاذ مساعد بدار العلوم جامعة القاهرة

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

٦ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهــرس

الموضــوع | الصفحة

الباب الاول

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين .

وبعـــــد ...

فقد آثرنا اختيار دراستنا عن علم الكلام — او اصول الدين — لتوضيح آراء علماء الحديث والسنة وبيان منهجهم ، ذلك لأن الدراســات الكلاميــة التقليدية اولت عنايتها للفرق المنشقة عن أهل القرون الاولى — كالخوارج والشيعة والقدرية والجهميــة — كمــا تعمقت وتوسعت فى عرض المذهبين الكبيرين : الاعتزالى والاشعرى ، ولم تلتفت للنتاج العقلى للمحدثين والفقهاء بالقدر الكافى الذى يسمح بابراز مواقفهم من اصول الدين ومنهجهم فى النقاش والرد على مخالفيهم ، مع العلم بأنهم كانوا يستندون الى ادلة عقلية وبراهين منطقية قائمة على تفسير الايات القرآنية والاحاديث النبوية ، والاسترشاد أيضا بفهم الاوائل الذين كانوا اكثرعلما ودراية بأسرار اللغة العربية واسباب النزول ودقائق العقائد المتصلة بأصول الدين .

وفى ضوء هذه الحقيقة ، نرى ان طريقة اهل الحديث والسنة تحتــاج الى نظرة انصاف وتقدير حيث شاعت الفــكرة التى تصفهم بأنهم (نصيين) وليسوا (عقليين) ، فضلا عن اوصاف اخرى تشاع عنهم خطــأ كوصفهم بالجمود وما الى ذلك من صفات شوهت صورهم فى اذهان الخاصة والعامة .

وكثـــيرا ما تروج — مع الاسف — افكار وتســود آراء مع مجافاتها الحقيقة ومجانبتها للصحة وذلك بسبب ترديدها المتواصل . ويســاعد على ذلك عوامل ثقافية وتاريخية ومذهبية وسياسية ، كلها ادت الى ترقى الفكرة الشائعة الى مرتبة تكاد تصل الى اليقين فى دوائر البحث العلمى ، ســواء على مستوى الجامعــات والكليــات المتخصصــة ، او المهتمين بالدراسات الاسلامية من العلماء والباحثين والمؤرخين وغيرهم ، الا فيما ندر .

وقد آن الاوان لاعطـــاء علماء الحــديث والسنة حقهم ، لا أقول من التقدير فحسب ، بل من التبيين والايضاح .

ازاء كل هذه العوامل ، رأينا أن المسئولية العلمية تقتضى منا القـــاء الضـــوء على منهج هؤلاء ، وبيان الطـــابع العقلى بحيث يجعلهم فى صفوف (نظار) المسلمين الاصليين ، وانه وفقا لاتباع مناهج المتكلمين أصحاب النظر العقلى ، يمكننا وضع علماء السنة والحديث الذين خاضـــوا فى قضـــايا علم الكلام فى الصفوف الاولى .

وكان مثار اهتمامنا بهذا الاتجاه ، هو وقوفنا على سمات بارزة تربط بين هؤلاء العلماء الذين لا ينتمون الى الدوائر الكلامية بمدارسها المعروفة ، ذلك أن من يتتبع الحركات الفكرية المناوئة للفرق المنشقة منذ ظهورها ، يعثر كما فعلنا — على ملامح عناصر ثابتة لتيار اسلامى أصيل يعبر عن غالبيـــة عقائد المسلمين ، ظلوا يعارضون منذ البداية كافة الانشقاقات التى خالفت الاصول الاسلامية .

وكان من سمات منهجنـــا تتبـــع الآثار الاولى حيث نلحظ المعارضـــة الشديدة لأية بادرة للخروج عن الصف الاول المتماسك الذى تركه رســـول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ، وكان إيجابه بعلاج حاســـم ، وربما يعد من المفيد الاستشهاد على بعض هذه الملامح المشهورة تاريخيا : كما حدث فى حرب الردة اذ حاول بعض المسلمين الامتنـــاع عن دفع الزكاة فكان موقف أبى بكر الصديق رضى الله عنه المعروف ، الذى استند فيه الى قاعدة ايمانية نظر منها الى شمول الدائرة الاسلامية التى لا تفرق بين الصلاة والزكاة ، فتحرك بدافع هذا الفهم الواضح ، ورأى أن أى انفـــراط يعنى تخلخل الاساس واهتزازه وضياع المعالم للاسلام . وفى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه نرى واقعة زجره لصبيغ عنـــدما سأل عن الآيات المتشابهات فنهاه عن الخوض فيما لا طائل وراءه ، وثبت بعد ذلك صدق الهام عمر .

وفى خلافة عثمان رضى الله عنه ، عندما ظهرت الفتن بأيدى محركيها ، كان الخليفة الثالث يناقش بالحجج والادلة آراء دعاة الفتنـــة ويدحضها ، ولكنهم كانوا قد ركبوا رؤوسهم وبيتوا أمرا بليـــل ، فعبروا بجريمتهم انهم لم يكونوا طلاب حق وعدل ، بل دعاة تفرقة وادوات فتن كيدت للاســـلام من

وراء الستار . كذلك وقف على بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهما وعمر بن عبد العزيز وغيرهم كما تروى انا المصـــادر التاريخية لمناقشـــة الخوارج بالادلة والحجج العقلية المستمدة من الكتاب والسنة .

وظل هذا الاتجاه سائرا فى طريقه لمواجهة ما ظهـــر من الفرق ، ففى مواجهة الخوارج والشيعة والقدرية والجهمية وقف عشرات العلماء لمقارعة الحجة وتقديم الادلة والبراهين على انحرافاتهم ، ونعنى بهم أمثال الحسن البصرى وسعيد بن المسيب والائمة الاربعة أبى حنيفة ومالك والشـــافعى واحمـــد ووقائع وقوف كل من الشافعى والدارمى لمعارضـــة بشر المريسى معروفة مشهورة بكتب التاريخ والملل والنحل ، كذلك تحدى الامام احمد بن حنبل لكل من المأمون والمعتصم والواثق فى مسألة (خلق القـــرآن) ، الى جانب أتباعه الذين ظلوا محافظين على منهجه لمواجهة المنهج الاشعرى . بل اننا نرى موقف الاشـــعرى نفســـه امام المذهب — فى كتـــابه (الابانة) ، و (مقالات الاسلاميين) — معبرا عن الاتجاه السلفى العام فى أصول الدين ، حيث وجد فيه المنهج الصحيح الذى يستطيع به مواجهة منهج الكلام الاعتزالى الذى بلغ ذروته فى عصر المأمون (٢١٥هـ) ثم المعتصم ثم الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٢هـ)

وأثناء فترة حالكة فى تاريخ الحضارة الاسلامية ظهر شيخ الاســـلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨هـ) ليستجمع مؤلفات علماء السنة والحديث قبله ، ويظهرها فى قالب (كلامى) يدحض به كافة الآراء حوله بعـــد أن تضخمت واستفحل امرها ، فكانت مواقفه الكلامية الحاسمة ازاء كل الفرق والمذاهب التى جعلت منه علامة بارزة على منهج علماء الحديث والسنة يستضاء بها فى ظلمات الغربة واليأس ، وسنرى فى هذا الكتـــاب كيف وفق شـــيخ الاســـلام الى استنتاج طرق الاستدلالات العقلية من القرآن الكريم ، مثل (الميزان القرآنى) و (الآيات) و (اللزوم) و (قياس الأولى) و (أدلة الكمال) .

هذا ما رأينا بحثه ودراسته .

أما تكرار الحديث عن علم الكلام بمباحثه المعـــروفة فى دوائر الفـــرق والمعتزلة والاشاعرة مع انحياز لمذاهبهم ومواقفهم الكلاميـــة ، فلن يخـــدم

الحقيقة التى نسعى لمعرفتها فى مجال البحث العلمى ، لأن تجاهل غالبية علماء المسلمين فى القرون الاولى — مع جلالة قدرهم ومكانتهم الدينية والعلمية ، ومن تبع نفس منهجهم — أو غرض آراءهم من وجهة نظر خصومهم بغير انصاف ، كل هذا يتنافى مع ما نتوخاه من معرفة الحقيقة — لاسيما أن علماء الكلام عنوا بأصول الدين ، لا بفروعه ، ولكن المناهج السائدة عكست الآية ، ذلك ان اغلب الدارسين (اكتفوا بكتب علماء الكلام المتأخرين المشوبة بكثير من الانظار الغريبة الدخيلة وآراء عهد انحدار الحضارة الاسلامية ، مع أن المنهج العلمى التاريخى الصحيح يقتضى أن نرجع الى الاصول الاولى قبل كل شيء)(1) .

وقد التزمنا باتباع هذا المنهج المعبر عن اصول حضارتنا ايام ذروتها ، فكانت خطتنا البدء بالنظر فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين ، ثم التدرج لبحث ظهور الفرق واسبابه ، مع انتقاء بعض المناقشات التى دارت بين علماء الحديث والمعتزلة ، كعبد العزيز المكى وبشر المريسى ، والامام احمد والقاضى ابن أبى دؤاد .

وتابعنا هذه الخطة فعرضنا لمذهب الاشاعرة ونقده من وجهة نظر علماء الحديث والسنة — لاسيما راى ابن تيمية .

كذلك خصصنا بابا للحديث عن موقف ابن تيمية من القضايا الكلامية . وفى النهاية رأينا ضرورة عرض نبذة عن الفكر الاسلامى المعاصر .

ولم يغب عن ذهننا أن موضوع الكتاب له وجهان :

الاول — تاريخى ربما قد خمد بسببه الانفعال الذى كان مشتعلا بين طيات السطور فى الكتب الكلامية . ولكن بقيت المسائل موضوعا نابضا بالحياة الى وقتنا الحاضر ، لأنه ما من مسلم يقرأ القرآن ويطالع كتب الحديث الاوتدور فى ذهنه اوجه التفسير والتأويل ، والتأمل فى قضايا أصول الدين كالكلام عن الله تعالى ذاتا وصفاتا وأمور الغيب الاخرى كقيام الساعة

---

(1) مقدمة كتاب (عقائد السلف) تحقيق وتقديم أستاذنا الدكتور على سامى النشار — رحمه الله تعالى و د . عمار الطالبى — منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٠م .

والحساب والعقاب والجنة والنار وافعال العباد والايمان بالقضاء والقدر وغيرها . ونرى ان خير عون — بعد توفيق الله تعــالى — هو الاستضاءة بالفهم والتدبر بفهم علماء السنة وتدبرهم والاستناد الى حججهم الشرعية العقلية ، فانها شرعية لانها مستمدة من الشرع ، وعقلية لانها تتفق مع ادلة العقل الصحيحة .

الثانى — الجانب المعاصر فى الفكر الاسلامى المتجه الى مقاومة الغزو الفكرى للحضارة الغربية ، فلم نستكمل الدراسة بالقاء النظر الى الفكر الاسلامى المعاصر فان الدراسة بذلك تصبح مبتورة ، ولا تفيد القارىء الذى يريد فهم ما يدور حوله ، تعينه فى تمييز الصواب والخطــأ . لذلك راينــا اعطاء فكرة عن ملامح المشكلات (الكلامية) فى عصرنا الحاضر مع اختلافها عما اثير فى القرون الماضية .

ونقرر عن ثقة واقتنــاع ، بأن طريقــة القــرآن الكريم التى اجلاها واظهرها علماء السنة هى الطريقــة الثابتــة الصحيحة على امد الدهر ، ولا تهز ثقتنا بهذا الاصل ما نراه حولنا من تطورات علمية و (تكنولوجيــة) بهرت العقول والقلوب ، ذلك لان المعلومات العلمية مهما ازدادت وتشعبت وتفرعت ، فانها لا تناقض ولا تعارض سنن الله تعالى فى الكون والآفاق ، فبقدر ما يهب الله عباده العلماء من القدرات والوسائل المتطورة لاكتشــاف ابعاد اكبر فى الآفاق او ابعاد اعمق فى النفس البشرية ، بقــدر ما تتأكد لهم ثبات السنن الالهية .

وقد مهد الطريق لهذا المنهج كثير من العلماء المتخصصين ذوى الكفايات الممتازة فى مجالات تخصصهم ، فان اصبنا الغرض فذلك توفيق من الله تعالى ، وان اخطأنا فمن انفسنا والشيطان .

والخير اردنا وما توفيقى الا بالله العلى القدير .

مصطفى حلمى

الاسكندرية فى ٣ ذى الحجة سنة ١٤٠٢هـ

٢٠ سبتمبر سنة ١٩٨٢م

الباب الأول

الفصل الأول

عصر الصحابة رضى الله عنهم

- أصول الدين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة .
- رد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفد نجران .
- القرآن كـــلام الله تعـــالى .
- الايمان بالقدر وفهمه على الوجه الصحيح .
- الملائكة .
- مكانة الصحابة فى الامة .
- منهج الصحابة فى النظر والتـــدبر .
- الادلة النقلية والعقلية على فضل الصحابة .

عصر الصحابة رضى الله عنهم

ظلت اغلب دراسات المحدثين فى الاسـلاميات التى تحوم حـول علم الكلام فى نشأته وتطوره تعتمـد على كتب المتكلمين انفسـهم من المعتـزلة والاشاعرة فى الغالب ، فلا تكاد تعثر على دراسـة عن المسـلمين الاوائل ومناهجهم الشرعية العقلية فى الاستدلال على أصول الدين .

ونلحظ ان اغلب البحوث المعاصرة تعتمد على آراء المستشرقين الذين يهتمون عادة بالفرق المنشقة عن اهل السنة والجماعة ، والاهتمام بايجـاد الصلات بين معتقـدات الفرق والمصـادر الخارجية من عقـائد وديانات وفلسفات يونانية وفارسية ونحوها .

وكثيرا ما تتضخم ابحاثهم بالمسائل الخلافية والعناية بالفرق الغالية ، وتصور التاريخ الاسـلامى من خـلال الخلافات والانشـقاقات ، فتختفى الحقيقة تحت اكوام من الجدل والخلاف بحيث يصعب على القارىء التمييز بين الحق والباطل .

ومثل هذا المنهج — فضلا عن النتائج المفرضة التى يـراد الوصول اليها ، فانه يتجاهل حقيقة بارزة لا يمكن اخفاءها ، الا وهى ان آراء الفرق المنشقة قد حوصرت منذ ظهورها بواسطة علماء الحديث والسنة ، ورفضتها الغالبية من اهل السنة والجماعة التى ظلت مستمسكة بالعقيـدة الصحيحة المتلقاة بالقبول والفهم منذ عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته .

لهذا ، راينا — مستعينين بالله سبحانه وتعالى — اجلاء المنهج المتبع بواسطة علماء الحديث والسنة ، وكانت أولى خطواتنا البدء بعصر الصحابة لاستقراء الاتجاهات الدالة على الوان من النظر العقلى قبل ان يظهر اهل الكلام وقبل ان ينشق الصف الاسلامى الى فرق ومذاهب متطاحنة ، لنحاول ان نقف على تفسيرات اصحاب الصدر الاول للايات القـرآنية والاحاديث النبـوية المتصلة بمـا سـماه المتكلمـون بـ (أصـول الدين) والتى لم توضـع فى الصيغ الكلاميـة أو الانساق الفلسفية خلال العصور المبكرة التى نتحدث عنها ، ولكن الذى حدث هو انه كلما تفتقت مسألة ، أو

حدث انشقاق طارىء مستحدث ، قام لها من يتصدى بالتفسير والتوضيح ، او النهى والزجر اذا كان من قبيل البدع المنهى عنها .



ثم ظهر على مر الاعصار المتكلمون فى الفرق المختلفة فصاغوا كل هذا الكلام وشرحوه فى ابواب وفصول نقلته الينا مصادرهم ، وجاء الباحثون لمحاولة استقصاء هذه المسائل فى صيغها التقليدية بعينها ، فلم يعثروا لها على اثر ، فظنوا أن الصحابة لم يعرفوها ، ولم يتطرقوا اليها ، بينما الحق أنهم عرفوها وفهموا دقائقها ، كما ينبغى ان تفهم وتعرف .

ولا شك أن الادلة تدعم اتجاهنا فى اتخاذ عصر الصحابة نقطة البدء فى البحث ، لان دراسة التاريخ الاسلامى ترشدنا الى معرفة اسبقية الاوائل فى العلم والعمل ، فى العقيدة والسلوك . وسنتخذ هذا المنهج فى البحث لمحاولة شجب النتائج التى توصل اليها امثال جولد تسهير وغيره من المستشرقين الذين يطبقون على الاسلام — فى العقائد والعبادات — آثار فكرة التطور ، فيتصورون انه بدأ بسيطا ثم تطور على يد المسلمين !! فكانت اكبر زلاتهم .

ولما كانوا غير مسلمين معنا بالدليل القطعى الثابت فى قولة تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) . فان استقراء الاحداث بأناة وصبر وجهد — مع توافر الصدق وحسن الطوية — ليثبت ان (الاسلام فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم — اكتمل فى عقائده وعباداته واخلاقه واحكامه ونصوصه وقواعده وان الرسول صلوات الله عليه انتقل الى الرفيق الاعلى وترك الاسلام على هذا النحو وان المسلمين من القرن الاول الى يوم الناس هذا ، يعتبرون اى تزيد على هذا الدين بدعة تحارب ، ويرفضون من اى مخلوق ، ومن اى جماعة ، ان يضعوا فى هذا الدين جديدا ..) (١) .

وسنحاول على قدر الاستطاعة ، وبقدر ما تسمح به هذه الدراسة ،

---

(١) محمد الغزالى ص ٧٨ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين .

الالتفات الى عصر الصحابة والتابعين للبحث عن مواقفهم ازاء المسائل التى اثارها المتكلمون فى العصور التالية :

اصول الدين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة :

تتعدد المواقف التى توضح اتجاه الصحابة فى تلقى الايات القـرآنية والنظر اليها ، فاذا بدانا فى دراسة تلك المواقف بمنهج استقرائى ، استطعنا الوقوف على استنباطهم للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، فتتضح لنا كيف بدأ التنازع ، واسباب حدوث الانشقاقات عن القواعد الاسـلامية بعدهم . وكيف جوبهت الفرق المنشقة عن صـف الجماعة ، كالخـوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرها ، وظل علماء السلف من اهـل الحديث والسنة يحملون على اعناقهم هذه المهمة فينتقدون مزاعم المنشقين ، موضحين اسباب انحرافاتهم ، مبينـين القواعد الاسـلامية الصحيحة المتلقـاة عن الاوائل .

وتجتمع عناصر بحثنا فى ما رايناه من قواعد عامة تجمع مواقف الصحابة منها انهم تكلموا فى اصول الدين جميعا ، كما أنهم يتفقون فى المنهج فيفسرون القرآن بالقرآن مستندين الى طرق الاستدلالات العقلية التى أشار اليهـا وحض على استخدامها .

ونستطيع ان نستدل من الاحداث التارخية على ان الرسول صلى الله عليه وسلم شرح لهـم الاصول الاسـلامية كلها أو ما يسـميه المتكلمون بـ (أصول الدين) ، والامثلة كثيرة نقتطف بعضا منها فيما يلى :

بـدء الخلـق :

روى مسلم فى صحيحه فى باب الايمان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (لا يزال الناس يسألونكم عن العلم حتى يقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟ قال ابو هريرة جاءنى ناس من الاعراب فقالوا : يا ابا هريرة هذا الله خلقنا فمن خلق الله ؟ فأخذ حصى بكفه فرماهم به ثم قال : قوموا صدق خليلى صلى الله عليه وسلم وهناك عدة روايات لمسلم بهذا المعنى ، جاء فى احداها قول الرسول صلوات الله عليه (فمـن

وجد من ذلك شيئا فليقــل آمنت بالله) وقوله (فمن بلــغ ذلك فليستعذ بالله) ، فأرجع الرسول صلى الله عليه وسلم هذا السؤال الى وسوسة الشــيطان .

وروى البخارى فى صحيحه فى كتاب (بدء الخلق) عن عمران بن حصين قال (دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بنى تميم قالوا : قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يأهــل اليمن اذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قد قبلنا يا رسول الله .. قالوا جئناك نسألك عن هذا الامر .. قال (كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والارض ..) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرب ربنا فنناجيــه ام بعيد فنناديه ؟ فأنــزل الله تعالى هذه الايــة (واذا سألك عبــادى عنى فانى قريب) (١) .

رد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفد نجران :

تروى لنا كتب التاريخ قصة المباهلة المشهورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ووفد نجــران ، نختار منها المناقشة الدائرية بينه وبينهم ، وكان عمادها الجدل بالتى هى احسن .

وقد أورد الطبرى فى تفسيره أن النصارى اتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟

وقالوا على الله الكذب والبهتان لااله الا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدا. فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : (الستم تعلمون انه لا يكون ولد الا وهو يشبه أباه) ؟ قالوا نعم .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢ يقول ابن تيمية: وقعتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير ، وأهل التفسير ، واهــل الحديث واهل الفقــه وأصل حديثهم معروف .

قال : السنتم تعلمون ان ربنا حى لا يموت وان عيسى يأتى عليه الفناء ؟

قالوا : بلى .

قال : السنتم تعلمون ان ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه.

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا

قال : السنتم تعلمون أن اللـــه لا يخفى عليـــه شىء فى الارض ولا فى السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا الا ما علم ؟

قالوا : لا .

قال : فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء .

قال : السنتم تعلمون ان ربنا لا يأكل الطعام ولا يشـــرب الشراب ولا يحدث الحـــدث ؟

قالوا : بلى .

قال : السنتم تعلمون ان عيسى حملته امه كما تحمـــل المراة ثم وضعته كما تضع المراة ولدها ، ثم غذى كما يتغذى الصبى ثم كان يطعـــم ويشرب الشراب ويحدث الحـــدث ؟

قالوا : بـــلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

قال : فعرفوا ثم ابوا الا جحودا فأنزل الله تعـــالى (الم ، الله لا اله الا هو الحى القيوم) آل عمران . (١)

القرآن كلام الله تعـــالى :

قبل اثارة محنة خلق القرآن قـــد لا تعثر فى المصادر التاريخيـــة على روايات تشرح موقف الصحابة بنفس الطريقة التى تقابلنا بكتب الفرق أثناء

(١) الواحدى ـ أسباب النزول ص ٦١ ، ٦٢
ط مؤسسة الحلبى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

مناقشة بعضها البعض ، كالمعتزلة والاشاعرة ، او المعتــزلة والسلف ، ولكن مع هذا ، نستطيع لمح آراء متناثرة تفيدنا فى التوصل الى معرفة موقف الصحابة بما ورد على السنة ائمتهم كعلى وابن سعود وابن عباس رضى الله عنهم ، واقوالهم حجــة .

ومن المعروف تاريخيا ان اول من قال بأن القرآن مخلـوق الجعد بن درهم فى سنى نيف وعشرين ومائة بعد الهجرة ثم الجهم بن صفوان .

ولكن الثابت عن هؤلاء الصحابة رضـوان الله عليهم أنهم قالـوا ان القرآن كلام الله ، صحيح لم يرد لفظ غير مخـلوق ، لان المشكلة ظهـرت بعدهم واستخدم المتكلمون هذه الالفاظ ولكن اســتقراء النصوص الواردة عنهم تفيد ذلك ، فقـد اعترض الخوارج كما هو معـروف على على بن أبى طالب لانه حكم الحكمين وقالوا له (حكمت رجلين ؟ قال : ما حكمت مخلوقا انما حكمت القرآن) وفى اجابته انه ما حكم الا القرآن نفى لهذا الخلق عنه .

وايضا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يسين ، ومن كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع (١) .

وأما قول ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد كان مرة فى جنازة ، فلمــا وضع الميت فى لحده قام رجل فقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب اليه ابن عباس فقال : القرآن منه وفى رواية اخرى (القــرآن كلام الله وليس بمربوب منه خرج واليه يعود) .

الايمان بالقدر وفهمه على الوجه الصحيح :

وفى الايمان بالقدر الذى تنازع فيــه المسلمون فيما بعد راينــا كيف كان ابو بكر رضى الله عنه حين يقول : اقول برايى فان كان صوابا فمــن اللــه وان كــان خطــا فمنى ومــن الشــيطان ، فهــذا القــول يــدل على تأييده لحقيقة المسئولية الاخلاقية ونفى الجبر ، كما عزر عمر بن الخطاب رضى الله عنه من ادعى أن سرقته كانت بقضاء اللــه ، فلما سأله فقال :

---

(١) ابن تيمية الفتاوى الكبرى ، تحقيق حسين محمد مخلوف جه ص٥٦

قضى الله على ، فأمر بقطع يده وضرب اسواطا ، فلما استفسروا من عمر عن سبب هذا التعزيز فأجاب : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله .

ولما قال محاصرو عثمان رضى الله عنه حين رموه : الله يرميك . قال : كذبتم لو رمانى ما اخطانى !! .

وهناك توضيح أيضا على لسان على بن ابى طالب رضى الله عنه شارحا الفرق بين قضاء الله تعالى وأمره ، فقد سأله شيخ عند انصرافه من صفين (اكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فاجابه على رضوان الله عليه (والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ، ما هبطنا واديا ولا علونا قلعة الا بقضاء وقدر ، ففهم الشيخ خطأ ان عليا يفسر ما حدث بالجبر لذلك اسرع على فافهمه معنى الايمان بالقدر على حقيقته ، وانه لا يتناف مع حرية ارادة الانسان ومسئوليته عن افعاله ، فقال له :

(لعلك تظن قضاء واجبا وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الاحسان اولى من المسىء ، ولا المسىء بعقوبة الذنب أولى من المحسن .. ثم أردف قائلا (ان الله تعالى امر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، ولم يكلف مجبرا ، ولا بعث الانبياء عبثا (١) .

ويسوق لنا التاريخ أيضا ما فهمه عمر بن الخطاب وابنه رضى الله عنهما وتمييزهما الدقيق بين العلم الالهى المسبق المحيط بكل شىء وبين افعال الانسان التى يؤديها بحريته وارادته .

وللقارىء هذا المثل الذى يضربه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شرح الصلة بين العلم الالهى والفعل الانسانى قال (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى اظلتكم ، والارض التى اقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والارض ، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله ، كما لا تحملكم السماء والارض على الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله ما تم) .

---

(١) القاضى عبد الجبار فرق وطبقات المعتزلة ص ٢٤ ط دار المطبوعات الجامعية بالاسكندرية تحقيق د النشار وعصام الدين محمد على .

وبسؤال عبد الله بن عمر رضى اللـــه عنهما عن حـــالة بعض الناس الذين يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس زاعمين ان ذلك كان فى علم الله تعالى ، فغضب ثم قال (سبحان الله العظيم ، قـــد كان ذلك فى علمه انهم يفعلونها ، ولم **يحملهم** علم الله على فعلها) (١) .

والاجابة توضح نفسها ولا تحتـــاج الى مزيد ، فان علم الله تعـــالى المحيط بكل شىء — لانه سبحانه بكل شىء عليم — صفة من صفات الكمال ، والعلم الالهى بما حدث ويحدث وسيحدث لا يحمل العباد على افعالهم .

الملائكـــــة :

قال جماعة من المفسرين : كان لعمر ارض بأعلى المدينة فكان يأتيها ، وكان طريقه على موضع مدارسة اليهود ، وكان كلما مر دخل عليهم فسمع منهم وانه دخل عليهم ذات يوم فقالوا : يا عمر ما من اصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — احد احب الينا منك ، انهم يمرون بنا فيؤذوننا وتمر بنـــا فلا تؤذينا ، وانا لنطمع فيك ، فقـــال لهم عمر اى يمين فيكم اعظم ؟ قالوا الرحمن قال فبالرحمن الذى انزل التوارة على موسى بطـــور سيناء أتجدون محمدا عندكم نبيا ؟ فسكتوا قال : تكلموا ما شأنكم والله ما ســـألتكم وانا شاك فى شىء من دينى ، فنظر بعضهم لبعض ، فقام رجل منهم فقال اخبروا الرجل أو لاخبرنه ، قالوا نعم انا نجـــده مكتوبا عندنا ، ولكن صـــاحبه من الملائكة الذى يأتيه بالوحى هو جبريل،وجبريل عدونا وهو صاحب كل عذاب وقتل وخسف ، ولو انه كان وليه ميكائيل لامنا به فـــان ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث قال لهم فانشدكم بالرحمن الذى انزل التـــوارة على موسى بطور سيناء اين ميكائيل واين جبريل من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، قال عمر : فأشهد ان الذى هو عدو للذى عن يمينـــه هو عدو للذى عن يساره والذى هو عدو للذى عن يساره هو عدو للذى عن يمينـــه وان من كان عدوا لهما فانه عدو لله .

ثم رجع عمر ليخبر النبى صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه

(١) نفس المصدر ص ٢٦ .

بالوحى فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه (قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) ٩٧ (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) ٩٨ فقال عمر : والذى بعثك بالحق لقد جئت وما أريد الا اخبرك (١) .

مكانة الصحابة — رضى الله عنهم — فى الامة :

تخبرنا كتب التاريخ وصحائفه على اكتمال الفهم والمعرفة لاصول الدين جميعا لدى الصحابة رضى الله عنهم وكان ذلك بفضل طاعتهم للايات القرآنية التى حثتهم على التدبر فى غير موضع ، مثل قوله تعالى (كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته) وعلى العكس وصف الكفار والمنافقين بالاعراض عن تدبره فى مثل قوله تعالى عز وجل (أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها) ، قالى تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ، ومعنى ذلكان معانيه مما يمكن للكفار والمنافقون فهمها ومعرفتها فهى اذن ممكنة للمؤمنين ايضا ، ويدل على أن معانيه كانت معروفة بينة لهم .

وايضا فان الله عز وجل بين انه انزل القرآن عربيا لكى يعقلوه (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) . والعقل لا يكون الا مع العلم بمعانيه ؛ وذم من لا يفقهه (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) فلو كان المؤمنون لا يفقهونه لاصطفوا فى صف واحد مع المنافقين والكفار الذين ضرب لهم مثلا بقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى يتعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) فكيف اذن يمكن وضع السابقين الاولين من المهاجرين والانصار بمنزلة الكفار الذين ذمهم الله فى اكثر من موضع لانهم اعرضوا عن تدبير القرآن واتبعوا أهواءهم ، فقال تعالى فى وصفهم (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتو العلم ، ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم ؟

---

(١) الحافظ ابن عبد البر (٤٦٣ هـ) جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ١٢٣ و ١٢٤ .

ويضيف شيخ الاسلام ابن تيميـــة الى كل هذه الادلة ، ما ثبت عن كل واحد من أصحاب ابن سعود وابن عباس انه نقـــل عنهما من التفســـير مالا يحصيه الا الله فقد قـــال ابن مسعود (لو أعلم احدا أعلم بكتـــاب الله منى تبلغه الابل لاتيتـــه) .

وجاء التابعون فتعلموا التفسير من الصحابة ، قال مجاهد ، عرضت المصحف على ابى عباس من أوله الى آخره ، أقف عند كل آية وأسأله عنها (ولهذا قال ســـفيان الثورى — اذا جـــاءك التفسير عن مجـــاهد فحسبك بـــه) (١) .

فالاصل ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة كما امر ولم يكتم منها شيئا تنفيذا لقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل نزل اليهم) وقال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليـــك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وقد اخبر الله بأنه قد أكمل الدين ، وقال الرسول صلوات الله عليه (ما تركت من شىء يقـــربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به ، وما من شىء يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم بـــه) .

أنه صلى الله عليه وسلم

وبناء على هذا الاصل ، فانه تبين لنا/أوضح كافة الاصول الاسلامية مما أخبر به عن الله تعالى من اسماء الله صفاته ، مما جاء فى القرآن وشرح وبين لأصحابه هذه الاصول كلها كأحسن ما يكون البيان . قال ابو ذر (لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما) .

وكان الصحابة حريصين على الفهم والاستيعـــاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القرآن والحديث ، فان عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما كانوا اذا تعلمـــوا من النبى صلى الله عليه وســـلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل (قالوا : فتعلمنا القـــرآن والعلم والعمل جميعا) وقام عبد الله بن عمر بحفظ سورة البقرة فى ثمـــان

---

(١) ابن تيمية فتاوى جـ ٥ ص ١٥٧ و ١٥٩ ط الرياض .

سنين لاستغراقه فى المعرفة والفهم (١) .

وكانت أم الدرداء تصف زوجها بأن افضل عمله التفكر (٢) وعلى العكس من هذه الحقيقة ، فان الادعاء بأن الصحابة كانوا مشغولين بالجهاد — كما يذكر بعض المتكلمين فانه يحمل فى طيـاته ذم الصحابة بل يجعـلون مذهب السلف ان الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ قرآنا لا يفهم معناه ، بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معنـاها ، وان جبريل كذلك وان الصـحابة والتابعين كذلك وهذا الموقف — كما يذكر ابن تيمية — ضلال عظيم (٣) .

وشرح ذلك يحتاج الى مزيد من الايضاح ، نذكره فيما يلى :

منهج الصحابة فى النظر والتدبر :

لقد خاطب الاسلام العقل كما رأينا ودعا الانسان الى النظر فى آثار مخلوقات الله تعالى ، وقد مضى عصر الصحابة فى الصـدر الاول على هذا المنهج القرآنى الواضح وكان قـدوتهم الرسول صلى الله عليه وحـده فى النظر والسلوك ، حيث عاشوا معه وشاهدوا التنزيل وسألوا واستفسروا عما يعن لهم من قضايا تحتاج الى شرح وايضاح .

وهكذا استمدوا من كتاب الله تعالى معـرفة وحدانية الله تعـالى ، واثبات صفاته ، وعرفوا الانبيـاء والرسل عليهم السـلام وقصصهم مع اقوامهم ، ووقفوا منه على اصل خلق آدم عليه السـلام وعداوة ابليس له ولبنيه ، وعرفوا مكانة الملائكـة وادوارهم من بين مخلوقات الله تعـالى ، واستمدوا معلوماتهم عن اليوم الاخر وحساب الله تعالى وجنته وناره والقدر خيره وشره الى غير ذلك من القضايا التى تشكل اركانا رئيسية واصولا فى الايمـان . وكلها جمعها القرآن الكريم — كما يرى الزركشى فى اقسام ثلاثة توحيد وتذكير واحكام . (فالتوحيد تدخل فيـه معرفة المخلوقات ومعـرفة الخالق باسمائه وصفاته وافعاله ، والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنـة

(١) ابن تيمية : فتاوى جـ ٥ ص ١٥٥ و ١٥٦ الرياض .
(٢) نقض المنطق ص ٨٧ .
(٣) شرح حديث النزول ص ٦٥ .

والنـــار وتصفية الظاهر والبـــاطن ، والاحكام ومنها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والامر والنهى والندب . فالاول : (والهكم اله واحد) فيـــه التوحيد كله فى الذات والصفات والافعال ، والثانى : (وذكر فان الذكـــرى تنفع المؤمنين) ، والثالث : (وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك — الاية) (١) .

وقد خط لهم القرآن الكريم الاســـتدلال بمخلوقات الله تعـــالى على وحدانيته سبحانه وعلمه وحكمته ، فانها جميعا تبرهن على ان لهـــا صانعا حكيما خبيرا تام القدرة بالغ الحكمة، كما دعاهم الى آثار الصنعة فى انفسهم أيضا (وفى انفسكم أفلا تبصرون) ؟ ! اشارة الى ما فيها من آثـــار الصنعة ولطيف الحكمة الدالين على وجود الصانع الحكيم (٢) .

ونهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن التفكـــر فى الخالق جـــل شأنه ، فجاء فى الاثر (تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق) ، وتعليـــل النهى انه سبحانه ليس كمثله شىء (فالتفكر الذى مبناه على القياس ممتنع فى حقه ، وانما هو معلوم بالفطرة ، فيذكره العبد) (١) .

كذلك جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بسنته كمصدر ثان للاسلام ولذلك اصبح المنهج الصحيح يقتضى معرفة سنته وتنفيذها ، فمن كان أعلم بسنته واتبع لها كان الصواب معه ، وهذه الاوصاف تنطبق على الصحابة رضى الله عنهم ثم الاجيال التالية من أهل الحديث والسنة (وهؤلاء هم الذين لا ينتصرون الا لقوله ولا يضاقون الا اليه ، وهم أعلم الناس بسنته وأتبـــع لها ، لكن التفرق والاختلاف كثير فى المتأخرين)(٤) .

وبهذه الطريقة وضعوا الاسس السليمة للمنهج الصحيح فى معـــرفة أصول الدين وفروعه ، فمن اراد اذن معرفة شىء من الدين والكلام فيـــه ، نظر فيما قاله الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، فمنه يتعلم وبه يتكـــلم وفيه ينظر ويتفكر وبه يستدل ، فهذا أصل منهج اهل الحديث والسنة .

---

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٧ ط الحلبى ١٩٥٧م
(٢) السيوطى : صون المنطق جـ ١ ص ١٤٣ .
(٣) ابن تيمية : نقض المنطق ص ٣٥ .
(٤) ابن تيمية : منهاج السنة جـ ٣ ص ٤٦ .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)

اما المخالفون لهذا المنهج ، فلم يراعوا قاعدته ويلتزموا بخطواته ، اذ انهم بدلا من البدء بالنظر فيما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم،بدأوا بما رأوه بعقولهم كما فعل المتكلمون ، أو بما ذاقوه بوجدانهم — كما فعل الصوفية — فاذا وجدوا السنة توافقه والا لم يبالوا بذلك ، فاذا وجدوها تخالفه ، اعرضوا عنها تفويضا او حرفوها تأويلا (٣) .

وهذه الصورة المخالفة للمنهج الاسلامى الصحيح كثيرا ما نراها فى عصرنا ايضا ، فيسبب ضغوط ثقافة الغرب وحضارته ، وعلى أثر انتصاره العسكرى والسياسى وتفوقه العلمى ونفوذه الثقافى ، وتأثيره الساحر على العقول والنفوس ، فى مقابل ضآلة المعرفة بالاسلام باصوله وفروعه ، نجم عنه ان اصبح الكثيرون يتبنون الافكار والفلسفات الغربية ويعطونها شكلا اسلاميا ، ظانين بذلك انهم يدافعون عنه ويقدمونه الى الاجيال الشابة فى ثوب عصرى !!(٢) .

الادلة النقلية والعقلية على فضل الصحابة رضى الله عنهم

تشهد الادلة النقلية والعقلية معللة فضلهم ، وبيان ذلك كالاتى :

اولا — الادلة النقلية :

منها ما قاله تعالى فى وصفهم : (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) سورة التوبة ١٠٠ ، فكانوا هم الافضل ثم يتناول الوصف من اتبعهم الى يوم القيامة .

وايضا ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

كما ظهر من دراسة السنة النبوية مكانة الصحابة الخاصة بعد رسول

(١) ابن تيمية الفرقان بين الحق والباطل ص ٤٧ .
(٢) كالقول مثلا بديمقراطية النظام الاسلامى او اشتراكيته وتحرر نظمه وقابليته للتطور وغيرها من المصطلحات اللصيقة بفلسفة الغرب وحضارته وتاريخه ، ولها مدلولاتها ومعانيها المختلفة تماما عن مقابلها فى الاسلام بعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته .

الله صلى الله عليه وسلم ، لا سيما الخلفاء الراشدين وباقى العشرة المبشرين بالجنة .

الحديث : (فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ . واياكم ومحدثات الامور ، فان كل بدعة ضلالة) (١) .

والآيات والاحاديث كثيرة فى وصف افضالهم ومكانتهم الممتازة ، مثل قوله تعالى .

(كنتم خير أمة اخرجت للناس) .

وقوله تعالى : (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) الحديد ١٠ .

والحديث (أوصيكم بأصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد) (٢) .

كما وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر بأنهم خير القرون ، وبأن غيرهم لو انفق مثل احد ذهبا ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .

وقد عانوا وكابدوا كثيرا بعد الاهتداء للاسلام من اهلهم وعشيرتهم وقبائلهم ولكنهم واقرب اقربائهم لم يبالوا ، بل صبروا وثبتوا لانهم تذوقوا حلاوة الايمان فى القلوب وايقنوا صدق الرسول صلى الله عليه وسلم واقتنعوا بعقيدتهم ولم تتأثر نفوسهم وقلوبهم بأية اضطهادات او مشاق يقابلونها بسبب عقيدتهم ، ثم انطلقوا ينشرونها ويدافعون عنها ويبذلون فى ذلك الانفس والنفائس .

يقول ابن الوزير اليمانى :

لولا ثقل موازينهم فى الشرف والدين ما اتبعوا رسول الله صلى الله

(١) جزء من حديث ص ٤٣ رواه الامام أمين وابو داود والترمذى وقال حديث حسن .

(٢) الحديث رواه احمد والترمذى .

بأدلة الدين الجديد فلم يعبأوا أمام وضــوح الادلة ورسوخها فى عقــولهم ومالوا عــن الف دين الاباء والاتراب والقــرباء الى أمــر شــاق عــلى القلوب ، ثقيل على النفوس ، لا سيما وهم فى ذلك الزمان اهل الانفة) (١).

والصحابة رضى الله عنهم هم ايضا الواسطة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الامة ، ولذلك امتدحهم عليه السلام وجعلهم الافضل على مدى الاجيال ، ففى حديث صحيح قال رسول الله صلى اللــه عليه وسلم (لا تسبّوا اصحابى فلو ان احدكم انفق مثل احد ذهبا ما بلــغ مد أحدهم ولا نصيفــه)(٢) .

قال ابن عبد البر (وما أظن اهل دين من الاديان الا وعلماؤهم معينون بمعرفة اصحاب انبيائهم ، لانهم الواسطة بين النبى وبين أمته) (٣)

والادلة كثيرة تدل على فطنتهم وذكائهم ، وانهم كانوا اصحــاب دراية وفكر ونظر ، ولم يكونوا من السذج بحيث يخدعون او يؤمنون كايمان العامة يروى لنا ابن كثير فى تفسيره عن احد صالحى المهاجرين (هو جندب بن كعب الازدى) قد رأى عند الوليد بن عقبة ساحرا يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد اليه رأسه ، فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى فلما كان الغد جاء مشتملا على ســيفه ، وذهب يلعب لعبــة ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال ان كان صادقا فليحى نفسه وتلا قوله تعالى (اتاتون السحر وانتم تبصرون) ؟ ولا شك انه كان يعرف الحديث (حد الساحر ضربة بالسيف) (رواه الترمذى) (٤)

ولا نظن اننا نغالى اذا قلنــا انهم عاشــوا على اعتاب عالم الغيب وتمثلوه وكأنه عالم مشــاهد حاضر أمامهم يرونه ويعيشــون فيه ، فكانوا

---

(١) ابن الوزير اليمانى : الذب عن سنة ابى القاسم جـ ١ ص ٥٥ .
(٢) رواه البخارى بسنده عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه .
والمد : ربع الصاع ، وانما قدره لانه أقل ما كانوا يتصدقون به فى العــادة .
(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب — ق ١ ص ١٩ .
(٣) ابن كثير : التفسير جـ ١ ص ١٣٩ ط دار الشعب .

يتنافسون فى طلب الشهادة للانتقال من الحياة الفانية الى الحياة الباقية تحقيقا للسعادة الابدية عند ربهم عز وجل ، وها هو حارثة — رضى الله عنه — يسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم (كيف اصبحت يا حارثة ؟ قال اصبحت مؤمنا بالله حقا ، قال انظر ما تقول ؟ فان لكل قول حقيقة ، قال يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى واظمأت نهارى ، وكأنى بعرش ربى عز وجل بارزا ، وكأنى انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتعاوون فيها ، قال الزم ، عبد نور الله الايمان فى قلبه(١) .

فأما درجة السابقين كأبى بكر وعمر فتلك لايبلغها احد وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (**قد كان فى الامم قبلكم محدثون ، فان يكن فى امتى فعمر**) وفى حديث آخر (**ان الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه**) وقال على (**كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر**) وفى الترمذى وغيره (**لو لم ابعث فيكم لبعث فيكم عمر ، ولو كان بعدى نبى ينتظر لكان عمر**) .

ومع هذا فالصديق اكمل منه ، فان الصديق كمل فى تصديقه للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يتلقى الا عن النبى والنبى معصوم . والمحدث — كعمر — يأخذ احيانا عن قلبه ما يلهمه ويحدث به ، لكن قلبه ليس معصوما . فعليه أن يعرض ما القى عليه على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فان وافقه قبله ، وان خالفه رده . ولهذا قد رجع عمر عن اشياء ، وكان الصحابة يناظرونه ويحتجون عليه ، فاذا بينت له الحجة من الكتاب والسنة رجع اليها وترك ما رآه والصديق انما يتلقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا عن قلبه . فهو اكمل من المحدث . وليس بعد أبى بكر صديق افضل منه ، ولا بعد عمر محدث افضل منه). (٢) .

---

(١) ابن الاثير/أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ٢ ص٤٢٥ — ٤٢٦ ط الشعب .

(٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٥١٣ — ٥١٤ .

بعد هذا التوضيح لا نرى مزيدا لمستزيد لتقرير كمال المنهج الذى اتبعه الصحابة فى معرفة الدين اصولا وفروعا(١) .

ثانيا — الدليل العقلى :

ففضلا عن النصوص المستفيضة عن الصحابة رضى الله عنهم فى التفسير ، والتى تدل على فهمهم للقرآن الكريم وتدبرهم ، واحاطتهم بالادلة التى قدمها كالآيات وضرب الامثلة واستخدام الاقيسة العقلية ، فان استخدامنا للدليل العقلى يبرهن أيضا على أن حواريى الرسل وصحابتهم هم اكثر الناس فهما لرسالتهم من غيرهم بأصولها الكبرى وفروعها ودقائقها أيضا ، وان المتأخرين هم اكثر الناس بعدا عن الرسالات وفهمها باستثناء القلة الحريصة على اتباع السابقين عليهم بمنهج النقل الدقيق كما فعل اهل الحديث والسنة .

وهذا هو التفسير المنطقى المعقول الذى يشهد به تاريخ الدعوات الدينية ، فهى (تقوم ابان نشأتها على معتنقين اتجهوا نحوها بقلوبهم وتفانوا فيها بأرواحهم .. وكم روى التاريخ من أخبار الرسول صلوات الله عليه ان اشارته كانت تقابل بالتنفيذ من الجميع ، فاذا ما فترت الدعوة وضعت العقيدة وخمدت حرارة الايمان الاولى ، أخذ الناس يبحثون فى معتقداتهم ويعللون ويناقشون ويعارضون(٢) .

ولم نذهب بعيدا فى التعليل والتفسير؟ بينما كان عبد الله بن عباس رضى الله عنهما سباقا الى تعليل اختلاف المسلمين متنبئا بما سيحدث فى العصور التالية لعصر الصحابة مفسرا اياه بنقص درايتهم بالقرآن وافتقادهم لفهمه على الوجه الصحيح . فقد خلا عمر رضى الله عنه ذات يوم فجعل يحدث نفسه : كيف تختلف هذه الامة ونبيها واحد ؟ فأرسل الى ابن عباس رضى الله عنهما فقال : كيف تختلف هذه الامة ونبيها واحد وقبلتها واحدة وكتابها واحد فقال ابن عباس : يا امير المؤمنين ، انما علينا القرآن فقرأناه وعلمنا

(١) لم يكن تقسيم الدين الى اصول وفروع معروفا فى عصر الصحابة والتابعين ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة .

(٢) د . ابراهيم مدكور : فى الاخلاق والاجتماع ص ٢٦ ط الهيئة العامة للنشر .

فيما انزل وانه سيكون بعدنا أقوام يقراون القــرآن ولا يدرون فيما نزل ، فيكون لهم فيه راى فاذا كان كذلك اختلفوا فيكون لكل قوم فيه راى .. فاذا اختلفوا اقتتلوا(١) .

وكانت طرق استدلال الصحابة مستمدة من النظر فى المخلوقات والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى وما يطرا عليهــا من تغيرات على مدار الازمنة ، فأيقنوا انها لابد انهــا مخلوقة من رب حكيم ، احسن كل شىء خلقه واتقن صنع كل شىء . عن الحسن البصرى قال (كانوا — يعنى الصحـــابة — يقولون الحمد لله رب الرفيق الذى لو جعل هذا الخلق خلقا دائما لا ينصرف لقال الشاك فى الله ، لو كان لهذا الخلق رب لحادثه ، وان الله قد حادثه بما ترون من الآيات : انه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين ، وجعل فيها معاشا وسراجا وهاجا ، ثم اذا شـــاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمه طبقت ما بين الخافقين وجعل فيها سكنا ونجوما وقمرا منيرا ، واذا شاء بنى بناء جعل فيه من المطر والبرق والرعد ماشاء، واذاشاء صرف ذلك، واذاشاء جاءببرديقرقف، (من الرقفة اى الرعدة) الناس،واذا شاء ذهب بذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس ، ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربا يحادثه بما يرون من الآيات ، كذلك اذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة) .

وترى الصحابة — طبقا لهذا الاستدلال — قد سلكوا الطريق الفطرى المطابق لطريق البرهان العقلى فى اثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، وانه خالق كل شىء وهو سبحانه المحدث الفــاعل بمشيئته وقدرته ، ولم يفعلوا كما فعل بعض فلاسفة اليونان عندما فسروا صدور الكون بأنه معلول يقارن علته فان ذلك يمتنع محادثته اى احداث الحوادث فيه)(٢) .

من هذا يتبين ايضا أن ادلة الشرع أدلة عقلية ، فقد فطر الله تعـــالى عباده على معرفة الحق وقد بعث الرسل — كما يصفهم ابن تيمية — بتكميل الفطرة . قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه

---

(١) الشاطبى — الاعتصام ج٢ ص١٠٧ ط دار الشعب .
(٢) ابن تيمية — جامع الرسائل — المجموعة الاولى ص١٣٩ .
تحقيق . محمد رشاد سالم ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ط المدنى بالقاهرة .

الحق) فصّلت . وتفسيرها انه سبحانه اخبر انه سيريهم الآيات (الافقية والنفسية المبيّنة ، لأن القرآن الذى اخبر به عباده حق ، فتتطابق الدلالة البرهانية العيانية ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول)(١) .

والتفسير العقلى أيضا يبرهن على تجاوبهم الكامل مع العقيدة التى تغلغلت الى نفوسهم فان الدارس لاحوالهم وسلوكهم خلال سنوات الازمات والجهاد الشاق على النفس وعلى الهوى وفى مواجهة الاهل والاصحاب والعادات المألوفة والعقائد الوثنية الباطلة التى نشأ البعض عليها بالمقارنة بين تصرفاتهم وعقائدهم قبل وبعد الاسلام وفى ضوء دراسة أعمالهم وسلوكهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخشيتهم لربهم وفهمهم لدقائق العقيدة بعد أن تلقوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد كل هذا يمكن وصفهم بأنهم الاعلم والاحكم من كل من جاء بعدهم .

ونكتفى بواقعة واحدة للمقارنة ، تلك هى موقعة تبوك حيث بلغت بهم الشدة مبلغها .

يقول ابن كثير (ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم رضى الله عنهم على سائر أصحاب الانبياء فى صبرهم وعدم تعنتهم كما كانوا معه فى اسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا ايجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على الرسول صلى الله عليه وسلم لما اجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا الى الماء سأل الله تعالى فجاءت سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا الابل وملأوا اسقيتهم ثم نظروا فاذا هى لم تجاوز العسكر فهذا هو الاكمل فى الاتباع المشى مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم(٢) .

---

(١) منهاج السنة جا ص٨٢ .
(٢) ابن كثير — التفسير جا ص١٣٩ ط الشعب .

وهل نتصور ان اهل العصور التالية كانوا اكثر فهما للدين واصوله من الصحابة ؟ او انهم افقه واورع منهم ان ذلك يُعد قلبًا للاوضاع وتبديلا لموازين القياس الصحيح ، اذ سجل لنا التاريخ فضائل اعمال الجيل الاول بمثاليتهم فى الفهم والتطبيق فلم يشغلهم الجهاد عن التدبر والفهم العميق للاسلام بعقيدته وعباراته واحكامه ، وكثرة الروايات عن الجهاد والاعمال الصالحة تنطوى فى ذاتها على عمق الادراك والوعى بالرسالة والتحرك بها فانصرفوا عن الجدال واهتموا بالاعمال ، ولكن الاوضاع انقلبت بعدهم ، فظهر الجدل فى الدين على حساب العمل ، او كان بداية لتفرقة وحدة المسلمين وتفتيت جماعتهم وظهور علامات الوهن بين صفوفهم .

لذلك اعتبر علماء الحديث ظهور الجدل الكلامى لونا من الردة ، وعللوه بقلة الفقه فى الدين وذهاب العلماء **لقول الدارمى** « وكانوا مقموعين ايام الصحابة والتابعين ، مقهورين بسلطان الدولة وحجج العلماء ، ولكنهم عندما بعد الزمن ، وجدوا الفرصة لنشر مذاهبهم عندما وجدوا من الرعاع جهلا ومن العلماء قلة »(١)

لقد بحث المتكلمون ونقبوا فى تاريخ الصحابة وايامهم فلم يجدوا آثارا تدل على خوض الصحابة فيها ، فاستنتجوا انهم لم يعرفوها .

وهذا منهج خاطىء فى البحث والتصور لقول السفاريتى :

ولما كان عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان خاليا من البدع الكلامية والشبه الخيالية والخصوم المغزلية ، لم تكن ادلة علم اصول الدين مدونة هذا التدوين . (مختصر السفاريتى ٥)

كما تمادى المتكلمون بالطعن فى الصحابة فزعموا أنهم كانوا مشغولين بالجهاد عن تناول أمهات أصول الدين !!

والجدال الكلام لم يحقق للعقيدة تجسيدا أو تعبيرا عن تمكنها من القلوب والنفوس .

---

(١) عقائد السلف .

ولا يمكن تفسير الانتصارات المذهلة للصحابة الا فى ضوء استجابتهم لعقيـدة الاسـلام وفهمها حق الفهم وتطبيقها عمليا فاجتـذبوا غيرهم من الشعوب ذات الحضارات العريقة فكان الصحابةفى وضع الطلائع والصفوة المتـازة .

ولما كانت حضارة الاسلام منتصرة وسائدة — لا انتصـارا عسكريا فحسب ، فان ذلك يعبر عن المقدمات — ولكن تغلغلا الى اعمـاق الشعوب عقائديا ونفسيا لأن حملة العقيدة الجديدة كانوا هم الافضل والاجدر بالاتباع والانقيـاد .

وظهرت حروب الردة لتكشف معـادن الرجال مبرهنة على أن قـوة الايمان فى صف ابى بكر والصحابة وقد وقفت سدا مانعا لمواجهة اية ثغرة فى العقيـدة ، وكانت محكا لاثـر الايمان فى النفوس والفهم الصحيح لعقائـد الاسلام ، فقد كشفت الردة عن (حقيقة التصور الالهى فى اذهان المسلمين وسلوكهم حين تحول الى أعمال وحرب حتى لا يتمكن المرتدون من تشـويه العقيدة ، أو انتقاص المنهج ، أو ادخال شىء من الجاهلية فى الاسلام) (١)

ان هذا الفهم الممتزج بالايمان هو الدافع الحقيقى لجهاد الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسابق للاستشـهاد ، ومع الصـديق رضى الله عنه بعـده .

الا يحق لعلماء اهل السنة والجماعة سلوك طريقهم واعتبارهم الجيل المثالى فى العقيدة والسلوك ؟

ولن يدهشنا اذا عندما نرى احد علمـائهم — وهو الدارمى — يقول :

فلم يظهر جهم واصحابه — وهم أول من قالوا بالجبر ونفوا الصفات الالهية — فى زمن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار التابعين فيروى عنهم فيها أثر منصـوص ، مسمى ولو كانـوا بين أظهرهم مظهرين آراءهم لقتلوا ، كما قتل على رضى الله عنه الزنادقة — وهم أتباع عبد الله

---

(١) محمد حسن بريغش : ظاهـرة الردة فى المجتمع الاسـلامى الاول ط مؤسسة الرسالة — بيروت

بن سبأ اليهودى الذى قالوه بتأليه على — والتى ظهرت فى عصره ، ولقتلوا كما قتل أهل الردة(١) .

ويوضح لنا الدارمى بهذا الراى كيف دارت عجلة التاريخ لتطبيق سننه فى رقى الامم وتدهورها ، اذ عبّرت الفلول المهزومة فى الحضارات المغلوبة عن نفسها بنشر فلسفاتها ونظراتها للالوهية والكون والانسان ، او باثارة المشكلات العقائدية التى كانت تعانى منها ابان ازماتها .

ومما اذهل عقول مؤرخى التاريخ وفلاسفته ان المسلمين قاموا بغزو بلاد ذات حضارات عريقة ، فكان من المنتظر قياسا على الغزوات المماثلة من قبل كغزوات الاسكندر الاكبر مثلا — حيث لم تتجاوز اعماله مجال التعمير الحضرى بمظهرها المادى فقط — كان من المنتظر بقاء الافكار الفلسفية والدينية للسكان الاصليين كما هى ، ولكن ما حدث نتيجة انتصار المسلمين لم يتوقع لأنه اكتسح ماالاقاه فى طريقه كالسيل الجارف (فتغير كل شىء بين يوم وليلة . ولم يقتصر فى هذه المرة على الواجهة السياسية والاقتصادية فى المدن الكبرى فقط ، وانما تغلغل فى الاعماق النفسية لهذه الشعوب جميعا : فاللغات والافكار والقانون والآمال والعادات وتصور العالم وعقيدة الالوهية ، كل ذلك قد طرأ عليه تغيير جذرى سريع(٢) .

والشواهد اكثر من ان يستدل بها فى هذا الموضع والا اضطررنا الى عرض حياة عشرات بل مئات الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم من فسر القرآن الكريم ومنهم من تفقه ومنهم من اختص بالافتاء والاجتهاد . والامثلة كثيرة على مثل هذه التخصصات . ولو مضينا فى دراسة انشطتهم العلمية لخرجنا بصورة كاملة عن حقيقة عقائدهم اذ توصلوا اليها فى كافة اوجه اصول الدين من عقيدة التوحيد الى الصفات الالهية الى مسألة القضاء والقدر الالهى ، الى الانسان وحقيقته وغايته واخلاقه ، الى المجتمع ومكوناته والحياة الانسانية بكافة جوانبها حتى قال الامام احمد بن حنبل (لقد حدثت اجناس الاعمال فى عصر الصحابة) ويقصد بذلك انهم ارسو قواعد الحياة

(١) عقائد السلف ص٣٤٩ .
(٢) د . دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص٥٤ .
ط دار القلم — الكويت ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ .

وقال الامام احمد (أنه ما من مسألة الا وقد تكلم فيها الصحـــابة او فى نظيرها فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام حدثت جميع اجناس الاعمـــال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وانما تكلم بعضهم فى مسائل قليلة)(١) .

ويقصـــد بذلك أنهم أرســوا قواعــد الحيـــاة الاســـلامية الحقيقية كلها . هذه الحياة الكاملة التى تتنــاول العقيــدة والعبــادات والاخلاق فى دائرة واحدة يعبرون عنها بحياتهم اليومية العادية والمعــارك العسكرية والمعاملات التجارية والعلاقات الاجتماعية فى الاخــوّة والصحبة والزواج والعتاق والمسرات والاحزان وهذه المزية ينفرد بها الصحابة دون من جاء بعدهم ، لانه ما ان انقضى عصرهم حتى ظهرت بواكير التحول التدريجى البطىء عن هذه الحياة النموذجية الى حياة اقل درجة منها ، ثم ظهرت الفتن والقلاقل شأن سنّة الحياة فى النزول عن القمة بعد بلوغها الذروة .

ومن هنا أصبحت تقاس اطوارنا تاريخيا بالنظر الى اقترابها أو ابتعادها عن المجتمع الاسلامى فى الخلافة الراشدة وما حققته الحضارة الاســلامية فى هذا الطور العظيم ، فاذا تكلمنا عن الشورى والبيعــة والعدالة ، واذا تكلمنا عن المساواة فى الحقــوق والواجبات بين النـــاس ، واذا تكلمنا عن الفتوحات ورايات الاسلام الخفاقة المنتشرة فى الارض حينذاك ، فلن نجــد مصدرا غنيا كاملا بكل ما تحقق فى هذه الميادين الا فى وقت الخلافة الراشدة والقرون الاولى المفضلة .

ولهــذا فان التاريخ يسجل الصلة العكسية بين ظهــور الحضـــارة الاسلامية واتساع نفوذها واثر اشعاعها وفتوحاتها وبين ظهــور الفــرق وانقسام صفوف المسلمين بين نحل ومذاهب تتطاحن وتتناحر .

واذا عبرنا بلغة فلسفة التـــاريخ لفهم تاريخ المسلمين ، عثرنا على الرباط الوثيق بين تنفيذ قواعد الشرع وفهم الاسلام من واقع مصدريه وبين النصر والظهور للمسلمين وبلوغ حضارتهم الى الذروة ، ففى العصور الاولى عندما كان الصحابة والتابعــون يسيرون على طريق الشرع بفهم ووعى ، انتصروا فى الغزوات وقهروا الاعداء وحققوا مجتمعا انسانيا مثاليــا لم تر

---

(١) ابن تيمية — معارج الوصول الى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ص٤٣ ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

البشرية مثله ، ثم أصاب الوهن المجتمعات الاسلامية وظهـــر الضعف فى اوصالها على اثر ضعف العقيدة فى النفوس وظهور البدع .

ولا تخطىء عين الباحث المنقب فى كتب التـــاريخ ملاحظـــة ما حققه المسلمون فى عصر النبى صلى الله عليـــه وســـلم بقيـــادته ثم الصحـــابة والتابعون .

واذا شئنا تفصيلا موجزا ، رأينا ان عصر بنى أمية امتلأ بالفتـــوحات والانتصارات ولكن يعاب على امرائهم تأخير الصلاة .

وكان اوائل خلفاء بنى العباس افضل ممن سبقهم من بنى أمية لشعار الصلاة فى أوقاتها .

وفى عصر المأمون (٢١٥ هـ) ترجمت الكتب اليونانيـــة وكان ذلك على حساب العقيدة ، فعندما تدخلت المفاهيم الفلسفية اليونانية انحرفت العقيدة ، وزادها انحرافا غلو التشيع ثم التصوّف بمذاهبه المتطرفة كالحلول ووحدة الوجود ، واختلط علم الكلام لدى المعتزلة بمصلحات الفلسفة اليونانية .

ورويدا رويدا ضعفت الذاتية الاسلامية الاصلية — المتضمنة للعقيدة والاعمال — لدى الكثيرين ، وحلت محلها افكار فلسفية أجنبية ، أو مذاهب كلامية متطرفة ، فضعفت من اثر العقيدة فى النفوس ، وحولت المسلمين الى غير اهداف الاجيال الاولى ، ونزعت من القلوب الخوف والرجاء والمحبـــة لله تعالى بأسمائه وصفاته الحسنى التى كان الاوائل يندفعون بها فى ميادين الحياة والجهـــاد وتعمير الارض والسعى فيهـــا ، تحولت الى مناقشات وجدال ، فخمدت الجذوة المشتعلة وتحولت احيانا الى ما يشبه الرماد ، فظهر الضعف وتغلّب الاعداء .

الباب

~~الفصل~~ الثانى

احداث الردة والفتن

- الافتراق عن مذهب الصحابة رضى الله عنهم .
- موقف التابعين ازاء المخالفين .
- ظهور الجدل فى أصول الدين .
- مذهب أهل السنة والجماعة .

ﻫ إشارة إلى الحديث [سيكون في ثقيف كذاب ومبير] فالمبير هو الحجاج، والكذاب هو المختار بن أبي عبيد

وهو في مسلم بسنده عن أسماء عن النبي صلى الله عليه وسلم

(الجنية الحرنا ص ٥١ تحقيق داود سليمان الدويسه

مكتبة السلام والحكم ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

بين لنا مما تقدم ان المسلمين فى الصدر الاول من الصحـــابة وأوائل عصر التابعين تقيدوا بالمنهج الاسلامى الصحيح .

فان افضـــل الخلق بعـــد الانبياء هم الصحابة ، فلا ينتصر لشخص انتصارا مطلقا عاما الا لرسول الله صلى الله عليه وســـلم ، ولا لطائفـــة انتصارا مطلقا الا للصحابة رضى الله عنهم اجمعين(١) .

وان ارتد ناس بعـــد رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فليسوا من الفرقة الناجية .

اولا — خصوم ابى بكر رضى الله عنه كمسيلمة الكذاب .

ثانيا — السبأية اتباع عبد الله بن سبأ .

ثالثا — المختار بن ابى عبيد .

وشرح حديث الفرق الناجيـــة يقتضى انه كل من خرج عن الجماعة فينطبق عليه وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال ابن تيمية — وكذلك يدل الحديث على مفارقة الاثنتين والسبعين فى اصول العقائد ، بل ليس فى ظاهر الحديث الا مباينة الثلاث والسبعين كل طائفة للاخرى ، وحينئذ فمعلوم أن جهة الافتراق جهة ذم لا جهة مدح ، فان الله تعالى امر بالجماعة والائتلاف وذم التفريق والخلاف ، فقال تعالى (واعتصموا بحبـــل الله جميعـــا ولا تفرقوا) .

وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفـــوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتســـود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ١٠٦ آل عمران

قلب ابن عباس وغيره : (تبيض وجوه اهل السنة وتسود وجوه اهل البدعة والفرقة) .

وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء)(٢) وقال (وما اختلف فيـــه الا الذين اوتوه بعـــد ما جاءتهم البينـــات بغيـــا بينهم) .

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة جـ٣ ص٦٦ .

(٢) ابن تيمية : منهاج السنة جـ٢ ص١٠٤ .

وقال (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) .

واذا كان كذلك فأعظم الطوائف مفارقة للجماعة وافتراقا فى نفسها اولى الطوائف بالذم واقلها افتراقا ومفارقة للجماعة اقربها الى الخلق(٣) .

والحديث نفسه ليس فى الصحيحين بل قد طعن فيه بعض اهل الحديث كابن حزم وغيره ، ولكن قد رواه اهل السنن كأبى داود والترمذى وابن ماجه ورواه اهل الاسانيد كالامام احمد .

وبتقدير ثبوته فهو من اخبار الآحاد ، **فكيف يجوز أن تحتجوا فى أصل من أصول الدين واضلال جميع المسلمين الا فرقة واحدة باخبار الآحاد ؟**

وعلى اية حال فان الحديث يصف حال الجماعة ، فقد رواه فى حديث آخر : (هم الجماعة)

وفى رواية (من كان على مثل ما انا عليه اليوم واصحابى) .

السنة : ما كان صلى الله عليه وسلم هو واصحابه عليها فى عهده مما أمرهم به أو اقرهم عليه او فعله .

أما الجماعة : فهم المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، وهم أقل اختلافا فى اصول دينهم من سائر الطوائف(٤) . واهل الجماعة اقل اختلافا فى اصول دينهم من سائر الطوائف .

فان الحق مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمن كان اعلم بسنته واتبع لها كان الصواب معه وهؤلاء هم الذين لاينتصرون الا لقوله ولايضافون الا اليه ، وهم أعلم الناس بسننه واتبع لها واكثر سلف الامة كذلك ، لكن التفرق والاختلاف كثير فى المتأخرين(٥) .

---

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة ج٢ ص١٠٤ .

(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ج٢ ص١٠٢ ، ج٣ ص٦٢ .

(٥) منهاج السنة ج٣ ص٤٠ ، ج٣ ص ٤٦ .

وقد سار اهل الحديث والسنة والجماعة بمنهج اتباعهم الكتاب والسنة الثابتة عن نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم فى الاصول والفروع وما كان عليه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف المنشقين عن هذا المنهج — كما سيتضح لنا تباعا — فانهم خالفوا هذه القاعدة الاصولية ، كالمعتزلة والشيعة والخوارج ومن وافقهم ، فانهم لا يتبعون الاحاديث التى رواها الثقات عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى يعلم أهل الحديث صحتها والادلة على ذلك أن المعتزلة يقولون هذه اخبار آحاد ، ويطعن الشيعة فى الصحابة ونقلهم وهذا طعن ضمنى فى الرسالة . والخوارج يعبرون عن موقف قائلهم (اعدل يا محمد فانك لم تعدل) ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم (ويلك ان لم اعدل من يعدل لقد خبت وخسرت ان لم أعدل)(٦) .

وقد ظهرت الفرق والآراء الكلامية المبتدعة تباعا ، وجابهها علماء السنة والجماعة للرد عليها واعادتها الى الصف الاسلامى بعقيدته فى الصدر الاول .

وكلما تفتقت الاحداث عن انحراف ما ، أسرع الجهابذة من علماء أهل السنة والجماعة لتصويبه واظهار وجه الحق ، اذ ظهرت أفكار الخوارج بسبب قصورهم فى فهم آيات من القرآن الكريم ، وبدأ التشيع عندما قتل الحسين سيد الشهداء .. الى آخر الاحداث التى سجلتها كتب التاريخ ، فأخذت الآراء تكثر وتتشعب ، والفرق تتشكل وتتحزب حول معتقداتها .

ثم انتقلت اصداء هذه الخلافات والمناقشات الى كتب علم الكلام لتأخذ مكانها بين الآلاف من صفحاتها غرضا وتفنيدا ونقاشا . وهكذا ظهر الجدل فى أصول الدين .

الافتراق عن مذهب الصحابة فى أصول الدين :

ان مذهب الصحابة رضى الله عنهم — كما يذكر الشاطبى — وعليه

---

(٦) ابن تيمية : منهاج السنة ج٢ ص ١٠٣ .

دابوا فلم ينكر احد منهم ، بل اقروا واذعنوا لكلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ولم يصـــادموه ولا عارضـــوه باشـــكال ، بل آمنوا به واقروه(٧) .

وتعليل ذلك عنده : —

١ — ان الرسول صلى الله عليه وسلم نهاهم عن التنقيب فيما لا طائل وراءه بمثـــل قوله (ذرونى ما تركتكم فانما هلك الذين من قبلكم بســـؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبـــوه ، واذا امرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم) ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه (ان اصحاب الراى اعداء السنن اعيتهم ان يحفظوها وتفلتت منهم ان يعـــوها ، واستحيوا حين سئلوا ان يقـــولوا لا نعلم فعارضـــوا السنن برايهم فاياكم واياهم) .

والآثار كثيرة تشير الى ذم ايثار نظر العقل على آثار النبى صلى الله عليه وسلم .ثم جاء جهم بن صفوان وغيره فخالفوا السنن وعارضوها بعقولهم فاستعملوا قياسهم وآراءهم فى رد الحديث .

٢ — ان جميع ما قالوه مستمدة من معنى قول الله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ثم قال (والراســـخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) ، فانها صريحـــة فى هذا الراى الذى قررناه — فان كل ما لم يجر على المعتاد فى الفهم متشابه) .

٣ — اتخذوا من الشرع حجة قاطعة وحاكمـــا اعلى ، وظهـــرت هذه الحقيقة فى عدة مواقف عقب انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها يوم السقيفة اذ قال بعض الانصار (منـــا امير ومنكم امير) فأتى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الائمة من قريش اذعنوا لطاعة اللـــه ورسوله ولم يعبأوا برأى من رأى غير ذلك لعلمهم بأن الحق هو المقدم عـــلى آراء الرجال .

وفى حرب أبى بكر لما نعى الزكاة ، قال له عمر رضى الله عنهمـــا ، كيف

(٧) الشاطبى : الاعتصام جـ٢ ص١٩١ ٢ — نفس المصدر جـ٢ ص٢٠٧

نقاتل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت ان اقاتل الناس حتى يقـــول لااله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقهـــا وحسابهم على الله ، فرد ابو بكر بقوله (الا بحقها) فقال الزكاة حق المال ، مع أن الذين اشاروا عليه بترك قتالهم انما اشاروا عليه بأمر مصلحى ظاهر تعضده ، مسائل شرعية ، ولكن لم يقو عنده آراء الرجال ان تعارض الدليل الظاهر الخ ......

ونفهم من استقراء اقوالهم وسلوكهم فى جميع اصول الدين انهم كانوا يتقيدون بهذا المنهج اى تقديم الشرع على العقل ، لا عن قصور فى الفهم ، ولكن لمعرفتهم بمكانة الشرع وضرورة تقديمه على الاستنباطات العقلية .

واليكم مواقفهم من هذه الاصول : —

(أ) ففيما يتصل بمسائل الغيب كالكلام عن الميزان والصراط وعذاب القبر والميزان واوصاف اهل الجنة واوصاف اهل النار .

فلم ينكر احد منهم ما جاء من ذلك بل اقروا واذعنـــوا لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يصادموه ولا عارضوه باشكال ، ولو كان شىء من ذلك لنقل الينا كما نقل الينا سائر سيرهم وما جرى بينهم من القضايا والمناظرات فى الاحكام الشرعية ، فلما لم ينقل الينا شىء من ذلك دل عـــلى انهم آمنوا به واقروه ، كما جاء من غير بحث عن الكيفيات لامور الغيب .

ويذكر لنا الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » طريقة الصحابة ازاء هذه المسائل موضحا على سبيل التفصيل الاتجاه الصحيح فى تلقى الاخبار المنقولة عن صاحب الشرع :

— ففهموا وصف الصراط بانه كحد السيف لأن العبادة قد تخرق حتى يمكن المشى والاستقرار .

— وفى مسألة الميزان فأثبتوا ان كيفيته تليق بالدار الاخرة ، لان الاعمال ليست كالاجسام التى توزن فى دارنا ، ولم يأت فى النقل ما يعين انه كميزاننا من كل وجه .

— مسألة عذاب القبر ، فان رد الروح الى الميت وتعذيبه بغير ان يراه البشر أو يسمعونه أمر ثابت بالحديث .

والعقل يسلم بما نراه ، فالميت يعالج سكرات الموت ويخبر بألام لا مزيد عليها ولا نرى عليه من ذلك اثر ، وكذلك أهل الامراض المؤلمة .

مستند الى الآيات والاحاديث الدالة على ذلك .

— ويلحق بها مسألة سؤال الملكين للميت واقعاده فى قبره ، فانه انما يشكل اذا حكمنا المعتاد فى حياتنا الدنيا ، ولكنه من قبيل خرق العوائد التى لا تحيط بمعرفتها العقول . كانطاق الجوارح شــاهدة على صاحبهــا يوم القيامة ، وقراءة الصحف لمن لم يقرأ قط .

— رؤية الله عز وجل فى الآخرة جائزة ، اذ لا دليل فى العقل يدل على انه لا رؤية الا على الوجه المعتاد عندنا .

— كلام البارى تعالى انما نفاه من نفاه وقوفا مع الكلام الملازم للصوت والحرف ، وهو فى حق الله عز وجل محال ، فكلامه تعالى خارج عن مشابهة المعتاد لائق بالرب اذ لا يجزم العقل بأن الكلام اذا كان على غير الوجه المعتاد محال . فالموقف الصحيح اذن الوقوف مع ظاهر الاخبار مجردا .

— وكذلك باقى الصفات ، أنما نفاها من نفاها للزوم التركيب عنده ى ذات البارى تعالى وهذا قطــع من العقــل الذى ثبت تصــور ادراكه ى المخلوقات فكيف باثبات صفات ، فالصواب فى حقــه أن يثبت من الصفات ما أثبته لنفسه ، والاقرار مع ذلك بالواحد نية له على الاطلاق والعموم .

— تحكيم العقل على الله تعالى بحيث يقول يجب عليه بعثة الرسول ويجب عليه الصلاح والاصــلاح ويجب عليه اللطف الى آخر ما ينطــق به أصحاب المذاهب العقلية والمنحرفة ، ونتج هذا لأن المعتــاد ، انما حسن فى المخلوق من حيث هو عبد مقصور محصور ممنوع ، والله تعالى ما يمنعه شىء ولا يعارض أحكامه حكم ، فالواجب الوقوف مع قوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) وقوله (يفعل ما يشاء) (٨)

موقف التابعين ازاء المخالفين :

كان موقف علماء التابعين امتدادا للصحابة رضى الله عنهم ، ومن هنا

(٨) سورة آية .

نراهم يجابهون الآراء الشاذة التى اعلنها امثــال غيــلان الدمشقى وجهم بن صفوان .

وقد حفلت كتب التاريخ بالمناقشات الدائرة بين بعض التابعين وزعمــاء الخوارج واصحاب الآراء التى شذ بها اصحابها عن معتقدات الصدر الاول .

وسنقتطف نبذة يسيرة من هذه المناقشات لمعرفة المنهج الذى اتبعــه علماء التابعين فى جدالهم مع المخالفين ، ومنهــا مناقشة دارت بين عمــر بن عبد العزيز الذى لقب بالخليفة الخامس بسبب تقواه وعدله واســتنانه بسنن الراشدين قبله — وبين غيلان الدمشقى الذى كان أول من أعلن نفى القدر وتنسب اليه فرقة (القدرية) اى نفاة القدر .

يذكر لنا الملطى المحاورة الدائرة بينهما فيقول :

« لما دخل غيلان الى عمر بن عبد العزيز سأله عن امر الناس فأخبره صلاحا ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ويحك ياغيلان ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ قال : يا امير المؤمنين اتكلم فتسمع ؟ قال : تكلم ، فقرأ (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، انا خلقنا الانسان من نطفــة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، انا هديناه السبيل اما شــاكرا واما كفورا[٩] .

ويبدو من اجابة غيلان انه استند الى آيات من سورة الانسان — أو الدهر — فاقتطع آيات من السورة لكى يؤيد فكرته المسبقة عن نفى القدر .

لذلك سنجد فى اجابة عمر بن عبد العزيز رحمه الله يضع القضية فى وضعها الصحيح ، فيذكر غيلان بالاصل والمبدأ ، وهو ان الانسان مخلوق خلقه الله تعالى ، وهو خالقه وخالق اعماله ، ولا ينفى ذلك جعل الانسان مسئولا عما يفعله ومريدا له ومسئولا عنه .

لهذا قال عمر (ويحك ! من ههنا تأخذ الامر وتدع بدء خلق آدم عليــه السلام ، ثم تلى قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة

---

(٩) سورة الدهر آيات ١ — ٣

قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمــون ، وعلم آدم الاسماء كلهـا ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلمـا انبـأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما تكتمون(١٠) .

فقال غيلان : والله يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضـالا فهديتنى ، واعمى فأبصرتنى ، وجاهلا فعلمتنى ، والله لا اتكلم فى شىء من هذا الامر ابدا .

فقال عمر : والله لئن بلغنى انك تكلمت فى شىء منه لاجعلنك للنـاس أو للعالمين نكالا ، فلم يتكلم فى شىء حتى مات عمر رحمه الله ، فلما مات عمر استأنف الكلام فيما وعد بالانتهاء عن الخوض فيه(١١) .

ولدينا مصدر آخر يسجل مناقشة ثانية دارت بين عمر بن عبد العزيز وغيلان الدمشقى ، لها مدلول مشابه مع الاختلاف فى الحجج التى قدمها عمر رحمه الله ، حيث تذكر انه افحم غيلان بآيات من سورة يس كقوله تعـالى (انا جعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون) وقوله عز وجل (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وغيرها — وكانت اجابة غيلان لا تخرج ايضا عن ترديده القول فى كل آية يسمعها « كأنى لم اقرأ هذه الآية قط » .

ولكن غيلان نقض العهد فى زمان هشام فاستدعاه مذكرا اياه بعهـده لعمر بن عبد العزيز ، فلما طلب غيلان العفـو عنه هذه المرة ايضـا رفض هشام وأمره بقراءة اوائل سورة الفاتحة ، فقرأ (الحمد لله رب العـالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين) .

فسأله هشام : علام استعنته ؟ على أمر بيده لا تستطيعه الابه او على أمر فى يدك او بيدك ؟ ثم أمر به ليضربوا عنقه(١٢) .

---

(١٠) سورة البقرة ٣٠ — ٣٣ .

(١١) الملطى : التنبيه والرد على اهل الاهواء والبدع ص١٦٨ .

(١٢) أحمد بن حنبل : كتاب السنة — الطبعـة السلفية مكة المكرمة ١٣٤٩هـ جـ٢ ص١٢٧ .

ويتضح من هذه النصوص المنهج الذى اتبعــه الاوائل فى فهم الصلة بين المشيئة الالهية والارادة الانسانية ، فنجد عمر بن عبد العزيز يذكر غيلان بمبدأ خلق آدم عليه السلام وتعليمه الاسماء كلها واسجاد الملائكة له ، فالذى خلقه سبحانه ومن قبل ولم يك شيئا وعلمه ما لم يكن يعلم ، وهو الذى يمده أيضا بالقدرة على الفعل ، فيظهر الفقر الذاتى لآدم عليــه السلام وبنيه ، وأنهم لا يستقلون عن خالقهم فهو خالقهم وخالق أفعالهم ، مع نسبة الافعال للانسان نفسه طبقا لقواعد الشرع والعقل واللغة ، ومن ثم مسئوليته عنهــا وجزاؤه فى مقابلها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .

ونلحظ ايضا ان طريقة عمر بن عبــد العــزيز رحمه الله خاليــة من استخدام اية مصطلحات خارجة عن الآيات القرآنية ، كل ما هنالك انه لفت نظر غيلان الى الآيات المثبتة للقدرة المطلقــة لله تعالى — فانه ســبحانه على كل شىء قدير — وهو توجيه ضمنى الى غيلان — وغيره من تأثروا به — الى خطأ موقف اتخــاذ الراى المسبق ثم البحث فى القــرآن الكريم على ما يؤيده — فهذه طريقة الذين يضربون كتاب الله تعــالى بعضه ببعض ، ويختارون الآيات التى توافق أهواءهم دون غيرها التى تصادمها . كما لم يرد على لسان عمربن عبد العزيز لفظا الجبر والاختيار ، ولكنه باختياره للآيات الاولى من سورة البقرة عن خلق آدم عليه السلام أرشدنا الى فهمه للمسألة ، وهو أن الآيات القرآنية متوافقة متعاضدة ، فالانسان مسئول حر فى اختيار أفعاله ، ولكنه لا يستقل بفعله عن القــدرة والمشيئة الالهية — وهو نفس ما ذهب اليه عمر وعلى رضوان الله عليهما كما بينا آنفا(١٣) — كما اراد ان يبين لغيلان خطأه فى ضرب الكتاب بعضه ببعض ، فاخذ يذكره بالآيات التى ربما غابت عنه فى انكاره للقدر ، او انه اغفلها عامدا .

وكذلك فى حديث هشام ، رأيناه ينبه غيلان الى عجز الارادة الانسانية بغير مدد من الله تعالى ، فان آيات سورة الفاتحة تتضمن دعاء العبد طالبا الهداية والاستعانة بالله سبحانه ، ومن ثم فلا استقلال للفعل الانسانى ، بل لا قيام له منفردا أصلا ، فالانسان عبد مخلوق مربوب عاجز فقير فقرا ذاتيا ،

(١٣) ن — م

وهو محتاج دائما الى ربه وخالقه وناطره عز وجل ، ولما كان ربه سبحانه هو الخالق البارىء المصور ، فكذلك هو الذى يمد عباده بالقدرة على افعالهم .

ولكن ظهر مع الاسف تيار ينزع الآيات القرآنية من مواضعها ليضرب كتاب الله عز وجل بعضه ببعض . ولذلك ظهـرت موجة عارمة للوقوف فى وجه القدريين منذ أن بدأوا باعلان بدعتهم ، فكان الحسن البصرى يقول (من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن) ، وعندما سمع سـعيد بن المسيب أقوال القدرية غضب غضبا شديدا حتى هم بالقيام ثم تكلم فقال : تكلمـوا به ؟ أما والله لقـد سمعت فيهم حدثا كفاهم به شرا ، ويحهم لو يعلمـون ، ثم ردد الحديث بسنده قال (حدثنى رافع انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون قوم من أمتى يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى) قال قلت : جعلت فداك يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال : يقرون ببعض القدر ويكفرون ببعضه)(١٤) .

احوال اهل الجنـة :

ويدهشنا العثور على نموذج من الجدل يسوقنا الى موضوع آخر أثير ، فوجدوا من يوفيه حقه ، وهو موضوع يتصل بعالم الغيب وكيفياته ، فقـد بين راهب دار نقاش بينه وبين خالد بن يزيد بن معاوية عن أهل الجنـة . ومأكلهم ومشربهم ، قال الراهب (أليس تقـولون انكم فى الجنـة تأكلون وتشربون لا يخرج منكم أذى ؟ فأجاب خالد (بلى قال الراهب أفلهذا مثـل تعرفونه فى الدنيا ؟ قال — نعم ، الصبى يأكل فى بطن أمه من طعامها ويشرب من شرابها ثم لا يخرج منه أذى . قال الراهب لخالد أفليس تقولون ان الجنة تأكلون فيها فواكه ولا ينقص منها شىء قال خالد ، بلى ، قال أفلهذا مثـل فى الدنيا تعرفون ؟ قال خالد ، نعم الكتاب يكتب منـه كل شىء أحد ثم لا ينقص منه شىء) وفى النهـاية سأل الراهب متعجبا (أليس تقـول انك لست من علمائهم ؟ فأجابه خالد بأن فيهم لمن هو أعلم منى (١٥)

---

(١٤) الملطى — التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص١٩٦ وهو جزء من حديث طويل أورده الملطى بتمامه .

(١٥) الشاطبى : الاعتصام ج٢ ص١٨٧ ط دار الشعب ١٩٧٠م

ظهـــور الجدل فى اصول الدين

استقرت العقائد فى القلوب ولم يختلف الصحابة حول اصـــول الدين قط ، بل لم يعرفوا تقسيم الدين الى اصول وفروع ، ثم بدات تظهـــر الآراء المخالفة منذ النزاع الحادث بين على ومعاوية رضى الله عنهما بعـــد مقتـــل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وسنحاول ان نخط طريقنا من القاعدة المنهجيـــة التى نراها صحيحة شرعا وعقلا ، وتتلخص فى الاعتقاد ان الصحـــابة كانوا هم الاعلم بلغـــة القرآن ومراميه ، والادق فى فهم محكمه ومتشابهه ، فلم تظهـــر فى عصرهم خلافات فى أصول العقيدة ، اذ كان هناك اجماع عليها بين الكافة ، ثم بدات الانشقاقات رويدا رويدا .

وكان انحراف **الخوارج** ظاهرا عندما اعتقدوا خطأ/ تكفير على بن ابى طالب رضى الله عنه والنفر الذين كانوا معه من المهاجرين والانصار .

كما رأوا منصب الامامة أو الخـــلافة لا تختص بشخص من القرشيين فحوزوا امامة اى امام يجتمع فيه العلم والزهد ولو كان من اخلاط الناس واوباشهم ، بالاضافة الى عقائد اخرى كتخليد مرتكب الكبيرة فى النار وغيرها من الآراء التى دونتها كتب التاريخ والفرق .

وظهرت **القدرية** فى اواخر زمن الصحابة وصار معبد الجهنى وغيـــلان الدمشقى والجعد بن درهم الى القول بالقدر — اى نفيه وعدم الاعتقاد به .

وفى ذلك الزمان حدثت سنة **المرجئة**(١٥) حين قالوا لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

ثم طالعت **المعتزلة** مثل ابى الهذيل العلاف والنظام ومعمر والجاحظ — كتب الفلاسفة فى زمن المأمون واستخرجوا منها ما خلطوه بأوضــــاع الشرع

---

(١٥) ينظر كتابنا « قواعد المنهج السلفى فى الفكر الاسلامى » .

مثل لفظ الجوهر والعرض والزمان والمكان والكمون ونحو ذلك . **واول مسالة اظهروا القول بخلق القرآن .**

~~وحينئذ نسمى هذا الفصل علم الكلام .~~

وتلت هذه المسألة مسائل الصفات مثــل العلم والقــدرة والحيــاة والسمع والبصر(١٦) .

وعندما ظهرت عقائد المعتزلة التى اعترفوا بها عن عقيدة اهل السنة والجماعة ، اضطر علماء الحديث والفقهــاء للرد عليهم واعادة الامور الى نصابها .

واننا نعثر على آراء اهل الحديث منبثة فى كتبهم للرد على المتكلمين فى المسائل التى اثيرت كالحديث عن الصفات — والقدر والتوحيــد والاسماء وغيرها من اصول المسائل التى شغلت اذهان المسلمين . كما حرصوا على استمداد آرائهم من اقوال الصحابة والتابعين فى هذه الموضــوعات — اذ لا يغيب عن ذهن الباحث **ان منهج المحدثين كفل لهم الاحتفاظ بالنصــوص المنقولة عن السابقين جيلا بعد جيل**

وفى الادوار التى تضخمت فيها الخلافات كتب علماء الحــديث فى هذه الموضوعات التى تطرق اليها علماء الكلام ، ومن بين هذه المصادر العــامة كتاب **(خلق افعال العباد)** للامام البخارى و **(الرد على الجهمية والمعطلة)** للامام احمد **والرد على بشر المريسى** للامام الدارمى وغيرهم ، بحيث نستطيع القول بأن تيار السمع او النقل ، **ارتبط بتيار العقل او الدراية** ، اى بعبارة أخرى امتد اهتمام علماء الحديث والسنة الى المسائل التى **اثيرت بواســطة المتكلمين وغيرهم** ، ووقفوا منها **موقفا عقليا ايضا** ، فالتقى عندهم **النقــل مع النظر** ، فهم وان كانوا فى الغالب اهل رواية ، فقد اثبتوا ايضــا بأنهم اهل دراية لأن الكتاب أمر **بالتفكير والتدبر** ، وكانوا يحرصــون على الارتبــاط بالصحابة ومواقفهم من هذه الاصول الهامة فى الاسلام ، وهم ورثة الانبياء الذين قال فيهم (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب اولى الايدى والابصار)

---

(١٦) ابن الجوزى — ص ٩٢ — ٩٣ تلبيس ابليس .

فالايدى **القوة فى امر الله** ، والابصار فى دين الله ، فبالبصـــائر **يدرك الحق** ويعرف ، وبالقوة **تمكن من تبليغه** وتنفيذه والدعوة اليه)(١٧) .

ولقد استمسكوا بهذا المنهج النقلى العقلى — ان صح التعبير — وربما نجد ما يعبر عن التقاء الرواية بالدراية فى كتابات ابن تيميـــة الذى كان يلح دائما على ترديد القاعدة التى اخذ نفسه بالدفاع عنها طيلة حياته ، وهى ان العقل لا يتعارض مع النقل ، (فان الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم ، **فالكلم التى فى القرآن جامعة محيطة كلية عامة لما كان منتشرا فى كلام غيره)(١٨) .**

وكانت هذه هى مهمة علماء اهل السنة والجماعة . فما مذهبهم ؟

*** مذهب اهل السنة والجماعة :**

ربما ينسب البعض مذهب اهل السنة والجماعة الى احد ائمة الفقهاء او كلهم ، ولكنه فى الحقيقة امتدادا ومتابعة لمذهب الصحابة ، وقد اطلق عليه اسم الجماعة للتمييز وبين مذاهب المنشقين عن الجمـــاعة الاولى امثـــال الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية .

ومذهب اهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل ان يخلق الله تعالى ابا حنيفة ومالكا والشافعى واحمد ، فانه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم — صلى الله عليه وسلم — ومن خالف ذلك كن مبتدعا عنـــد اهل السنة والجماعة ، فانهم متفقون على ان اجماع الصحابة حجة ، ومتنازعون فى اجماع من بعدهم . (١٩) .

واذا طالعنا صفحات التاريخ لمعرفة تسلسل ظهور الآراء المخالفـــة لما كان عليه اهل القرون الاولى ، فقد راينا — كما تقدم — كيف خرج الخوارج وتابعتهم الشيعة باعلان آرائهم ثم القدرية فالجهمية أتبـــاع جهم بن صفوان من نفاة صفات الله عز وجل .

---

(١٧) ابن تيمية — نقض المنطق ص٧٩ .
(١٨) ن . م ص١١٠ .
(١٩) ابن تيمية — منهاج السنة جا ص٢٥٦ .

ثم وقعت المحنة الكبرى فى أوائل المائة الثالثة على عهد المأمون (المتوفى ٢١٥ هـ)وأخيه المعتصم ثم الواثق ، ودعوا الناس الى التجهم وابطال صفات الله تعالى ، فلم يوافقهم أهل السنة والجماعة حتى هددوا بعضهم بالقتل ، وقيد بعضهم وعاقبوهم وابتلوهم بالرغبة والرهبة .

وندع احد معاصرى الفتنة يصف لنا وقعها على المسلمين وما كابدوه بسببها :

قال عبد العزيز المكى فى كتابه (الحيدة) :

« واستتار المؤمنون فى بيوتهم وانقطاعهم عن الصـــلاة فى الجماعات والجمعات وهربهم من بلد الى بلد خوفا على انفسهم واديانهم ، وكثرة موافقة الجهال له والرعاع من الناس على كفره وضلالته والدخول على بدعتـــه والانتحال بمذهبه رغبة فى الدنيا ورهبة من العقوبة التى كان يعاقب بها من خالفه على مذهبه »(٢٠) .

وثبت الامام احمد بن حنبـــل فى هذه المحنـــة حتى حبسوه ثم طلبـــوا أصحابهم من المعتزلة بالبصرة لمناظرته فأفحمهم وعجزوا أمام حججه بالادلة الشرعية العقلية .

وبسبب هذا الموقف رفع الله قدر هذا الامام (فصار اماما من ائمـــة أهل السنة علما من اعلامها لقيامه باعلامها واظهارها واطلاعه على نصوصها وآثارها وبيان خفى اسرارها ، لا انه احدث مقالة ولا ابتدع رأيها ، ولهـــذا قال بعض شيوخ المغرب المذهب لمالك والشافعى والظهور لاحمد ، يعنى أن مذاهب الائمة فى الاصول مذهب واحد)(٢١) .

وعلى اية حال فان معيار الصحة والفساد فى المذهب لا الاتباع ولكن الادلة والاقتناع ، ولهذا يقرر ابن تيمية — وهو من أقوى المدافعين :

---

(٢٠) عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكنانى المكى : كتاب الحيدة ص٢ مطابع الشرق الاوسط — الرياض .

(٢١) ابن تيمية — منهاج السنة جـ١ ص ٢٥٧ .

واذا قدر أن فى الحنبليـــة أو غيرهم من طوائف السنة من قال أقوالا باطلة ، لم يبطل مذهب أهل السنة والجماعة ببطلان ذلك بل يرد على من قال ذلك بالباطل وينصر السنة بالدلائل)(٢٢) .

(٢٢) منهاج السنة جـ١ ص ٢٥٧ .

الباب الثالث

نشأة الكلام فى الدين وعوامل ظهوره

الفصل الاول :

— مراحل ظهور الكلام فى الدين .
— عوامل نشأة المشكلات الكلامية .
— ذم السلف لعلم الكلام .

الفصـــل الاول

مراحل ظهور الكلام فى الدين :

اتضح لنا مما تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن النظـــر فى تشابه القـــرآن ، وقد أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنهما ، قالت (تلا رسول الله صلى الله عليـــه وسلم هذه الآية « هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمـــات هن أم الكتـــاب واخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب) ٧ آل عمران ، قال (فاذا رايت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) .

وقد نفذ أصحاب الصدر الاول هذا النهى واطاعوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم واجتنبوا تحذيراته ، فلم يظهر من يجادل ويبحث فى الآيات المتشابهة ، وعلة ذلك ــ كما يذكر ابن عباس رضى الله عنهما ــ منع وقوع الشك فى القلوب(١) .

أما عن أول من خالف هذه السنة وسأل عن المتشابه فهو رجل يقـــال له عبد الله صبيغ ، جعل يسأل عن متشابه القرآن عندما قدم المدينـــة ، فاستدعاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسأله عن اسمه ، فلما أخبره ، اخذ عرجونا من عراجين النخل فضربه حتى دمى راســـه . ويبدو أن الرجل كان مصمما على موقفه لأنه وعد بترك السؤال ثم عاد اليه فطلبه عمر فقال (ان كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا ، فأذن له الى ارضـــه . وكتب الى أبىموسى الاشعرى أن لا يجالسه أحد من المسلمين)(٢) .

كذلك بالنسبة للناظر فى القدر ، روى مسلم ان الرسول صلىالله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يتناظرون فى القدر ، ورجل يقول الم يقل الله كذا ورجل يقول الم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان فقال :

ابهذا أمرتم ؟ انما هلك من كان قبلكم بهذا . ضربوا كتاب الله بعضـــه

---

(١) صون المنطق للسيوطى جـ١ ص٧٦ ط البحوث الاسلامية .

(٢) نفس المصدر ص٥٠ .

ببعض وانما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ، لا ليكذب بعضه بعضا ، انظروا ما امرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه .

وبسبب عصيان هذا الامر النبوى ظهرت القدرية — وهم نفاة القدر — فى اواخر زمن الصحابة ، وقد روى أن اول من ابتدعه بالعراق رجل من اهل البصرة يقال له (سيسويه) من ابناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى(٣) . فلما أعلن هؤلاء التكذيب بالقدر رد عليهم من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وواثلة بن الاسقع وكان اكثرهم فى اطراف البلاد لا فى وسطها ، فكان اكثر القدرية بالبصرة والشام ، وقليل منهم بالحجاز ، اى أن التيارات الخارجية وجدت بغيتها فى العناصر الداخلة فى الاسلام حديثا ، والتى تستمد عقيدتها من الجهابذة العالمين بدينهم كالصحابة والتابعين .

وبدأ نفى صفات الله عز وجل بواسطة الجعد بن درهم وهو اول المتكلمين فى الصفات واعلن نفيها ، ثم تتلمذ على يديه جهم بن صفوان .

ولكن اصابع المؤرخين ومؤلفى كتب الفرق تشير الى سلسلة حلقات النافين للصفات اذ تبدأ فى حلقتها الاولى بلبيد الساحر المعاصر للرسول صلى الله عليه وسلم الذى قال بخلق القرآن ناقلا بدوره هذا القول من يهودى باليمن .

والتفت حول جهم بن صفوان (١٢٨ هـ) عدة فرق كلها تنتمى الى راى من آرائه كانكار صفات الله تعالى ، والقول بالجبر ، وانكار رؤية اهل الجنة لله تعالى ، والقول بأن الجنة والنار يخلقهما الله بعد وانهما تفنيان بعد خلقها ، وانكار الميزان ، والشفاعة ، والكرام الكاتبين ، وعذاب القبر ومنكر

---

(٣) معبد الجهنى — وصفه الذهبى بأنه تابعى صدوق فى نفسه لكنه سن سنة سيئة فكان أول من تكلم فى القدر ونهى الحسن البصرى (١١٠ هـ) عن مجالسته وقال : هو ضال مضل . قتله الحجاج صبرا لخروجه مع ابن الاشعث .
الذهبى — ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ط الخانجى ١٣٢٥ ج٣ ص١٨٣ .

ونكير ، الى غير ذلك مما وردت بها النصوص الثابتة . يقول الملطى بعد سرد عقائد فرق الجهمية :

(وهذا اجماع كلام الجهمية وانما سموا جهمية لأن الجهم بن صفوان كان أول من اشتق هذا الكلام من كلام السمنية(٤) ، وكانوا شككوه فى دينه حتى ترك الصلاة اربعين يوما ، وقال لا أصلى لمن لا اعرفه ثم اشتق هذا الكلام ، وبنى عليه من بعده)(٥) .

ولقد لخص وكيع بن الجراح الاعتقادات التى ذمها السلف بقوله (القدرية يقولون الامر مستقبل وان‌الله لم يقدر الكتابة والاعمال ، والمرجئة يقولون القول يجزىء من العمل ، والجهمية — اتباع جهم بن صفوان يقولون المعرفة تجزىء من القول والعمل)(٦) .

وقد مرت القدرية بمرحلتين ، فى المرحلة الاولى انكروا القدر بالمعنى الوارد بالحديث فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ان الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه فيكتب أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد .

ولكن عندما اشتهر الكلام فى القدر فى مرحلة تالية وشارك فيه كثير من النظار أصبح اغلب القدرية يقرون بتقدم العلم الالهى ، وينكرون عموم المشيئة والخلق(٦) .

---

(٤) السمنية — بعض الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات .

(٥) الملطى — التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص ٩٩
الجعد بن درهم : يصفه الذهبى بأنه مبتدع ضال ، زعم أن الله تعالى لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى (ميزان الاعتدال ج١ ص١٩٧ ط الخانجى سنة ١٣٢٥ هـ وقال أبو حنيفة عن جهم (افراط جهم فى نفس التشبيه حتى قال انه تعالى ليس بشىء وأفرط مقاتل فى معنى الاثبات حتى جعله مثل خلقه) . ميزان الاعتدال ج٣ ص١٩٦ .

(٦) ابن تيمية — كتاب الايمان مكتبة انصار السنة المحمدية بالقاهرة ص٢٢

ويتضح لنا من العرض التاريخى ان بذور الانشقاقات بدات متنـــاثرة وبواسطة افراد معدودين ، جوبهوا بردود مفحمـــة ومواقف حاســـمة لبتر آثارهم حتى لا تستشرى وتنتقل عدواها الى غيرهم .

ثم بدأ الاعتزال بواسطة واصل بن عطاء ١٣١ هـ وعمـــرو بن عبيـــد ١٤٨ هـ ، وتضخم بعدهما المذهب اذ جمع ما تناثر من الاقوال الآنفة فى شكل نسق شبه فلسفى متضمنا الاصول الخمسة عند المعتزلة .
قال السفارينى :

وكان أول من صنف فى علم الكلام والجدال والخصام مع اهل السنة والجماعة واصل بن عطاء وهو رئيس المعتزلة(٧) .

والذى نود ابرازه من هذه العجالة عن مراحل ظهور الكلام فى الدين ان المشكلات ظهرت بسبب عوامل سلبية — ان صح التعبير — اى انحسارا عن موجة المد الاسلامية الاولى فى اصول الدين وفروعه ونظمه واخلاقياته ، ورجوعا عن النموذج المثالى الذى حققه المسلمون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين بعده .

كما يتضح انها لم تبدأ من اصل اســـلامى صحيح بل بدأت بمخـــالفة الاصول المدعمة بالادلة ، والامثلة على ذلك كثيرة منها ان الآية القرآنيـــة الآنفة التى تتناول تقسيم الكتاب الى آيات محكمات واخر متشابهات تحمل فى طياتها الأمر بعدم اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة ، فجـــاء البعض ليضرب كتاب الله تعالى ببعض .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر بعدم الكلام فى القدر فخالفه المخالفون ، وأمر بالا يسب أحدٌ اصحابه ، فجـــاء الشيعة بعـــده فسبوا ابا بكر وعمر رضى الله عنهما .

واذن فهى لا تدل على النضج العقلى او التفكير الحر كما يصور ذلك بعض دراسات المستشرقين ، فان هذا من قبيل الخطأ الشائع الذى يردده

---

(٧) شرح عقيدة السفارينى ص١٠ ط المنار ١٣٢٣ هـ .

كثير من الباحثين والعكس تماما صحيح ، ولنبحث فى عقيدة اقرب الفرق الى خطأ التفسير اللغوى — وهم المرجئة — فقد نجم خطؤهم من الجهل باصطلحات اللغة العربية ، فزعموا ان الايمان لغة هو التصديق ، والتصديق انما يكون بالقلب واللسان ، او بالقلب فقط ، فالاعمال عندهم حسب هذا الفهم المنحرف ليست من الايمان .

ويتضح خطؤهم اذا بحثنا فى قضية الايمان ، فان الافعال تسمى ايضا تصديقا ، وهذا معنى الايمان المتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم . مثال ذلك ما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العينان تزنيان وزناهما النظر والاذن تزنى وزناها السمع واليد تزنى وزناها البطش والرجل تزنى وزناها المشى والقلب يتمنى ذلك ويشتهى والفرج يصدق ذلك او يكذبه) وكذلك قال اهل اللغة وطوائف من السلف والخلف قال الجوهرى: الصديق الدائم التصديق الذى يصدق قوله بالعمل .

اضف الى ذلك ما يلى :

ا — من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل ، العمل من الايمان والايمان من العمل ، وهذا معروف ايضا عن غير واحد من السلف والخلف انهم يجعلون العمل مصدقا للقول ورووا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم .. فقد سأل ابو ذر النبى صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال (الايمان الاقرار والتصديق بالعمل) ثم تلا (ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الى قوله (واولئك هم المتقون) .

ب — وروى عن على بن ابى طالب انه قال : ان الايمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب فكلما ازداد العبد ايمانا ازداد القلب بياضا ، حتى اذا استكمل الايمان ابيض القلب كله . وان النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد القلب سوادا حتى اذا استكمل النفاق اسود القلب ، وايم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه ابيضا ، ولم شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه اسودا . وقال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

جـ — عرف الحسن البصرى الايمان بقوله (ليس الايمان بالتحلى

ولا بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلوب وصدقته الاعمال) (٨) .

لم يكن الكلام فى الدين اذن تطورا من البسيط الى المركب ، او من الادنى الى الاعلى ، بل كان نكوصا من الكمال الى النقصان ، وعصيانا للاوامر ، وانشقاقا عن الجماعة . وهذا ينقلنا الى بحث عوامل نشأة المشكلات الكلامية.

عوامل نشأة المشكلات الكلامية :

من استقراء المراحل التى مر بها الجدل فى اصول الدين واثارة التساؤلات وفتح باب المناقشات فى القضايا المنهى عن الجدال فيها . نستقرىء عوامل نشأة المشكلات الكلامية .

ونكاد تجمع المصادر التاريخية على تعطيل ظهور الجدل بعوامل خارجية ، اى من قبيل الغزو الثقافى الاجنبى . وتشير أصابع المؤرخين الى هذا المصدر ، حيث هبت منه اعاصير النزاع بعد أن كانت العقيدة راسخة فى النفوس والقلوب ، حيث امدت المسلمين الاوائل بطاقات هائلة فمضوا فى طريقهم لتحقيق الغاية وجعل كلمة الله هى العليا .

ولكن الجدل المنهى عنه ادى الى انحسار حضارة المسلمين فعكفوا يتجادلون ويتناحرون ، فوقفت عجلة المد الاسلامى وتقوقع المسلمون ، فسهل على اعدائهم غزوهم فى ديارهم .

ويصف ابن قتيبة المظاهر الطارئة على المسلمين بقوله (وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون فى معادلة الصبر بالشكر ، وفى تفضيل احدهما على الاخر ، وفى الوساوس والخطرات ، ومجاهدة النفس ، وقمع الهوى فقد صار المتناظرون يتناظرون فى الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر ، فهم دائبون يخبطون فى العشوات ، قد تشعبت بهم

---

(٨) ابن تيمية : الايمان ص ١٧٣ — ١٧٤ — ١٧٩ .

الطرق وقادهم الهوى بزمام الردى) (٩) .

وهذا هو الدرس التـــاريخى الذى وعاه شـــيوخ الحديث والسنة ، فحذروا من تضييع الجهود فى محاولات جدلية ســـقيمة ، وراوا فى تشقيقات المتكلمين بدعا من ناحية ، واستهلاكا لطـــاقة تبذل فيما لا طـــائل وراءه من ناحية أخرى ، حيث جاء القرآن بأكمل المناهج فى الحجاج العقلى ، وفرغ المسلمين الى العمـــل .

وقد راينا اهل افضل القـــرون كيف استمســـكوا بالمنهج الاســـلامى الصحيح فى العقيدة حيث يرى شيخ الاسلام ان افضل الخـــلق بعدهم هم المقتدون بعلم وعمل الصحابة وتتحقق هذه المتابعة بصفة خاصـــة بواسطة علماء الحديث ، فهم أهل الاثار النبوية وهم اهل العـــلم بالكتاب والسنة فى كل عصر ومصر (١٠) .

وبمتابعة الازمنة بعد عصر الحجاج نرى انه كلما بعد الزمن وقل عدد الصحابة والتابعين بعدهم ، بدأت البدع تظهر تدريجيا ، لان نور النبوة فى الاصل كان بمثابة الشمس الساطعة التى طمست الكواكب وعاش السلف فيها برهة طويلة ثم حجب بعض نور النبوة (١١) .

وبانقضاء دولة الخلفاء الراشدين ، وتولى زمام الحكم من هم اقـــل منهم مرتبة ظهـــر اثر ذلك فى بعض قضـــايا أصول الدين مثلمـــا ما اثارة الخوارج . ولما كان ظهورهم فى اواخر حكـــم على بن ابى طالب رضى الله عنه مرتبطا بالخـــلافة او الامامة الكبرى فقد تبعـــه بدع الاحكام والاعمال والاســـماء .

ثم ظهر الملـــك على يد معـــاوية ، ثم الامارة الى ابنه يزيد وانشـــق المسلمون على أثر مقتل الحسين بن على بالعراق وفتنة الحرة (سنة ٣٧ هـ)

---

(٩) ابن قتيبة (الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهميـــة والمشبهة) — كتاب عقائد الســـلف ص ٢٢٤ تحقيق د النشار وعمـــار الطالبى منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١ م .

(١٠و١١) ابن تيمية : بغية المرتاد ص ١١٢ .

بالمدينة وقيام عبد الله بن الزبير بمكة فى وجه بنى امية والمختار بن أبى عبيدة وغيره من الشيعة بالعــراق .

وعلى اثر هذه الاحداث الجسام ، برزت الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة ، فقد قام بعض الصحابة آنذاك بالرد على هذه البدع والوقوف فى وجهها وهم على سبيل المثال : عبدالله بن عباس (٦٨هـ) . وعبــد الله بن عمر (٧٣هـ) ، وجابر بن عبد الله (٧٨هـ) وأبو سعيد الخدرى (٩٤هـ) ، وغيرهم .

ويضرب ابن تيمية مثلا على ذلك بأن القدرية لم يجــرؤا على الكلام فى الذات او الصفات الالهية الا فى أواخر صغار التابعين ، أو فى أواخر الدولة الاموية ، وكانوا قبل ذلك يقتصرون على الكلام فى الاحكام والوعد والوعيد .

ويتضح مما سبق أن الحياة الدينية تأثرت فى بداية العصر العبــاسى بعاملين : أحدهما ، ظهور سلطان الموالى من غير العرب لا سيما العناصر الفارسية وانحسار الامر عن ولاية العرب ، والعامل الثانى ، وهو ترجمة كتب الفرس والروم والهند . ومما ساعد على قــوة تأثير هذين العاملين ان صحابة الرسول صلوات الله عليه كانوا قد ماتوا عند انتهاء خلافة الراشدين فيما عدا القليل ، وكذلك الحال بالنســبة للتابعين اذ مات أغلبهــم فى زمن امارة ابن الزبــير .

أما تابعو التابعين فقد انقضى عصرهم فى أواخر الدولة الاموية ولهــذا لم تجد التيارات الجــديدة التى تسللت الى المسلمين من يقف فى وجههــا لصدها مثلما فعل الخلفاء الراشدون والصحابة فى عصرهم من قبل .

واستنتج شيخ الاسلام من هذه الاحــداث ظهور أمور ثــلاثة هى : الرأى والكلام والتصوف »(١١ أ) .

واغلب الظن ، من جهة أخرى أن شيخنا قصد ترتيب ظهور الرأى ثم

(١١ أ) ابن تيمية — كتاب السلوك ص ٣٥٨ . ط الرياض

ثم الكلام ثم التصوف بتسلسل زمنى على اثر الترجمة خاصة وانه يتكلم عن المأمون (٢١٨هـ — ٨٣٣م) الذى شجعها — والمعروف — كما يذكر صاحب الفهرست خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥ — ٧٠٤ م) الذى كان يسمى حكيم آل مروان « هو أول من قام بالترجمة » . يقول ابن النديم " كان فضـــلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة فأمر باحضـــار مجموعة من فلاسفة اليونانين .. وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى القبطى الى العربى ،وهذا اول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة)(١١ب) .

ونستدل من تعيين الشيخ الســـلفى للمأمون دون غـــيره ، ان هذا الخليفة اشتهر بالميل الى التشيع والاعتزال ، وفضـــلا عن مشـــكلة خلق القرآن التى ارتبطت فى الاذهان ، فأن الباحث عن اسباب ذلك يجـــده دون كبير مشقة فى كتب التاريخ التى تكاد تتحد فى وصفها له .

يقول ابن الاثير (انه كان شديد الميل الى العلويين والاحسان اليهم)(١١ج) ذكر ابن كثير ان المأمون لما ابتدع التشيع والاعتزال فرح بذلك شيخه بشر المريسى (١١٨ هـ — ٨٣٣ م). وكان من شيوخ الاعتزال(١١د) .

يضيف صاحب « تاريخ بغداد » انه كان الى حد غير قليل تحت سلطان الفرس ووزرائهم(١١و) كأن شيخ الاسلام حاول بذلك ان يثبت ان الترجمة انتجت اثارها الكاملة فى عصر المأمون — أى فى وقت متـــأخر عن عصر الصـــحابة والتابعين — للاسباب التى تذكرها المصادر السالف الاشارة اليها. اوبعبارة اخرى انها وجدت صدى عنده وميلا لتقبل نتائجها . ولكن تحميل الترجمـــة فى النتائج التى حدثت فى العالم الاسلامى حينذاك ليس دليـــلا على كراهية ابن تيمية للترجمة فى ذاتها ولكن بسبب تشجيع المأمون للاتجاهات الفلسفية والكلاميـــة .

(١١ب) ابن النديم : فهرست ص ٣٣٨ .
(١١ج) ابن الاثير : تاريخ الكامل ج ٦ ص ١٧٩ .
(١١د) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧٩ .
(١١و) ابن الخطيب : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ .

هناك اذن عامل داخلى يتمثل فى بدء حركة انحســـار الوازع الدينى والخروج عن الاصول والقواعد المستقرة الثابتة ، ولكن الحركة على ضآلتها فى البداية حوصرت وعولجت بحسم ، ثم اخذت فى الازدياد باتساع رقعــة العالم الاسلامى وشيئا فشيئا ضعفت المقاومة بسبب موت الصحابة وتفرقهم فى الامصار ، ثم موت كبار التابعين ايضا .

ويتضح اثر العامل الخارجى بشكل اشمل اذا بحثنا ظروف الترجمــة وادوارها وآثارها ، فالمشهور أن أول ترجمة للكتب اليونانية الى العــربية تمت فى عهد خالد ابن يزيد بن معاوية (توفى ٨٥ هـ) وكانت فى بداية — فيما يبــدو — قاصرة على العلوم اذ كان يزيد هذا مولعا بكتب الكيمياء(١١هـ) .

ولكن عملية الترجمة بدات على نطاق واسع بواســطة يحيى بن خالد بن برمك (متوفى ١٩٠ هـ) فى خلافة الرشيد .

وواقعة الترجمة لا تخلو من بعض المعانى التى يحسن بالبــاحث أن يتأملها حيث قيل ان يحيى بن خالد هذا كان زنديقا ، وانه صانع ملك الروم وارسل اليه الهدايا طالبا نقل الكتب اليونانية — وكانت مخبأة تحت بناء — فجمع الملك البطارقة والاساقفة والرهبان طالبا منهــم المشورة والراى ، وكان من رايه أن الخير فى حبس الكتب عن رعيته من النصــارى لانه خاف عليهم منها اذ قد تكون سببا لهلاك دينهم ، ويفضــل ارسالها الى خــالد البرمكى لكى يبتــلى بها المســلمون ويسلم رعــاياه من شرها ، فوافقــه المجتمعون على ذلك فنفــذه .

واهتم بها يحيى بن خالد البرمكى (فجعــل المناظرة فى داره والجدال فيما لا ينبغى ، فيتكــلم كل ذى دين فى دينــه ، ويجادل عليه آمنــا على نفســه) ١٢ .

وتشير رواية اخرى الى أن المأمــون (٢١٨ هـ) هو الــذى طلب من صاحب جزيرة قبرص خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم فى بيت لا يظهر عليه

(١١هـ) السيوطى : صون المنطق ٤٢/١ .
(١٢) ن . م ص ٤١ .

احد فأشار عليه خواصه باجابة المأمون الى طلبه بهدف احداث الفتن بينهم (فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية الا افسدتها واوقعت بين علمائها) (١٣) .

ومن المحتمل أن الرواية قد حدث فيها بعض الاضافات الا انه من الثابت أن المأمون قد شجع عملية الترجمة والخوض فى علم الكلام ، ولذا فان ابن تيمية كان يعلق على ذلك بقوله (ما اظن أن الله يغفل عن المأمون ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الامة من ادخاله هذه العلوم بين اهلها) (١٤) .

ويلحظ الباحث اجماع مؤلفى كتب الفرق على ارجاع ظهور المشكلات الكلامية الى تيار خارجى ، ولا يمكن أن يكون هذا الاجماع الا صدى لحقيقة تاريخية ثابتة امامهم فنقلوها نقلا متواترا بعضهم عن بعض .

والعبارة المذكورة فى كتب الفرق والتاريخ تكاد تتشابه فتذكر اسماء من اثار المشاكل والمتتبع لها وناقلها الى محيط الثقافة الاسلامية فتذكر (ان البدع فشت أصلا بعد القرون الثلاثة وان كان قد نبع اصلها فى اواخر عصر التابعين ، فان اصل مقالة نفى صفات الله تعالى — اى التعطيل للصفات — انما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين ، فان اول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة فى الاسلام هو الجعد بن درهم واخذها عن الجهم بن صفوان واظهرها فنسبت اليه ، وقد قبل أن الجعد اخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، واخذها ابان عن طالوت بن اخت لبيد بن الاعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هذا فيما قيل من اهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا اهل دين النمرود الكنعانيين الذين صنف بعض الساحرين فى سحرهم . والنمرود هو ملك الصابئة اذ ذاك الا قليلا منهم على الشرك ،

---

(١٣) ن . م ص ٤١ .
(١٤) ن . م ص ٤٢ .

وعلماؤهم الفلاسفة .. وكثير من الصـــائبة او اكثرهم(١٥) كانوا كفـــارا ومشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ومذهب النفاة الذين يقولون ليس له صفات الا ســـلبية او اضافية او مركبة منهمـــا وهم الذين بعث سيدنا ابراهيم خليل الرحمن اليهـــم فيكون الجعد اخـــذ عقيدته عن الصائبة واخذاه الجهم ايضـــا — فيما ذكره الامام احمـــد رضى الله عنـــه — عنه — وعن غيره وكذلك ابو نصر الفارابى دخل حران واخذ عن فلاسفة الصابئة تمام فلسفته لما ناظر السمنية فرجعت اسانيد الجهـــم الى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضـــالين . اما من الصـــابئين واما من المشركين . فلما عربت الكتب الرومية زاد البـــلاء مع ما القى الشـــيطان فى قلوب اهل الضلال . ولما كان بعد المائة الثانية انتشرت هذه المقـــالة التى كان السلف يسمونهـــا مقـــالة الجهميـــة بسبب بشر بن غيـــاث المريسى وذويـــــه) (١٦) .

وقد ارخ المسعودى لمراحل انتقال المدارس الفلسفية ايام اليـــونان من أثينا الى الاسكندرية ثم الى انطاكية ثم الى حران ، متتبعـــا انتقالها الى العالم الاسلامى ذاكرا الافراد المهتمين بها ، مبينا ان مجلس تعليم الفلسفة انتهى فى أيام المقتدر ، وابراهيم المـــروزى ثم الى ابى محمد بن كرنيب وابى بشر متى بن يونس تلميذى ابراهيم المروزى .

ثم علق المسعودى بعد هذا بقوله :

(وعلى شرح متى لكتب ارسطاليس المنطقية يعول الناس فى وقتنا هذا — توفى المســـعودى عام ٣٨٥ هـ — وكانت وفـــاته ببغـــداد فى خلافة الراضى ، ثم الى ابى نصر محمد بن محمد الفارابى تلميذ يوحنـــا بن حيلان وكانت وفاته بدمشق فى رجب سنة ٣٣٩ هـ) (١٧) .

---

(١٥) وأن كان الصابى قد لا يكون مشركا بل مؤمنا بالله واليوم الاخـــر كما قـــال تعـــالى (ان الذين آمنـــوا والذين هادوا والنصـــارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلهم اجـــرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة .

(١٦) شرح السفارينى ج ١ ص ٢٠ — ٢١ .

(١٧) المسعودى : التنبيه والاشراف ط القـــاهرة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ ص ١٠٦ تصحيح ومراجعة عبد الله اسماعيل الصاوى .

ويبدو اننا اذن امام غزو ثقافى منظم يريد الكيد للاسلام واهله ، جوبه فى بدايته بمقاومة شديدة ايام الصحابة والتابعين كمـا ظهر لنـا آنفا ، ثم ازداد على اثر موت المدافعين الاول ، وقد ثبت ان خلفاء بنى امية قـاوموا هذه التيارات بشدة ، قال القيروانى (رحم الله بنى امية لم يكن فيهـم قط خليفة ابتدع فى الاسلام بدعة) (١٨) .

اما دولة بنى العباس فقد قامت على اكتاف الفرس ، وربمـا حدثت عملية الغزو من جراء فشلهم فى هزيمة المسلمين فى ميادين القتال فخاضوا معهم هذه المعارك الثقافية لمحاولة تقويض العقيدة ، وهذا ما ذهب اليه ابن خلدون فى مقـدمته .

وقد ضخم من اثر ظهور الموالى عامل الجهل باللغة العربية واسرارها واصطلاحاتها وعدم فهم لسان العـرب الجارى عليـه نصوص القـرآن والسنة ، اذ أرجع الامام الشافعى القول بخلق القرآن ونفى الرؤية وغـير ذلك من المسائل الى الجهل بالعربية ، وكان الحسن البصرى يقول (انمـا اهلكتكم العجمة)(١٩) .

وازاء هذا كله ، ذم السـلف علم الكلام المبتـدع ، والى القـارىء اسباب ذلـك .

ذم السـلف للكـلام :

تبين لنا مما تقدم ان المسلمين الاوائل من الصحابة والتابعين عارضوا الانشقاقات التى احدثها البعض ، واظهروا معارضتهم لهذه البدع الطارئة وهى فى جوهرها كانت نوعا من انواع الغزو الثقافى الزاحف من حضـارات وديانات اخرى كان المجتمع الاسلامى عند نشأته فى المدينـة المنورة محصنا ازاءها ، اذ كان الوحى يتنزل على الرسـول صلى الله عليه وسـلم وكان الصحابة يتلقـون منه كل ما يحتـاجونه فى حياتهم الفـردية والاجتماعية

---

(١٨) السيوطى : صون المنطق ج ١ ص ٤٢ .
(١٩) نفس المصـدر ص ٥٦ .

ويستفسرون عما يعن لهم فى العقيدة والعبادات والمعاملات . كما سألوا عن المسائل الغيبية وعرفوا الاجابات عنها من النبى صلى الله عليه وسلم كصفات الله سبحانه وتعالى والحياة الاخرة والجنة والنار والعذاب والعقاب والملائكة والجان وغير ذلك من امور الغيب .

والبدعة اصطلاحا هى (التعدى فى الاحكام والتهاون بالسنن واتباع الاراء والاهواء وترك الاقتداء والاتباع) (٢٠) .

وفى ضوء هذا التعريف ، يصح بحث اسباب ذم السلف للكلام ورفضهم لما ادخله المتكلمون على البيئة الثقافية الاسلامية من تساؤلات وما يحتوه من قضايا وما استخدموه من مصطلحات طارئة .

ويمكن ان نستخلص هذه الاسباب فى ضوء معرفة حقيقة الصراع الذى بدأ فى ميدان العقيدة بين الاسلام والتيارات التى اخذت تهب من الخارج والتى استهدفت زعزعة العقيدة فى النفوس باعتبارها الحصن المكين الذى تمكن به الصحابة والتابعون وتابعوهم من خوض المعارك الكبرى المنتصرة فى تاريخ الاسلام .

وتتلخص أسباب ذم علم الكلام فيما يلى :

اولا — لقد اغنى الله تعالى المسلمين بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عن الالتجاء الى مصادر اخرى لمعرفته عز وجل او اثبات توحيده وصفاته واسمائه الحسنى ، فقد ارسل الرسول (بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) مع تكليفه بالتبليغ (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) المائدة ٣ و ٦٧ .

وقد ادى الرسول صلى الله عليه وسلم الامانة وبلغ الرسالة على خير وجه واشهد المسلمين على اتمام التبليغ فى خطبة الوداع (الا هل بلغت؟) وكمل اتمام الدين بقوله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم) المائدة ٣ .

وهذا يثبت ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك امرا من امور

---

(٢٠) السيوطى : صون المنطق جـ ١ ص ١١٧ .

الدين — اصوله وفروعه — الا وقد اوضحها واتم بيانها ، بل انه كان يبلغ كل اوامر ربه عز وجل فى التـو واللحظـة ولا يؤخرها (ومعلـوم أن أمر التوحيد واثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة اليه ابدا فى كل وقت ومكان ، ولو أخر عن البيان لكان التكليف واقعا بمـا لا سـبيل للنـاس اليه ، وذلك فاسد غير جائـز) (٢١) .

~~ثالثة~~ ثانيا — يرى علماء السلف أنه بمسائله واصطلاحاته وأبحاثه يعد من قبيل فضول الكلام الذى لا يفيد الاشتغال به بل ان العمل به مضيعة للجهد والوقت بعد ان كفانا الله عز وجل مؤونة العكـوف على مسائله بمـا بين لعباده ما يحتاجون اليه فى عاجلهم وآجلهم (واوضـح لهم سـبيل النجـاة والتهلكة وأمر ونهى واحل وحرم وفرض وسن) هذا فضلا عن اننا نعثر فى الاحاديث النبوية على توضيحات لكافة المباحث التى خاض فيها المتكلمون . فقد اشتمل الحديث على معرفة (اصول التوحيد وبيـان ما جاء من الوعد ووجوه الوعيد وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين والاخبار عن صفات الجنة والنار وما أعد الله فيهما للمتقين والفجـار وما خلق اللـه فى الارضين والسموات منصنوف العجائب وعظيم الايات وذكر الملائكة المقربين ونعت الصافين والمسبحين) (٢٢) .

~~رابعا~~ ثالثا — خشية الفتنة بسبب استخدام المصطلحات الكلامية التى لم يأتهـا الكتاب والسـنة اذ لم يدع الرسول صلى الله عليـه وسلم الناس فى امر التوحيد الى الاستدلال بالاعراض والجواهر فضلا عما ادت اليه هذه المصطلحات من منـازعات وخصومات بين المسـلمين لعدم الاتفـاق على مدلولاتها وتركيباتها فاصبح لكل فرقة تشقيقات كلاميـة تختلف عن غيرها وظهرت الفرقة بين صفوف المسلمين (٢٣) .

والحق ان اسباب ذم السلف لعلم الكلام لا يمكن تقديرها حق قدرها

---

(٢١) صون المنطق جـ ١ ص ١٤١ .
(٢٢) نفس المصدر ص ١٩٤ .
(٢٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .

وفهمها على وجهها الصحيح الا اذا وضعناها فى اطار الصراع الثقافى الحادث فى المجتمع الاسلامى عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه وانقضاء دولة الخلافة الراشدة .

ونضرب على ذلك امثلة من واقعنا المعاصر . فنتساءل : هل يجرؤ احد فى بلاد الاتحاد السوفيتى مثلا حيث النظام الماركسى القيام بالدعوة لنظم الغرب فى الحكم والاقتصاد ؟ انه بلا شك سيواجه بتهمة الخيانة العظمى فامايعدم أو يطرد من بلاده شر طرده . كذلك فان اية حركة تقوم فى الغرب، لمحاولة المساس بالنظام الديمقراطى فى الحكم او الاقتصاد الحر فى الاقتصاد الا وتواجه بمقاومة عنيفة من الراى العام .

بمثل هذا نستطيع تقريب فهم ما حدث من معارضة للمتكلمين فى عصر الحضارة الاسلامية الزاهية ، حيث تأكد لعلماء الحديث والسنة بطريقة لا تقبل الشك ويشهد بها التاريخ ويقرها الواقع المائل امامهم ان عقيدةالاسلام وعباداته ونظمه واخلاقياته قد تحققت كاملة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلافة الراشدة فكانت دولة عالمية تشع نورا بقيمها وعلومها ومثلها العليا ، فكان العلماء حريصين على بقاء هذه الدولة العظمى بأركانها جميعا ، واهم اركانها بلا شك هى العقيدة بأصولها المدعمة بالادلة من الكتاب والسنة ، فلما جاء المنشقون لاثارة اللغط حول ما بنى واكتمل وظهرت آثاره ، رأوا انه بمثابة معول هدم لن يتوقف الا بعد ان يتحول البناء الى ركام .

ونحن نرى — من زاوية التشابه مع نظرتنا المعاصرة التى بيناها آنفا — نرى أنهم كانوا محقين فى معارضتهم . وسيزداد اقتناعنا كلما مضينا فى بحثنا .

علم الكلام بين الاصالة والابتداع

ان من ســمات منهجنــا فى هذه الدراسة النظــر الى علم الكلام من اتجــاهين :

أحدهما الاتجاه الذى يتبناه شــيوخ المعتزلة والاشــاعرة بمفــاهيم ومصطلحات بعضها الاسلامى والآخر مستعار من ميتا فيزيقا اليونان كالقول بالقديم والمحدث والجوهر والعرض وغيرها .

والاتجاه الثانى الذى يتبنــاه علمــاء الحديث والسنة ويتلخص فى أن القرآن الحكيم قد استوفى القضايا التى خاض فيها المتكلمون .

وتظهر اصالة المنهج عندهم اذا استخلصنا من آرائهم السمة الظاهرة المصطبغ بها نتاجهم ، ويتضح ذلك بصفتين ظاهرتين :

الاولى : الاستناد على طرق الاستدلال القرآنية لتدعيم نقدهم للنظريات الكلامية فى دوائر الفرق الكلامية المعروفة .

الثانية : رفضهم تقسيم دائرة الاسلام الكبرى الى دوائر متفرقة ،لأنه ينبغى فى رايهم معرفة الاسلام واعتناق عقيدته بمنهج متكامل ، لأنه شامل : يحدد الغرض من حياة الانسان مخاطبا عقله ، ومغذيا وجدانه وراســما له طريق السلوك الصحيح المؤدى الى سعادة ممتدة من حياة الدنيا المؤقتــة الى حياة الآخرة الخالدة .

وفى هذا المعنى نجد ابن تيمية يرفض تجزئة الاسلام ، فالصوفية فى رأيه بنوا امرهم على الارادة وحدها ، والمتكلمون بنوا امرهم علىالنظــر وحده . ولكن لابد من ان تكون الارادة عبادة الله تعــالى وحده بما أمر ، وأن يكون النظر فى الادلة التى دل بها الرسول صلى الله عليــه وسلم ، وهى آيات الله تعالى(٢٤) .

ويوجز نقده لاهل الكلام بقوله (انهم قصروا عن معرفة الادلة العقلية

---

(٢٤) ابن تيمية ــ معارج الوصول الى أن معرفة الدين وفروعه قد بينها الرسول ص١٨ .

التى ذكرها الله فى كتابه وعدلوا عنها الى طرق اخرى مبتـدعة)(٢٥) بينما الحقيقة المؤكدة ان القرآن (جعله الله شفاء لما فى الصدور ، لكن قد تخفى **آثار الرسالة** فى بعض الامكنة والازمنة ، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسـول صلى الله عليه وسلم ، اما أن لا يعرفون اللفظ ، واما ان يعـرفوا اللفظ ولا يعرفون معناه)(٢٦) .

فما علم الكلام عند المتكلمين ؟

أورد التهانوى الآراء التى قيلت فى تعليل تسميته بعلم الكلام ، منها انه يورث قدرة على الكلام بالشرعيات،ومنها ان ابوابه عنونت اولا بالكلام فى كذا . ومنها أن مسألة الكلام أشهر اجزائه حتى كثر فيه التقاتل كما سمى كذلك بأصول الدين لانه الاصل الذى تنبنى عليه العلوم الشرعية . وسماه ابو حنيفة (الفقه الاكبر) لأنه الاشتغال بأصول الدين ، لا بالاحكام الفرعية العمليـة .

ويسمى ايضـا بعلم النظـر والاسـتدلال ويسمى بعلم التوحيـد والصفات(٢٧) .

---

(٢٥) ابن تيمية منهاج السنة ج٢ ص٦٢ .
(٢٦) ابن تيمية مجموع الفتاوى ج١٧ ص ٣٠٦ .
(٢٧) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ص٣٠ — ٣٣ .

الفصـــل الثانى :

علم الـــكلام

ـــ تعريف علم الكلام .

ـــ علم الكلام بين الاصالة والبدعة .

ـــ حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم .

ـــ راى علمـــاء الحديث فى هذه الحجج .

الفصل الثانى

علم الكلام

ان علم الكلام عنـد ابن خلدون (علم يتضمن الحجـاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية ، والرد على المبتدعة فى الاعتقـادات عن مذاهب السلف وأهل السنة .

ومع انه اجاز الدفاع عن العقائد الايمانيـة بواسطة الادلة العقليـة الا انه عاد فأوضح ان المسائل الغيبية انما هى لا تقع فى حيز الامكانيات التى يستطيع العقل وحده الاهتداء اليها لأنها فوق طور العقل . وتحدث ايضا عن الملكة الايمانية الراسخة فى النفس من أثر اداء العبادات فيقول :

(فقد يتبين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب فى التكاليف كلها حصول ملكة راسخة فى النفس يحصل عنها علم اضطرارى هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذى يحصل بها السعادة) .

ثم اخذ يحدد معالم الفكر والنطاق الذى يدور فيـه ويصف الحـدود الضيقة التى لا يستطيع أن يتجاوزها ، وأن الفكر عاجز عن الاحاطة بتفصيل الوجود كله — أى الوجود المطلق — لأن الوجود (عند كل مدرك فى بادىء رايه منحصر فى مداركه لا يعدوها فالامر نفسه بخلاف ذلك) . وأن الامثـال التى يسوقها مؤرخنـا تدعم هذا الرأى ، فالاصم ينحصر الوجود عنـده فى المحسوسات الاربع ويفقـد صنف المسـموعات ويسقط عند الاعمى صنف المرئيات .

ان هذا يثبت عجز الادراك الانسانى عن الاحاطة بما فى الوجود كله ، فما بالنا بخالق هذا الكون سبحانه وتعالى ؟

ولكن لا يعنى هذا القدح فى العقل بل العقل ميزان صحيح لأن أحكامه يقينية — ولكن بسبب ما بيناه من عجزه عن الاحاطة بالوجود — لأنه أوسع نطاقا من المدارك الانسانية أى أن العقل لا يستطيع الانسان أن يزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقـائق الصفات الالهية(28) . وربما كان

(28) مقدمة ابن خلدون ص382 — ط دار الفكر 1399هـ — 1979م .

المثال الذى ضربه لنا ابن خلدون فى هذا الصدد يعد أقوى دليل فيما يقدمه من رأى دقيق لاثبات عجز العقل عن ادراك ما وراء طوره فى المسائل الغيبية اذ يقول : (وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع ان تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع فى محال ، **ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال** ، وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه ، وتفطن فى هذا الغلط من يقدم العقل على السمع فى أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه ، فقد تبين لك الحق من ذلك(٢٩) . .

وقد أشار ابن خلدون فى تعريفه الى اهم النقاط المثيرة للخلاف بين علماء الكلام فى دائرتى المعتزلة والاشاعرة ، وبين علماء الحديث والسنة مما جعلنا نرجح أن وراء هذه الاسطر قراءات متشعبة ومستوعبة لقضايا أصول الدين ووجهات النظر المتباينة حولها .

ويتضح أيضا أنه أعطى الجانب النقدى اهتمامه أيضا .

لذلك لا ينبغى ان ننسى جبهة عريضة وقفت تعارض علم الكلام فى دائرة السلف من علماء الحديث على مر الاعصار وتعده من قبيل البدع الطارئة على الفكر الاسلامى ، وأنه أدى الى الاضطرابات والفتن ، وفتت جهود المسلمين وأجهد عقولهم فى مجال كفاه القرآن والسنة . وحتى أمام وجهة النظر المدافعة عن المتكلمين بأنهم دافعوا عن الاسلام فان الرأى المعارض — الذى يمثله ابن تيمية والجامع للاتجاه السلفى قبله — على العكس — يرى أنهم أخفقوا فى هذه المهمة لانهم لم يستندوا فى أصولهم على المبادىء الاستدلالية القرآنية (فالمتكلمون الذى ابتدعوه وزعموا انهم به نصروا الاسلام وردوا به على أعدائه كالفلاسفة ، لا الاسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل كان ما ابتدعوه ما أفسدوا به حقيقة الاسلام على

---

(٢٩)المقدمة ص٣٨٤ .

من اتبعهم(٣٠) . ومضى يذكر اسباب ذلك ودوافعه مما لا يدخل فى نطـــاق موضوعنا الآن ، وسنفصله عند الحديث عن آرائه الكلامية . ونقتصر هنا على بيانه لخطأ المتكلمين المنهجى — وهو يعبر لنا عن الاتجاه السلفى العام ، اذ يستند الى ضرورة طلب علم ما انزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة كما فعل الصحابة والتابعون ومن سلك سبيلهم لاسيما فى اصول التوحيد والايمان — ثم بعد معرفة ما بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر فى أقوال المفكرين وما ارادوه بها فتعرض على الكتاب والسنة . مع العلم بأن العقل الصريح دائما موافق للرسول صلى الله عليـــه وسلم لا يخالفـــه قط ، فان الميزان مع الكتـــاب « والله أنزل الكتاب بالحق والميزان » ، ولكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول . واذا كان هذا هو المنهج الصحيح فان المناهج المخالفة على العكس من ذلك ، فانها ناجمة عن ابتداع بدعة برأى البعض وتأويلاتهم ، ثم جعل ما جاء به الرسول تبعا لها ، فيحرف الفاظه ويؤولها على وفق ما أصلوه (٣١) .

اهم موضوعات علم الكلام : —

تدور المناقشات فى اصول الدين التى يتكلم المتكلمون فيها ويتناظـــرون عليها ، حول المسائل الآتية :

اولا : الرد على الدهرية القائلين بقدم العالم فأخذ المتكلمون يبرهنون على حدوث الاجسام والدلالة على ان للعالم محدثا هو الله تعالى .

ثانيا : تنزيه الله عز وجل ، للرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ودحض مزاعم القائلين بكثرة الصانعين كالمجوس ، فقد شبه اليهـــود الله سبحانه وتعالى بصفات المخلوقين وادعى النصارى بالقول بالتثليث ، وقال المجوس باله النور واله الظلمة .

---

(٣٠) ابن تيمية — شرح حديث النزول ص ١٦٣ .
(٣١) ابن تيميه : مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج ١٧ ص ٤٤٣/٤٤٤ .

ثالثا : اثبات أن الله تعالى عالم قادر حى قيــوم ، وانه واحد ، للرد على المعطلة النافين للصفات .

رابعا : الكلام فى رؤية الله عز وجل فى الجنة ، واثباتها أو نفيها ، وأن كلام الله مخلوق أو غير مخلوق .

خامسا : البحث فى أفعال العباد وهل هى مخلوقة يحدثها الله تبــارك وتعالى أو العباد واذا كانت الاستطاعة قبل الفعل أو معه .

سادسا : الحكم على من مات مرتكبا الكبائر ، فهــل يخلد فى النــار أو يجوز أن يرحمه الله تعالى ويتجاوز عنه ويدخله الجنة ؟

سابعا : الدلالة على النبوة بعــامة ، ردا على البراهمة وغيرهم من مبطلى النبوة ، والدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بخاصة .

ثامنا : القول فى الامامة ومن يصلح لها ومن لاتصلح له وهل هى قضية مصلحية تتم بأهل الحل والعقد فى الامة أم أنها تتم بالنص ؟(٣٢) .

هذه هى المسائل المثارة فى المدارس الكلامية ، ويظهر من مصطلحاتها أنها ترتبط بمراحل تاريخيــة للمسلمين من أهم سماتها أنهم . كانوا فيهــا أصحاب الحضارة السائدة فى عالمهم .

والآن ، حلت مشكلات أخرى ، فأصبح من الضرورى أن يجابهها الفكر الاسلامى بطرق ملائمة لثقافة العصر وحضارته . فاذا صورنا العالم الاسلامى أيام الاشتباك العقلى مع خصوم الاسلام ، فانه من الواضح انه كان مهاجما ، يملك فى يديه العناصر الحضــارية الاسمى ، ثم انحسرت موجة الحضــارة وانقلب العالم الاسلامى مدافعا بعــد أن كان ممسكا بزمام الامور مرهوب الجانب مسموع الكلمة(٣٣) .

والنظرة العامة لتاريخنا المعاصر تجعلنا ندرك صحة ما نذهب اليه ، فقد اتخذ الغرب موقف المهاجم منذ شن نابليون هجــومه على الشرق الذى

---

(٣٢) الخوارزمى — مفاتيح العلوم ط المنيرية ص ١٧ — ١٨ ط ١٣٤٢هـ

(٣٣) باول شمتز — الاسلام قوة الغد العالمية ترجمة الدكتور محمــد شامة ص٦٤ .

بدا فى التمزيق حينئذ بالغا الذروة فى الحرب العالمية الاولى حيث انهار النظام الذى كان قائما فى ظل الخلافة العثمانية .

وتجددت المشاكل أمام الفكر الاسلامى الذى أخذ يجابهها بأساليب جديدة نتيجة من ناحية لمقاومة الاستعمار ومقاومة المذاهب والبحوث الفكرية التى خلفها بمعاونته فى تمكين سلطته فى رقعة البلاد الاسلامية(٣٤) . ومن ناحية أخرى أصبح من واجب العلماء التعريف بالاســـلام بصورته الشاملة كدين وحضارة وبعث النشاط فى قيمه العليا — ســـواء فى حقائقها الميتافيزيقيـــة أو انظمتها التشريعية والاجتماعيـــة والسياسية — أو فى قيمهـــا الانسانية الاخلاقية فى هذا العصر المصطبغ بالتقدم العلمى المادى ، الذى عزل الانسان عن القيم الروحية التى غذته بها الاديان .

ومهما بلغت العلوم فى تقدمها وازدهارها ، فليس لها أن تعترض طريق الدين . وقد اصبح هذا الاستدلال فى غاية القوة حيث أن العلماء اعترفوا فى هذا القرن بأن العلوم المادية لا تعطى الا علما جزئيا عن الحقـــائق(٣٥) ومن جانب آخر فقد اضطر العلماء الى الانحناء والخضوع أمام آلاء الله عز وجل ، والاقرار بأن الزهو بالعلم والاكتشافات العلمية كان تعبيرا عن قصـــور فى ادراك الانسان لمدى قدرته ازاء سنة الله الكونية ثم اظهرت الاكتشافات أن الانسان لا يستطيع اكتشاف قوانين حياته بنفسه ، وأن الاشياء التى لا نطلع عليها هى أهم بكثير من التى نطلع عليها واقرارا لهذا الواقع ، اشترك نحو مائة وخمسون من كبار علماء العالم فى نشر معجم بعنوان (دائرة معـــارف الجهل)

موضحين الكثير من الظواهر والحقائق الانسانية والكونية التى لا تزال بدون تفسير كذلك مما يقرّب عالم الغيب للاذهان الذى يشمل أصول الدين اغلب قضاياه، محاولات العلماء معرفة عالم الافلاك حولنا وهومادى منظـــور ولكن ابعاده وحركاته وسرعاته وأعداده كلها تحير العقل وتذهله وتعجـــزه عن التصور الحقيقى — لأن هذا العـــالم أعظم وأضخم من القـــوة المتخيلة للاذهان فالانسان الذى يدرس الكون/ مضطر لتغيير قيمه ومقاييسه الى هذه

---

(٣٤) محمد البهى : الفكر الاسلامى فى تطوره .

(٣٥) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى .

السجوم والكتل الهائلة التى لا يستطيع ان يجد لها تشبيها معقولا لا يساعده على تصورها وفهمها(٣٦) .

النظرية النسبية :

ثم جاءت هذه النظرية لتنفى فكرة العبثية عن الكون ولتثبيت ان الظواهر الكونية كلها تخضع لقوانين رياضية ثابتة(٣٧) .

حجج المتكلمين فى الدفاع عن منهجهم : —

يستند علماء الكلام فى الدفاع عن منهاجهم الى الحجج الآتية : —

الاول : ان ظهور علم الكلام فى زمن اتباع التابعين استتبعه استحسان وتم تدوينه بالكتب ، فيعد من هذا الوجه من قبيل البدعة الحسنة ، به انزاحت الشبه عن قلوب أهل الزيغ وثبت قدم اليقين للموحدين .

الثانى : ان ادلة العقول لازمة لبيان صحة اصول الدين وحقائقها ، لأن المنهاج الصحيح فى معرفة حق الكتاب وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم مستند من البراهين العقلية .

الثالث : اذا جعل أصل الدين الاتباع — لا العقل — فان ذلك مخالفة للكتاب لأن الله تعالى ذم التقليد فى القرآن ، وندب الناس الى النظر والاستدلال آمرا بمجادلة المشركين بالدلائل العقلية ومن تدبر القرآن ونظر فى معانيه وجد تصديق هذا الاصل(٣٨) .

الرابع : يرى القاضى عبد الجبار (٤١٥هـ) أنه لما منع الرشيد من الجدال فى الدين وحبس اهل الكلام ، كتب اليه ملك السند يطلب من يناظره ، فوجه اليه الرشيد قاضيا لم يحسن الجدل ، فاضطر الى البحث عمن يناضل

---

(٣٦) زهير الكرمى — مقدمة كتاب (الكون والثقوب السوداء) ص١٢ سلسلة كتب (عالم المعرفة) بالكويت .
(٣٧) نفس المصدر ص٣٦
(٣٨) السيوطى — صون المنطق ص١٥٧ .

عن الدين ، واخرج اهل الكلام من السجن ووقع اختياره على احدهم فبعثوا لمنـــاظرة .

تروى القصة بوقائع أخرى ، تتلخص فى اجتمـــاع الرشيد برجلين من المتكلمين فتكلما فى مسألة فقال لبعض الفقهاء — احكم بينهما فقـــال هذا امر لا يعنينى فأمر له بصلة وقال هذا جزاء من لا يشتغل بما لا يعنيه ، اما الرواية الثالثـــة ، فتشير الى أمره بقتل رجلين تكلما امامه فى مسألة غامضـــة فأمر بقتلهما لأنهما زنديقان .

ولكن المؤيدين لعلم الكلام يستخلصون منها جميعا عجز اهل الحـــديث عن النضـــال عن الدين لمغايرة منهجهم عن طريقـــة المتكلمين المستندة الى العقل .

راى علماء الحديث فى هذه الحجج : —

يرى المعارضون — أن الاختلاف ينبغى أن يفصل بين النظـــر الشرعى والكلام المبتدع ويظهر الاختلاف بينهم منهجيا قبل اى شىء آخر ، اذ يرى اهل الحـــديث ان العقل لا يوجب شيئا فلا دور له ولاحظ فى تحليل او تحـــريم أو تحسين او تقبيح ما لم يرد به الوحى مستدلين على ذلك بقـــول اللـــه : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ١٥ الاسراء ، وقوله عز وجل (رســـلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) النساء ١٦٥ وقال تعالى حاكيا عن الملائكة فيما خاطبوا به اهل النار (الم يأتكم رســـل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى) الزمر ٧١ فيتبين من هذه الآية انه عز وجل اقام عليهم الحجة ببعث الرسل ، فلو كانت الحجـــة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثة الرسل شرطا لوجوب العقوبة ، واذا تأسس الايمان عن العقل لأدى ذلك الى انكار دور الرســـل وكأن وجودهم وعدمه بمنزلة واحدة ، او كأنهم اقتصروا فى دعوتهم على الشرائع وفروع العبادات دون أصول الدين .

وهنا يظهر صورة مختصرة للاعتراض فى صيغة تهكم ، فيرى أحدهم (انه لو قال قائل لا اله الا الله عقلى رسول اللـــه لم يكن مستكرا عنـــد

المتكلمين من جهة المعنى ، فظهر فساد قول من سلك هذا)(٣٩) . وايضـــا ففى الدين معقول وغير معقول والاتباع فى جميعه واجب ، وان الله تعالى هو الذى يعرف العبد ذاته فقد ثبت ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (واللـــه لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فدل على أن الله تعالى يعرف العبد مع وجود العقـــل سبب الادراك والحجة لقوله عز وجل (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) النحل ٦٧ ، وقال (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ق ٥٠ وقال تعالى مخبرا عن اصحاب النار (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنـــا فى أصحاب السعير) الملك ١٠ . فالعقـــل آلة لاقامة العبـــودية ولادراك الربوبية ، فهو آلة التمييز بين القبيـــح والحسن ، السنة والبـــدعة الرياء والاخلاص ، ولولاه لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهى(٤٠) . وقديمـــا عبر الجنيد عن عجـــز العقـــل عن ادراك الربوبية وعاب على المتكلمين منهجهم بقوله (نفس العيب حيث يستحيل العيب ، عيب)(٤١) . ولا ينكر علمـــاء الحديث النظر لزيادة البحث وانما انكروا طريقة اهل الكلام اذ اســـسوا طريقتهم على وجوب النظر أولا المؤدى الى معرفة البارى عز وجل ، بينمـــا ينبت اتباع هذه الطريقة عن النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين بعده(٤٢) ، وقد علمنا من سيرته انه لم يدع أحدا الى الاستدلال بالاعراض والجواهر وحدوث الاجسام كمـــا يفعل أهل الكلام(٤٢) . بل ان دراســـة منهج الانبياء والرســـل يجعلنا ندرك أنهم لم يشتغلوا بالنظر وتلقين أتباعهم والمصدقين بهم الادلة التى هى أصول الاسلام ، لكنهم حرصـــوا على تعليم الشرائع والآداب . وينبغى التمييز بين لفظى التقليد والاتباع ، فالتقليد هو فى قول الغير بلا حجة ، أما الاتباع فانه السير على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قيام الادلة : على نبوته ، المنقـــولة الينا بواسطة أهل الاتقان والثقات من الى ما لا يعد كثرة من المعجزات والبراهين والدلالات ، واهملوا تعليمهم الدلائل وتعليمهم كيفية حل الشبه ، ولو فعلوا لنقل الينـــا تصانيفهم كما نقل الينا كتب الفلاسفة والمتكلمين من علماء المسلمين ، ويذهب

---

(٣٩) القـــاضى عبد الجبـــار — فرق وطبقات المعتزلة ص٦١ — ٦٤
(٤٠) السيوطى — صون المنطق ص١٨٠ .
(٤١) السيوطى — صون المنطق ص١٧٠ .
(٤٢) ابن خلدون — المقدمة .

ابن الوزير اليمانى الى أبعد من هذا فيرى أنه لم ينقل أن اثنين اختلفا فى شىء قط ، ولا كذب احدهما الآخر ولا غلطه ولا خطـــأه ، ولو كانوا اكتسبوا ذلك بالنظر لقضت العادة باختلافهم كما اشتد الاختلاف بين الفلاسفة والمتكلمين ، فان كثيرا منهم قد تفردوا بمقالات حتى قيل اجتماع العلماء فىالنظريات محال. ويضيف الى ذلك دليلا آخر ، هو انقطـــاع الاذكياء فى تحصيل علم الكلام ، دقيقه وجليلة ، مستفيدا بما انتهى اليه الرازى معترفا بالقصـــور عن بلوغ غايته ومنتهاه ، فقرر فى وصيته التى مات عليها (ولقـــد اجتزت الطـــرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم)(٤٣) . ويورد القصـــة التى شـــنع بها اهل الكلام على المحدثين من ارسال ملك الروم الى هارون الرشيد وطلب « المناظرة » وعجز المحدث عنها وسخرية اولئك الفلاســـفة ، فقد كثر الكلام فى التبجح بذلك ، وبحكاية اخرى تشبهها . والجواب عليهم فى ذلك أنهم أرادوا الاستدلال على أنهم اجدل من المحدثين ، فذلك مسلم لهم بل مسلم لهم أنهم اجدل من رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، لأن الكل يعلم انه لم يصـــدر شىء من الكلام ومجادلة الفلاسفة من رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ولا من جميـــع أصحـــابه رضى الله عنهم ولا اشتغلوا بممارستهم لما رواه أهل اللجـــاج . ولا يلزم من ذلك أنهم أقل معرفة بالله ولا أقل نصرة لدين الله ، ولو أحبـــوا الخوض فى علم الكلام واشتغلوا بتعلمه وتعليمه لبلغوا فيه ما أرادوا وعرفوا ما عرف المتكلمـــون وزادوا ، ولكنهم أعرضـــوا اعراض مستغن عنـــه — واستقراء السير والاخبار تدلنا على انهم لم يتبعوا هذا الاسلوب فى الدعوة ، فهاهى قصة جعفر بن أبى طالب ومهاجرو الحبشة مع النجاشى وما راجعه به خطيبهم جعفر حين قيل للنجاشى انهم يقولون فى عيسى عليه السلام قولا عظيما ، فلما سألهم النجاشى عن ذلك اجابوا بكلام اله تعـــالى واحتجوا به على صحة عقيدتهم وتلا جعفر على النجاشى صدر ســـورة مريم حتى بكى النجاشى وأصحابه وكان ذلك سبب اسلامه ، كما أرسل صلوات الله عليه الى هرقل من كان على صفة المحدث الذى أرسله هارون وهو دحيـــة بن خليفة الكلبى ولم يعلمه ما يجيب به عليهم ان أوردوا عليه ما يدق من شبههم

---

(٤٣) ابن الوزير اليمانى — البرهان القاطع ص٥٥ .

وهم اهل المنطق وسائر الدقائق النظرية ، كما بعث الى النجاشى صاحب الحبشة ، والى المقوقس صاحب الاسكندرية وبعث اباعبيدة الى البحرين يعلنهم الاسلام ، وبعث عليا ومعاذا وابا موسى الى اليمن ، وبعث الى سائر الملوك للدعاء الى الاسلام لم يضنيها شيئا من ذلك مثل كتابته الى هرقل والى كسرى . وخلا المنهاج الذى اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم — كما أمره الله عز وجل — هو الاقتصار على مجرد الدعوة الى الاسلام والاتكال فى ايضاح الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من اظهار المعانى وتقديم البيانات الواضحة للعقول ، اذ قال الله عز وجل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيانا لحد ما يجب عليه (فان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) اى فى الذى بمواطنهم وما اقام عليهم من الحجة ، اذ لا مطمع فى هداية المرء والجدل والحجة وكيف يطمع فيهم وقد حكى الله تعالى عنهم انهم جادلوه يوم القيامة وانكروا ما صنعوا معاصيه سبحانه وتعالى حتى شهدت عليهم أيديهم وارجلهم ، فقالوا لاعضائهم لم شهدتم علينا(٤٤) .

وان قيل ان الله تعالى قد امر رسوله صلى الله عليه وسلم بالجدل فى قوله تعالى (وجادلهم بالتى هى احسن) فالجواب من وجهين ، احدهما ، ان الله تعالى بين ذلك بالتى هى احسن ولم يأمره بمطلق الجدال، فامتثل ما أمره ومع ذلك فلم ينقل عنه انه جادل باساليب المتكلمين والجدليين فثبت ان التى هى احسن ليست سبيل المتكلمين مثل ما علم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحاجهم به فى قوله تعالى (قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى شديد قل ما سألتكم من اجر فهو لكم ان اجرى الا على الله وهو على كل شيء شهيد)(*) وتنفيذ للامر الالهى (وانذر عشيرتك الاقربين) فصعد على الصفا فجعل ينادى لبنى قريش حتى اجتمعوا فسألهم (ارايتكم لو اخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم كنتم مصدقى)؟ قالوا (نعم ، ما جربنا عليك الا صدقا) قال (فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) ، والامثلة الاخرى كثيرة فى القرآن عن محاجة الانبياء وجدالهم كما فى سورة هود ، ومحاجة ابراهيم لقومه ومحاجة يوسف لصاحب السجن .

---

(٤٤) ابن الوزير اليمانى/ الروض الباسم عن سنة ابى القاسم صلوات الله عليه ج٢ ص١٣١ . المكتبة السلفية بالقاهرة ١٣٨٥هـ

(*) سبأ : ٤٦ ، ٤٧

الوجه الثانى — إن الله تعالى اجمل كيفية الجدال بالتى هى احسن فى تلك الآيات وبينه فى غيرها بتعليمه فى القرآن العظيم لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب فان حاجوك فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد)، فهذه الآية واضحة الدلالة على الامر بالاقتصار على مجرد الدعاء الى الاسلام والاتكال فى ايضاح الحجة على ما قد فعله الله تعالى لهم من خلق العقول وبعثة الرسول وانزال الآيات واظهار المعجزات وتكثير مواد البينات(٤٥) وسنرى أيضا ان ابن تيمية فى معارضته لعلم الكلام يوضح ان السلف الصالح لم يعارضوا جنس النظر والاستدلال ولكن المعارضة اتجهت الى الاساليب الكلامية المستقاة من الفلسفة اليونانية وكان الاحرى الاحالة الى الادلة الشرعية وفى مقدمتها القرآن الحكيم لانه اتجه فى خطابه للانسان باستثارة قوانين العقل وبراهينه وتحريك وجدانه وايقاظ قلبه من الغفلة .

---

(٤٥) لابن الوزير اليمانى — الذب عن سنه أبى القاسم صلوات الله عليه وسلم جـ٢ ص١٣٨ وما بعدها — ١٤١ .

البـــــاب الرابع

موقف أهل الحديث والسنة من المعتزلة

الفصل الاول :

- التعريف بعلماء الحديث ومنهجهم .
- التعريف بالمعتزلة واصولهم الخمسة .
- دوافع علماء الحديث لمجابهة المتكلمين .
- علم الكلام لدى علماء الحديث والسنة .



التعريف بعلماء الحديث ومنهجهم :

الحديث والسنة يعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سنته المنقولة الينا عن الثقات منذ الجيل الاول — اى الصحابة — ثم التابعين وتابعهم الى ان تلقاها المحدثون بمنهجهم الدقيق فى الجرح والتعديل

ولم يقتصر علماء الحديث بطبيعة الحال على نقل الاحاديث المتعلقة بالفقه والعبادات والاعمال فحسب بل تناولت احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كلها بما فى ذلك ما يتناول اصول الدين من توحيد الله سبحانه والايمان باليوم الآخر والملائكة والبعث والحساب والعقاب والجنة والنار وما الى ذلك من عالم الغيب الذى يشكل موضوعات اصول الدين ، وافرد له المحدثون فى كتبهم ابوابا خاصة .

الى ان الحديث قد دون — فى ارجح الروايات — ايام الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين يستمدون عقائدهم عن اصول الدين من الكتاب والسنة ، وذلك قبل أن يطرأ عامل الترجمة والفلسفة اليونانية ، اذ تحولت المناهج بعدها بين نزاع بين المحدثين من جانب والمتكلمين والفلاسفة من جانب آخر ، اذ ظل أهل الحديث على طريقة الاوائل ، بينما ظهر علم الكلام على يد المعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ممن استخدموا منهجا عقليا فى أصول الدين استخداما خاطئا لانهم أطلقوا الفاظ الفلسفة اليونانية على المعانى الاسلامية .

وقد قام اهل الحديث بمهمة كبرى فى تاريخ الاسلام اذ حفظوا للمسلمين الاصل الثانى من اصول الاسلام ممثلا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لا تستقيم حياة المسلمين بدون معرفتها واتباعها ، وقد نيط بعلماء الاحاديث وتنقيتها وتمييز الصحيح من الضعيف والموضوع فحفظوا لنا تراث النبوة فلم يضع كما ضاع غيره من تراث الانبياء والرسل من قبل وصانوه من التحريف والتبديل والتعديل الذى حدث فى تراث الرسل والانبياء من قبل ،

(١) الخطيب البغدادى — تدوين العلم

وبقى الاسلام بدعامتيه الكبيرتين — كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

الحديث هو اسم من التحديث ، وهو الاخبار ثم سمى به قول او فعل أو تقرير نسب الى النبى عليه الصلاة والسلام(٢) .

وجمع المحدثون بين طريقتى الحفظ والتدوين ، وظهرت مراحل تدوينه وحفظه من المسانيد الى الصحاح .

واقيم العلم على صروح متينة من التنقيح والتعديل والتجريح والتثبيت من صدق الرواة الناقلين للحديث ، وانكب على خدمته الآلاف من العلماء ويتناقلونه جيلا بعد جيل بحرص وداب دون أن يعتورهم الكلل او الملل ، بل يحدوهم الفخار والزهو لانهم يؤدون عملا يتقربون به الى الله تعالى ودخل فى دائرة العبادة ، لانهم يحافظون على سنة رسولهم صلى الله عليه وسلم ، التى بها يعرف المسلمون تفاصيل عبادتهم ويتفقهون فى دينهم ويستنبطون أحكامه ويعرفون شريعته ويقفون أحكام أوامره ونواهيه ، فان السنة تعكس مرآة صادقة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم واقواله وافعاله وتقريراته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (نضر الله امرءا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وادها (٣)) .

سلاسل الاسناد :

ويمتد الاسناد — نقلا عن العلماء — الى الصحابة وتابعيهم .

ويبدأ بالصحابة وعلى راسهم العشرة المبشرين بالجنة الى غيرهم أمثال (أن اعلم الامة واخصها بعلم الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم خاصته مثل الخلفاء الراشدين وسائر العشرة ، .. ممن كان اخص الناس بالرسول صلى الله عليه وسلم واعلمهم بباطن امورهم واتبعهم لذلك .

وقام العلماء المحققون أمثال مالك وابن حنبل والبخارى ومسلم وابن

---

(٢) القاسمى — قواعد التحديث ص٦١ .

(٣) رواه الشافعى والبيهقى عن ابن مسعود القاسمى — قواعد التحديث ص٤٨ .

ماجه والنسائى وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابو يعلى ، والدارمى الى الحاكم والبيهقى والدارقطنى والديلمى وابن عبد البر وامثالهم(٤) كل هؤلاء قاموا بدورهم فى خدمة هذا العلم ينفون عنه تحـريف المغالين ، وانتحـال المبطلين ، وتأويل الجاهليين .

أصل الحديث عن اسامة بن زيد رضى الله عنه ، من النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفقون عنه تحريف المغاليين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهليين)(٥) .

ورواه من الصحـابة غير واحد ، اخرجه ابن عـدى والدارقطنى وابو نعيم .

وكانت جماهير المسلمين الغفيرة تتلقى الاحاديث من علماء لتعرف دينها وتقيم شـعائره ، فلما ظهرت علـوم الكلام والتصوف والفلسفة واتبعهـا البعض ، ظلت الغالبية العظمى من المسلمين متذرعة بمنهج علماء الحديث ، فنبذت غيرها من المناهج لمعرفتها بأنها طارئة دخيلة ، وفدت اليهم من طرق غير طرق المحدثين الناقلين لتراث النبوة . فيكون عندهم علم خاصة الرسول وبطانته .

منهج علماء الحديث فى اصول الدين :

اذا كانت دائرة الحديث فى المرحلة الثالثة على اصحـاب الصحـاح المعروفين فان سندهم فى الحقيقة يتصل — جيلا بعد جيل — منذ الصحابة ، وهم الطرف الاعلى فى نقل الاحاديث ، فاذا عرفنـا مكانة الصحـابة وعلو قدرهم فى الدين ، عرفناه مضمون ما نقله علماء الحديث ، ودورهم ومكانتهم مما جعـل الامام الشافعى رحمـه الله يقول (اهل الحـديث فى كل زمان كالصحابة فى زمانهم(٦) .

فالصحابة قد ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم العلم والايمان.

---

(٤) قواعد التحديث ص٣٤١

(٥) القاسمى : قواعد التحديث ص٤٨ .

(٦) القاسمى — قواعد التحديث ص٤٩ .

فهم اهل حقائق الايمان ، وأهل الفهم لكتاب الله تعالى والعلم والفهم لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم(٧) .

ولكن بامتداد العصور والازمنة واختـــلاط المسلمين بغيرهم من الامم ، والنزاع الحادث بين المتكلمين وغيرهم ظهور الفرق واستحداث مناهج جديدة فى سماعه او كتابته او روايته بل شمل كل من كان حافظا له عارفا به ظاهرا وباطنا مع اتباعه وكذلك أهل القرآن(٨) .

وكشأن اى طائفة من الناس ظهرت قلة قليلة ضمن المنتسبين الى اهل الحديث ، غالوا فى اثبات صفات الله تعالى واخذوا يروون أحاديث موضوعة فى الصفات ، وقد تبرأ منهم اهل الحديث واعلنوا انهم أبرياء منهم(٩) .

وبسبب الخصومات الناجمة عن اختلاف المناهج وتحزب كل فريق لآراء اتباعه ، اطلق خصوم اهل الحديث عليهم اسماء أخرى تخالف الحقيقة وتدل على شدة الخصومة المبنية على الهوى . قال الامام الحافظ ابو حاتم الرازى (علامة اهل البدع الوقيعة فى أهل الاثر اى الحديث — وعلامة الجهميـــة أن يسموا اهل السنة مشبهة ، وعلامة القدرية ان يسموا أهل السنة مجبرة ، وعلامة الزنادقة ان يسموا أهل الاثر حشوية(٩)) .

موقف أهل الحديث والسنة من المعتزلة :

تعـــــريف :

تكاد تجمع المصادر التاريخيـــة وكتب الفرق على ان نشـــأة مذهب الاعتزال ترجع الى اختلاف واصـــل بن عطـــاء مع شيخه الحسن البصرى (١١٠هـ) فى الحكم على مرتكب الكبيرة ، واعتزاله مجلسه لهـــذا السبب ، وفيما عدا هذه الرواية الشهيرة فان الملطى توفى سنة (٣٧٧) — يعـــود بنشأة المعتزلة الى ايام تنازل الحسن بن على عن الخلافة لمعـــاوية بن أبى سفيان ، لانهم كانوا من اصحاب على فاعتزلوا الناس ولزموا البيت والمساجد قائلين (نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك « المعتزلة » . . .

(٧،٨،٩) المصدر — نقض المنطق ص٥٥ ، ٨١ ، ١١٩ .
(٩) القاسمى — قواعد التحديث ص٥٨ .

والارجح الرواية الاولى :

وعلى اية حال ، فقد انفصل الخوارج عن الجمـــاعة للاسباب التى ذكرناها ، آنفا ، وفعل المعتزلة بالمثل بطريقة اخرى ، واطلقوا على أنفسهم اسم المعتزلة مشتركين معا فى اعتقاد الاصـــول الخمسة التى وضعوها ، ففارقوا جماعة المسلمين وانفصلوا عنهم حريصين على التمييز والظهور بما أعلنوه من عقائد مخالفة ، ولهذا فقد قوبلوا بالاستنكار والمعارضة من جانب العلماء ، لانهم ابتدعوا آراء لم يعرفها الاوائل كالحكم على مرتكب الكبـــيرة بأنه فى (منزلة بين المنزلتين) ونفى القدر . فكان عبد الله بن المبارك حينذاك يحذر المسلمين منهم بقوله (أيها الطالب علما ايت حماد ابن زيد ، فخذ العلم بحلم ، ثم قيده بقيد ، وذر البدعة من آثار عمرو بن عبيد) ومنه نفهم الانشقاق الذى بدأ يظهر بين علماء الحديث والمتكلمين منذ بزوغ المســـائل الكلامية فى مهدها ،اذ كان عمرو بن عبيد قبـــل ذلك منخرطا فى سلك الجماعة الاسلامية، مرتبطا بالاصول الاسلامية ، منتميا الى حلقة الحسن البصرى امام البصرة الكبير ، ولكنه باعلانه لرأيه المخالف لراى الجماعة أعتبر مبتدعا ، فوصفه ابن حبان بأنه كان من أهل الورع والعبادة الى ان احدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن ، وجماعة معـــه فسموا معتزلة ، وكان يشتم الصحـــابة ويكذب فى الحديث وهما لا تعمدا ....

الاصول الخمسة عند المعتزلة :

والاصول الخمسة التى اتفقوا عليها هى : —

التوحيد ، العدل ، والوعد والوعيـــد ، المنزلة بين المنزلتين ، الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن انقص منها أو زاد عليهـــا أصـــلا واحدا لا يستحق لقب الاعتزال .

ولافكار المعتزلة مظهر براق كالذهب المزيف يجذب بظاهره العيون ، ولكن سرعان ما يظهر بريقه الزائف من يتعمق فى فهمه ، فاذا دققنـــا فى فهم أصولهم واحدا فواحدا ، تحليلا لها ومقارنة بما يقابلها من عقائد أهل السنة والجماعة ، ظهر لنا زيف بريقها .

ومرادهم **بالتوحيد** نفى صفات الله تعالى ، وقد أورد عقيـدتهم كاملة ابو الحسن الاشعرى فى كتابه (مقالات الاسـلامين) ، ومنها نستقى بعض ما ذهبوا اليه فى هذا الاصل ، اذ اجمعوا على ان الله واحد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولا يحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان ولا تجـوز عليه الممارسة ولا الحلـول فى الاماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له ، لم يزل ازلا ، او لا سابقا للمحدثات ، موجودا قبل المخلوقات ، ولم يزل عالما قادرا حيا ولايزال كذلك ، لا تراه العيـون ولا تدركه الابصار ...

ويمضى الاشعرى — وهو خبير بعقائدهم لانه كان معهم طوال اربعين عاما فينقل لنا كل ما قالوه فى (التوحيد) ، ويكفى من الاطلاع عليها معـرفة الالفاظ والمصطلحات الفلسفية ، فضلا عن استخدام اوصاف لائقة تجعلنـا ندرك خلو القلوب والنفوس من الهيبة التى استشعرها المسلمون الاوائل ، ونفهم ايضا التعليق المنسوب للجنيد القـائل (نفس العيب حيث يستحيل انعيب عيب) . وربما عنى بذلك مثـل اطلاقهم المترادفات الآتيـة (وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ، ولا لحم ولا دم .. الى قولهم (ولا بذى حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ... الخ ..(١٠) .

وغيرها من الالفاظ التى تتنافى مع ادب الحـديث عن رب العـالمين جل شأنه ومن هنا نفهم حكمة سكوت السلف الصالح عن مثل هذا الـكلام واكتفائهم بالقرآن العظيم ، وهو دليل على عمق الايمان والعناية الفائقـة بكتاب الله تعالى تلاوة وحفظا وعملا فأيقنوا انه يغنيهم عن كل ما سواه .

والمفهوم من (التوحيد) عند المعتزلة انهم يعنون به اثبات وحدة الذات الالهية فنفوا الصفات ظنا منهم أن اثباتها يؤدى الى الشرك وانكروا رؤية الله تعالى فى الآخرة وعن هذا الاصل ايضا تفـرع قولهم فى القـرآن بانه محدث ، مخلوق . وقد وقف لهم علماء السنة بالمرصاد ودحضوا عقيـدتهم

---

(١٠) الاشعرى : مقالات الاسلامين جا ص٢٣٥

بالحجج العقلية وشكلت مجادلة الامام احمــد معهم اهم سند لعقيــدة أهل السنة والجماعة .

(أ) وقد ظن المعتزلة انهم بنفى الصفات الالهيــة يؤكدون عقيــدة التوحيد ، ويتحاشون التشبيه والتجسيم والحشــو ، ووصفوا من خالفهم بهذه الصفات وهم أول من رموا مخالفيهم بهذه الصفات .

ويرى ابن تيمية عند نقده لهم أن الاســماء التى يتعلق بها المدح والذم من الدين لا تكون الا من الاسماء التى انزل الله بهــا سلطانه ودل عليهــا الكتاب والسنة والاجماع كالمؤمن والكافر والعالم والجاهل والمقتصد والملحد ، فاما هذه الالفاظ الثلاثة فليست فى كتاب الله ولا فى حديث عن رسول الله ولا ينطق بها احد من سلف الامة وائمتها نفيــا ولا اثبــاتا . ولذلك اصبح التوحيد عندهم مصطلحا يعنون به نفى جميع الصفات الالهية ، وكل من اثبت شيئامنهــا رموه بالتجســيم والتشبيه حتى أن من قال (ان اللــه يرى) أو (ان له علما) فهو عندهم مشبه مجسم . (وأما التوحيد الذى بعث الله به الرســل وانزل به الكتب فليس هو متضمنا شيئا من هذه الاصطلاحات بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها — هذا فى العمــل ، وفى القــول : هو الايمان بما وصف به نفسه ووصفه رسوله صلى الله عليه وسلم) ولابد من التوحيد بالقول والكلام — وهو أن يصفوا الله بما وصفته رسله وهذا وحده لا يكفى فى الســعادة، والنجاة فى الآخرة ، بل لابد من ان يعبد الله وحده ، ويتخذ الها دون سواه وهو معنى قول (لا اله الا الله) .

ان هذا الفصل بين العلم والعمل وترجيــح جانب على آخر ، واثارة الجدل قضــايا مستقرة ، كل هذه الاسباب قربتهم من الفلاسفة ، وحولت العقيدة النابضة بالحياة الى نظريات يدور حولها النقاش وتختلف عليهــا وجهات النظر بين أخذ ورد .

(ب) اضف الى ذلك ، فان أية مقارنة بين صفات الله تعالى وافعاله واسمائه الحسنى وبين ما ابتدعوه بحجة التوحيــد ، يرينا مدى الافتعــال الظاهر من مصطلحاتهم فهى أدنى الى الفاظ الفلاسفة اليونان منها الى آيات القــرآن .

والقرآن الكريم ملىء باثبات صفات الله تعالى وأسمائه ، فعن العلم نقرأ قوله تعالى : —

(ولله غيب السموات والارض اليه يرجع الامر كله فأعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون) ١٢٣ هود .

كذلك قوله عز وجل : —

(الرحمن على العرش استوى(٥) له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى ٦ وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى ٧ الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ٨ طه) (الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شىء عنـده بمقـدار ٨ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) ٩ الرعد .

وتفرده عز وجل بالالوهية : —

قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون ١٠٨ الانبياء (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما) ٩٨ طه .

قال فمن ربكما يا موسى ٤٩ قال ربنـا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وعن القدرة : —

(ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شىء قدير ٦ الحج) (يخلق ما يشاء ان الله على كل شىء قدير (من آية ٤٥ النور) .

وانظر الى الآيات من ٨٤ : ٨٩ سورة « المؤمنون » .

(الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا) ٢ الفرقان .

(ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) ٣٠ لقمان .

الصفـات الالهيـة : —

يتضح لقارىء القرآن الكريم ، والمطلع على السنة النبوية ، عنايتهما الفائقة باثبات الاسماء والصفات الالهية .

فما مغزى ذلك وما جدواه ؟

قلنا من قبل ، ان الانسان مفطور على معــرفة ربه عز وجل والاقرار بوجوده ، ونستطيع القول هنا ايضا (على سبيل اليقين ، لا على ســبيل الظن ، بأن صحائف الفكر البشرى لم تشهد انسانا بغير عقيدة فى اله) .

ولكن يأتى الاختلاف بين البشر فى التصور نفسه لا اختلاف فى أساس الاعتقاد بوجود الله . (١)

خذ مثلا فلسفة ارسطو/ المبدأ الاول بواجب الوجود ، ولكنهــا ذات مجردة من كل وصف ، ولا دخل له فى اى شأن من شئون الكون ، فســدت بذلك باب الدعاء والالتجـــاء بل قطعت كل خيط من الامل والرجاء لدى بنى آدم ، اذ لا جدوى من محاولة ايجاد اية علاقة بينهم وبين (المبدأ الاول) كما تصوره هذه الفلسفة .

وعلى العكس خلقت عقيدة العرب الجاهلية كل صفة من صفات الاله على اشخاص من خلقه ، كالقدرة على الاحياء ، والرزق ، والعلم الخ .... فقطعت بذلك ايضا الرجاء فى سؤال الاله الواحد والالتجـــاء اليــه ثم جاءت الآيات القرآنية والاحاديث النبوية . مذكرة الانسان بصفات الله اى بعلمه وقدرته وسائر صفاته ، واسمائه الحسنى .

فهو سبحانه الحى القيــوم ، يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف عنــه السوء وهو اقرب اليه من حبل الوريد ، وانه عز وجل معه يعلمه اينما كان .

حيث يطمئن قلبه ، ويقوله شديد الثقة بالعون الالهى ، اذ يؤمن أن ، لا ملجـــأ منه الا اليه ، فيصبر عنـــد البلاء ويشكر عند الرخاء : يستنصره فينصره ويسأله فيعطيه ، يستسقيه فيسقيه ، ويتقرب اليه فيقربه .

وهـــكذا تأتى الاسماء والصفات الالهيـــة منبهة بنى آدم الى حاجتهم الدائمـــة الى خالقهم ورازقهم لكى لا يتوهم الاستقلال والغنى بذواتهم عن مولاهم ، وتفتح امامهم باب الامل فى حياة افضـــل دائما ســـواء فى الدنيـــا او الآخرة .

(١) د. زكى نجيب محمود : الله وحياة الانسان فى فكره وسلوكه ص ١٨/ ١٩ مجلة الهلال جمادى الأولى ١٣٩٩هـ ابريل ١٩٧٩م

فبمعرفة العبد لربه ذاتا وصفات تجعله يدرك ان الله يراقبه فى حركاته وسكناته فى سره وعلنه ، فيخشاه ويتقيه ويلجأ اليه عابدا داعيا متضرعا .

وبوسعك الالمام بطرق من عقائد أهل الملل والنحل الاخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلا تعثر فى تصوراتها الالهية ، بمثل تصور المسلم لربه عز وجل مما أدى الى الاقتصار على الالوهية ، بالنسبة الى الانسان الغربى ، واجلال العلم والانسان مؤلهين ، محلها على الارض ، وليتدبر بعد ذلك ما أوقعته كوارث القرن العشرين المتلاحقة بتلك الالوهية الجديدة للعلم والانسان من دمار) .

والاسوأ من ذلك انتقال العدوى الينا معشر المسلمين بعد ضعف عقيدة التوحيد وهى الحصن الذى نلوذ به لرفع هذا البلوى ، ، بعد ان تسرب الينا انحراف الغيب فأصبح خضوعا لحواسنا يكاد يكون تاما مثلهم ، وكادت الغالبية منا تفقد القدرة على تخطى الظواهر ببصائرها وعقولها الى الله عز وجل خالق الكون ومدبره .

وعلى المستوى الحضارى ، قامت الحضارة الاسلامية على عقيدة التوحيد، فظلت متماسكة عندما وازن المسلمون بين أطرافها ، أى بين الايمان بالله غيبا ذاتا وصفات — وبين اعداد العدة بالاساليب العسكرية المعروفة آنذاك ، فاجتاح المسلمون الامبراطوريتين الفارسية والرومانية بفضل ايمانهم بالله تعالى على هذه الصورة ، اذ ايقنوا انه ناصرهم ، فلم ترهبهم قوى الاعداء الظاهرة الملموسة ولم يخيفهم الفارق المشاهد فى القوى والعتاد والعدد ، لانهم ايقنوا ان الله من وراء الغيب يؤيدهم ويشد أزرهم .

والمقصود بالاصل الثانى ، وهو العدل ، ارجاع كل عمل الى الانسان لتفسير ظهور الشر ونسبته الى الانسان فقط . واذا كان المسلمون كافة يؤمنون بعدل الله سبحانه وتعالى ، فان المعتزلة فرعوا الكلام عن هذا الاصل ، فأدى بهم الى ايجاب الصلاح والاصلح على الله تعالى ، وانبثقت فكرتهم عن الحسن والقبيح العقليين وانهما ذاتيان عقليان كما تفرعت أيضا مسألة خلق أفعال العباد قالوا : (يمتنع عليه ارادة الشر والمعاصى

والقبائح) وقالوا : (يريد مالا يقع ، ويقع ما لا يريد) فزعموا أنه تعـــالى أراد من الكافـــر الايمان وان لم يقـــع الا الكفر وان وقـــع ، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق ، حتى زعموا ان اكثر ما يقع من عباده على خلاف مراد الله ، تعالى عن ذلك.

وظاهر عقيدتهم ارادة تنزيه الله تعالى ، ولكننا سنعرف عندما نعرض لاراء علماء أهل السنة ، كم اخطأوا وشذوا ، لانهم لم يتنبهوا الى التميز بين الامر والرضا والمحبة اذ لا تكون الا فى الخـــير ، ولكن الارادة قـــد تكون فى غيره فهى تتعلق بكل ممكن كما يذكر ابن تيمية . قال الله تعالى (ولا يرضى لعبـــاده الكفر) ، (ان الله يأمر بالفحشاء) فان قيل ، قد قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) ، فالمقصود هنا ان الارادة التى تعنيهـــا هى الارادة الكونية المتصلة بالحكمة من خلق العالمين .

وأما الارادة الدينية المتصـــلة بالاوامر الشرعية فهى ترادف الرضـــا والمحبة . وربما يلخص لنا موقف المعتزلة عبارة القاضى عبد الجبار فى قوله (سبحان من تنزه عن الفحشاء) ، بينما يعبر عن اتجاه أهل السنة والجماعة رد أبى أسحق السفارينى (سبحان من لا يقع فى ملكه الا ما يشاء)(١١) .

الايمان بالقدر وعلاقته بالارادة الانسانية :

من أفضل ما نستهل به هذا الموضوع ، هو اجابة السؤال الذى وجه الى جعفر الصادق رضى الله عنه عندما سئل عن قول اللو تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون)المؤمنون لم خلق الله الخلق ؟

فأجاب : لان الله كان محسنا بما لم يزل فيما لم يزل ، فأراد اللـــه أن يفيض احسانه الى خلقه وكان غنيا عنهم ، لم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة ، ولكن خلقهم واحسن اليهم فأرسل اليهم الرسل ليفصلوا بين الحق والباطل فمن احسن كافأه الجنة ومن عصى كافأه النار) .

ويشرح ابن القيم انواع الابتلاءات التى يتعرض لها الانسان أثنـــاء حياته فى الدنيا ، محصيا الآيات القرانية الدالة عليها .

---

(١١) شرح عقيدة السفارينى ص ٢٣١ : ٢٣٢ .

ويذكر على أن الله سبحانه وتعالى ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم ، بالمصائب ، وأن ذلك كله ابتلاء فقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقال : (فأما الانسان اذا ما ابتــلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقــول ربى اكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى اهانن) (١٢) .

وقال : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا) .

وقال : (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم احسن عملا) .

فأخذ سبحانه انه خلق العالم العلوى والسفلى وقدر اجــل الخلق ، وخلق ما على الارض للابتلاء والاختيار ، وهذا الابتلاء انما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء . (١٣) .

كذلك وردت الاحاديث الكثيرة فى بيان ما يقابله المؤمن فى حيــاته من ابتلاءات طوال عمره ، منها :

ـــ عن صهيب الـــرومى رضى الله عنه قال : قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عجبا لامر المؤمن ، ان أمره له كله خير وليس ذلك لاحـــد الا للمؤمن ، ان اصابته سراء شكر فكان خـــيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له (رواه مسلم) .

صلى الله عليه وسلم

ـــ عن مصعب بن سعد عن ابيه قلت يارســـول الله اى اشد بلاء ؟
ـــ اى محنا وشدائد .

قال الانبياء ثم الامثل فالامثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فـــان كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وان كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حســـب

---

(١٢) فى تفسير ابن القيم الآية : قال الله تعالى : كـــلا اى ليس الامر كما يقول الانسان بل قد ابتلى بنعمتى وأنعم ببلائى .

(١٣) ابن القيم : عده الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ١٢٥ مطبعـــة الامام .

دينه ، فما يبرح البـلاء بالعبـد حتى يمشى على الارض وما عليه خطيئـة (رواه ابن ماجه وابن ابى الدنيا والترمذى وقال حديث حسن صحيح) .

والعبد المؤمن امام شكره على النعم وصبره على البلاء حتى يجتـاز طريق الدنيا ويعود الى الجنة — موطنه الاصلى كوعد اللـه تعـالى اياه (فانه ما حرمه — عز وجل الا ليعطيه ، ولا امرضه الا ليشفيه ، ولا أفقره الا ليغنيه ، ولا أماته الا ليحييه ، وما اخرج ابويه من الجنـة الا ليعيدهما اليها على اكمل وجه . كما قيل : يا آدم لا تجزع منها قولى لك واخرج منها ، فلك خلقتها وسأعيدك اليها) .

موقف الانســان :

الانسان اذن أمام هذه الحقيقـة لا يملك فرارا ، فهـو بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، والصبر مع هذين الطرفين لازم ولا يخلو من نوعين :

أحدهما — يوافق هواه ومراده كالصحة والسلامة والجاه والمال .

والآخر — المخالف للهوى وهو على شكلين :

ا — يرتبط باختياره كالطاعات والمعاصى ، وعليه يترتب الأجر .

ب — لا يرتبط باختياره كالمصائب ، وبهـا تُمحى السيئات وترفـع الدرجـات .

ولكن الثابت أن الانسان لا يملك منح نفسه القدرات والمزايا الجبليّـة كالذكاء والصحة والانوثة او الذكورة ، ولا يملك اختيار أبويه فيرث عنهمـا مواهب وسـمات معينـة دون الاخـرى ، ولا انتخـاب الزمان الصالح ليعيش فيه ، ولا البيئة الصالحة لينمى فيها طفولته . هذه كلهـا أمور لا يملكها الانسان وخارجة عن نطاق اختياره وليس مسئولا عنها .

ولكن المتعللين بالقدر على أفعالهم الانسانية يحتجون بآيات قرآنيـه يختارونها وفق أهوائهم ، كقول الله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) فاطر ٧ .

وهذا الاحتجـــاج سرعان ما يدحض أمام النظرة القرآنية لآيات اخرى تخير الانسان بين فعلين ، كقوله عز وجل (إنا هديناه السبيل اما شـــاكرا واما كفورا) .

وقوله سبحانه وتعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وهذا التفسير هو ادق التفاسير الذى يلجأ اليه العلماء لان القرآن ميسر لكل ذى بصر وبصيرة .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) القمر ١٧ .

وبهذا الفهم يصبح تفسير الآية الاولى واضحة لا لبس فيه اذ معناها أن اضلال الله لشخص انه آثر الغى على الرشاد فأقره اللــه على مراده وتمم له ما يبغى لنفسه قال تعـــالى (فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين) الصف ٥ .

اذن ، فمعنى قوله تعالى (يضل من يشاء لا يهد وقوله (وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهـــد الله من بعد ميثـــاقه) البقرة ٢٦ ، ٢٧ وكذلك الحال فى قوله تعالى (يهدى من يشاء) . وللنظر الى قيمـــة الارادة الانسانية فى قول الله تعالى وهو يتكلم عن ارادته (قل ان الله يضـــل من يشاء ويهدى اليه من اناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكـــر تطمئن القلوب) الرعد ٢٧ ، ٢٨ .

ثم يأتى دور مناقشة المحتجين بالاحاديث النبوية وربما يقـــع اكثرهم على الحديث الاتى — ويفسرونه خطأ بأنـــه يدل على الجبر ونفى حـــرية الارادة الانسانية .

والحديث : ما منكم من احد الا وقد كتب مقعده من النـــار ومقعده من الجنة ، فقالوا يارسول الله ، افلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قـــال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . اما من كان من اهل السعادة فيصير لعمـــل اهل السعادة واما من كان من اهل الشقاوة فيصير لعمل اهل الشـــقاوة ثم قرأ (فأما من اعطى واتقى وصـــدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغني وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) الليل ٤ .

أما سبق علم الله تعالى، فإنه ليس حجة أيضا للمتذرعين بالقدر على معاصيهم

قال تعالى وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (النبوة ٢ : ١٤٣) .

وقال : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (آل عمران ٣ : ١٤٢) .

وقوله : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم (ممن ٤٧ : ٣١) .

فروى عن ابن عباس فى قوله (الا لنعلم) أى (لنرى) وروى لتميز . وكذلك قال عامة المفسرين (الا لنرى وتميز) وكذلك قال جماعة من أهل العلم ، قالوا : لنعلمه موجودا واقعا بعد أن كان قد علم انه سيكون ولفظ بعضهم ، قال : العلم على منزلتين — علم بالشيء قبل وجوده ، وعلم به بعد وجوده . والحكم للعلم به بعد وجوده لانه يوجب **الثواب والعقاب** .

قال : فمعنى قوله (لنعلم) اى لنعلم العلم الذى يستحق به العامل . الثواب والعقاب ، ولا ريب انه كان عالما سبحانه بأنه سيكون ، لكن لم يكن المعلوم قد وجد (١٤) .

ويتصل الاصل الثالث **بالوعد والوعيد** مضمونة كما يعبر عنه الشهرستانى ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض ،واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود فى النار ، ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار (١٥) .

وانسياق المعتزلة فى هذا الاصل يتصل بدفاعهم عن الحرية الانسانية واحتكامهم الى العقل اذ اصبح الثواب والعقاب عندهم ينصب على افعال الانسان نفسها والتى يقتضيها العقل ومعنى هذا اعتقادهم ان المطيع ومعاقبة العاصى ان لم يتب — أمر محتوم (اى يجب) على الله تعالى أن

---

(١٤) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٤٤٦ ط لاهور ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .

(١٥) الملل والنحل جـ ١ ص ٥٩ .

وروى أبو بكر الضحاك بن مخلد الشيباني في كتابه [السنة] بسنده عن عمر رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه ، أم على أمر نستقبله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل على أمر قد فرغ منه ، فقال عمر : ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يُنال إلا بالعمل) فقال عمر : إذاً نجتهد [illegible] الألباني السلسلة ١٤٢٤ [illegible]

يفعله ، فخلطوا بين الوعد والوعيد ، بينما يعتقد اهل الحديث والسنة انه يجوز على الله تعالى اخلاف الوعيد لا اخلاف الوعد ، والفــرق بينهما أن الوعيد حقه فاخلافه عفـو وهبة ، واســقاط ذلك موجب كرمه وجــوده وأحسانه والوعد على نفسه بوعده ، والله لا يخلف الميعاد . ويعتقد اهل السنة والجماعة انه من موانع وقوع الوعيد التــوبة والتوحيد والحسنات العظيمة والمصائب المكفرة واقامة الحدود فى الدنيا واضعاف أضعافها .

ويأتى اصلهم فى (المنزلة بين المنــزلين) الذى فارقوا به الجمــاعة ليرتبوا عليه اعتقاد ان مرتكب الكبــيرة فاسق ، وهو فى منــزلة بين منزلتى الكفر والايمان ولكنهم لم يكفروه كما فعل الخوارج ، كما لم يستحلوا الدماء والاموال فى الدنيــا .

ولا ينفرد المعتزلة بالاصل الاخير — أى **الامر بالمعــروف والنهى عن المنكــر** لانه مبدأ اسلامى اعتنقته كل الفرق ، وهــو يقضى بأمر المســلمين وتكليفهم بالجهاد فى سبيل الله بأمر الآية (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون) آل عمــران ١٠٤ .

الى جانب اعتقادات اخرى اختلفوا فيها تزيد عن هذه الاصول مثــل قولهم بأن العلم بالله تعالى يحصل بالنظر والاستدلال اى ترتيب الاقيســة العقلية ، فخالفوا جماهير الفقهاء والصوفية واهل الحديث والعامة وغيرهم، لان سلف الامة وائمتها اتفقوا على ان معرفة الله تعالى والاقرار به لا يقف على الطرق التى يذكرها اهل طريقة النظر (لان اصــل المعرفة والاقــرار بالصانع يحصل بديهة وضرورة ولا يتوقف على النظر والاستدلال ، ويدلل ابن تيمية على ذلك بأن جميع الامم تقر بالصانع مع عظيم شركهم وكفــرهم (ولهذا يوجد له عند كل امة اسم يسمونه ، والتسمية مسبوقة بالتصور . فلا يسمى احد الا ما عرفه ، ثم المستمع لذلك الاســم يقبل بفطرته ثبــوت المسمى به من غير طلب حجة على وجوده ويكون قبولها لاسماء ســائرها ما ادركه بحسه وعقله مثل الشمس والقمر والواحد والاثنين بل هذا أكمــل واشــرف .

بالاضافة الى مآخذ اخـرى اخذهـا اهل السـنة والجمـاعة على المعتزلة ومنها : —

— ردهم للاحاديث التى لا توافق اغراضهم ومذاهبهم ويدعون أنها مخالفة للعقول فيجيبردها كالمنكرين لعذاب القبر والصراط والميزانورؤية الله عزوجل فىالآخرةوكذلك حديثالذباب ومقله وانهيقدم الذى فيهالداء.. وما أشبه ذلك من الاحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول .

— قدحهم فى الرواة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وفيمن اتفق الائمـة من المحدثين على عدالتهم وامامتهم . كل ذلك ليردوا بـه على من خالفهم فى المذاهب واحيانا كانوا يردون فتاوى الصحابة امام العامة لينفروا الامة عن اتباع السنة واهلها .

— ذهبت طائفـة الى نفى أخبار الآحـاد جملة والاقتصـار على ما تستحسنه عقولهم فى فهم القـرآن (١٦) .

والآن ، بعد أن نزعنا الوجه البراق للفكر الاعتزالى ، ووقفنـا على حقيقته ومراميه ، فان أقل ما يطعن فيه أنه حول الدين الذى جاء به رسـول الله صلى الله عليه وسلم الذى تستجيب له الفطرة الانسانية ، ويستسيغه العقل بكل سهولة — حوله الى (فلسفة نظرية دقيقة يعجـز عن فهمهـا واساغتها كثير من العقلاء والاذكياء فكان تنمية العقل على حساب العاطفة واضعافا للايمان واثارة للشكوك والشبهات وعدم الثقة على وجوده ، وما اكثر فى العالم ما يعجز العقل عن تعليله واقامة الدليل عليه .

---

(١٦) الاعتصام للشاطبى ج١ ص١٤٠ .
ويذكر الشاطبى انهم بنفيهمأخبار الآحادواستحسان عقولهم اباحوا الخمر بفهم المعوج لقوله تعالى (ليس على الذين آمنـوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ويقـول (ففى هؤلاء وأمثالهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا ألفين أحدكم متكئا على اريكته يأتيه الامر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقـول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه) وهذا وعيد شديد تضمنه النهى ، لاحق بمن ارتكب رد السنة .

دوافع علماء الحديث لمجابهة المتكلمين :

بالرغم من المناقشات الكلامية الدائرة بين اهل الكلام والتى خصصت كتب الفرق والمذاهب عرضها والتوسع فى شرحها ،بالرغم من ذلك كانت الغالبية العظمى من المسلمين يتبعون علماء السنة والحديث فى العقيدة المتلقاة بالقبول .

وهنا لنا ملاحظتان :

الاولى — ان الاكتفاء بالاطلاع على مؤلفات الفرق يعطى انطباعا بأن هذه المسائل كانت الشغل الشاغل للمسلمين كافة . وهذا لم يحدث الا بعد أن فرض المأمون القول بخلق القرآن — وفى هذه القضية وحدها — وفيما عدا هذا فقد كانت الامة الاسلامية تمضى قدما فى بناء حضارة زاهرة بعلومها وآدابها وفنونها ونظمها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع — وجهود علماء المسلمين فى فروع العلوم المختلفة اكثر من ان تذكر فى هذا الموضع .

الثانية — ان العلماء المهتمين بالحديث والسنة يمثلون الاغلبية وتظهر بجانبهم أصحاب الكلام كتلة قليلة لا تعبر الا عن نفسها وبضعة أفراد يتأثرون بهم ويقولون بأقوالهم وكانوا على سبيل التحديد كالجعد بن درهم وجهم بن صفوان . ويذكر لنا ابن قتيبة أن عقيدة السلف الصالح كان هى عقيدة العلماء المبرزين المتقدمين والعباد المجتهدين الذين لا يجارون ولا يبلغ شأوهم ، مثل سفيان الثورى ومالك بن أنس والاوزاعى وشعبة والليث بن سعد وعلماء الامصار كابراهيم بن ادهم والفضيل بن عياض وداود الطائى ومحمد النصر الحارث وأحمد بن حنبل وبشر الحافى وامثال هؤلاء ممن قرب من زمانه. ثم يستطرد قائلا (**فاما المستقدمون فاكثر من أن يبلغهم الاحصاء** وبحوزهم العدد)(١٧) .

كانت اذن الآراء الشاذة التى اظهرها امثال جهم بن صفوان كالبثور فى الجسم كبداية علامات المرض بعد أن كان صحيحا معافا به من المناعة

---

(١٧) ابن قتيبة — تأويل مختلف الحديث ص١٧

ما يقاوم به المرض . (فلم يظهر جهم واصحاب جهم فى زمن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار التابعين فيروى عنهم فيها اثر منصـــوص ، وسمى ، ولو كانوا بين اظهـــرهم مظهـــرين آراءهم لقتلوا ، كما هم عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه بقتل صبيغ اذ تكلف فى السؤال عن المتشـــابه ، او كما قتل على رضى الله عنه الزنادقة ، التى ظهـــرت فى عصره ، ولقتلوا كما قتل اهل الردة(١٨) .

ويرى الدارمى ان آراء جهم والمريسى بمثابة الردة ، لان القـــول بأن القرآن مخلوق يضاهى ما قاله الوليد بن المغيرة المخزومى (ان هذا الا قول البشر) والنضر بن الحارث قال (لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين) — اى كما قال جهم المريسى سواء ، لا فرق بينهما فى اللفظ والمعنى ، ان هذا الا مخلوق ، فأنكر عليهم قولهم) وكأن نور النبوة قد بدد ظلام العصر الجاهلى وعقائده الباطلة ولكن اقوال الجاهلية عادت للظهور مرة اخرى فى عصر جهم والجعد ثم المريسى ونظرائهم(١٩) .

وامام هذه الموجة التى بدات تهب على عقـــائد المسلمين ، راى علمـــاء الحديث ان واجباتهم تقتضى الوقوف فى وجهها وحمـــاية المسلمين منهـــا ، واندفعوا بنية اداء ما أوجبه الله عليهم . يقول ابن قتيبة (كما رأيت اعراض اهل النظر عن الكلام فى هذا الشأن منذ وقع ، وتركهم تلقيه بالدواء حين بدا . . الى ان استحكم اساسه . . لم ار لنفسى عذرا فى ترك ما اوجبه الله على بما وهب من فضل المعرفة فى امر استفحل بأن قصر مقصر ، فتكلفت بمبلغ علمى ومقدار طاقتى ما رجوت ان يقضى بعض الحق عنى ، لعل الله ينفع به ، فانه بما شاء نفع)(٢٠) ولكنه كان حريصا فى منهـــج رده على المخالفين توضيح **الاسرار اللغوية** التى جهلوها فحادت بهم عن التفسير الصحيح للكلمات — والآيات فأخذ يذكر ما تأولته الجهمية فى الكتاب والحـــديث ليعلم المسلمون ان الحق مستغن عن الحيل ، ولهذا لم يتعد فى أكثر الرد عليهم طريق .

---

(١٨) نقض الدارمى على المريسى ص٣٤٩ .
(١٩) نفس المصدر ص٤٦٥،٤٦٩ .
(٢٠) ابن قتيبة — الاختلاف فى اللفظ ص٢٢٥ .

وقال بعد توضيح منهجه هذا (فأما الكلام فليس من شأننا ولا أرى أكثر من هلك الا به)(٢٠) .

والى نفس السبب يرجع الدارمى اضطراره للخوض فى علم الكلام ، اذ انه يشخص أحوال المسلمين ويفسر تاريخهم طبقـــا للقاعدة الشرعيــة العقلية التى تقضى بأفضلية أهل العصور الاولى لأن الله تعالى أثنى عليهم وعلى من بعدهم باتباعهم اياهم فقال (والذين اتبعوهم باحسان) ، وكانت قوة المسلمين المادية والمعنوية كفيلة باختفائهم تخوفا من الافتضاح ، بلكانوا يتقلبـــون مع المسلمين فى النعم . ويمضى الدارمى فى وصف أحوالهم فيرى انهم لم يزالوا بعد ذلك مقموعين اذلة مدحورين حتى قلت الفقهـــاء وقبض العلماء (ودعا الى البدع دعاة اضلال ، فشد ذلك طمع كل متعوذ فى الاسلام من ابناء اليهود والنصارى وانباط العراقووجدوا فرصة للكلام ، فجددوا فى هدم الاسلام وتعطيل ذى الجلال والاكرام ، وانكار صفاته وتكذيب رســـله وابطال وحيه ، اذ وجدوا فرصتهم واحسوا من الرعاع جهلا ومن العلمـــاء قلة .. فحين رأينا ذلك منهم ، رأينا ان نبين من مذاهبهم رسوما من الكتاب والسنة وكلام العلماء ما يستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم فيحـــذرهم على انفسهم وعلى أولادهم وأهليهم ويجتهـــدوا فى الرد عليهم ، محتسبين منافحين عن دين الله تعالى طالبين به ما عند الله) (٢١) .

كما اضطر الامام احمد بن حنبل — امام هذه الاحوال الطـــارئة — أن يقف مدافعا عن العقيدة الصحيحة ، فقال (كنا نرى السكوت عن هذا قبل أن يخوض فيه هـــؤلاء ، فلما اظهـــروه لم نجـــد بدا من مخالفتهم والـــرد عليهم(٢٢) .

علم الكلام لدى علماء الحديث والسنة :

تقدم بيان تعـــريف علم الكلام لدى ابن خلدون الذى عبر به المدارس الكلامية التقليدية ، وبقى أن نستطلع رأى علماء الحديث فى هذا العلم وبيان موقفهم ودواعيه ومسائله والدوافع التى ادت بهم الى استخدامه .

---

(٢٠) ابن قتيبة الاختلاف فى اللفظ ص٢٢٥ .
(٢١) نقض الدارمى على المريسى ص٢٥٩ .
(٢٢) عقائد السلف ص٤٦٧ — ٤٦٨ .

أما عن تعريفه فلم يختلفوا كثيرا عن غيرهم ، فنرى السفاريتى يصفه بأنه (علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية ، ويسمى ايضا علم التوحيد والصفات وعلم اصول الدين)(٢٣) . ويعرفه بمترادفاته فانه علم الكلام والتوحيد وأصول الدين ، والعلم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية اى اعتبر فى ادلتها باليقين ، لأنه لا عبرة بالظن فى الاعتقادات بل فى العمليات أى أمور الفقه فيقول (واعلم انا لا نأخذ الاعتقادات الاسلامية من القواعد الكلامية ، بل انما نأخذها من النصوص القرآنية والاخبار النبوية) .

وفى بيان الغرض منه ، ينسبه الى أن القواعد الكلامية **ما رتبت وبوبت منها الاعتقادات الاسلامية ، بل لدفع شبه الخصوم ودحض نهج البدع ،** فانهم طعنوا فى بعض منها بأنه غير مقبول ، فيبين علماء السنة بأن زعمهم غير صحيح ، فان الانبياء تأتى بمحاورات العقول — اى ما يحير العقول ، لا بمحالاتها — أى بما تراه مستحيلا ، ثم بين لهم علماء السنة بالقواعد الكلامية ، **معقولية ما انكروا ، وذلك بالنظر والقياس** ، والنظر المقصود هنا المستند الى دليل من كتاب او سنة أو قياس جلى ، لا التخمين ، فهذا من الطف فهم النصوص وادقه لا الرأى المجرد بغير دليل . وسنجد هذا متحققا عند محاورة عبد العزيز المكى لبشر المريسى .

ويتضح من هذا أن ذم علماء الحديث والسنة اقتصر على علم الكلام المشحون بالفلسفة والتأويلات الشاذة وصرف الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة .

والمراد بالعقائد الدينية المنسوبة الى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واعتبر فى ادلتها اليقين .

كذلك يفصل فى التعريف بين علم الصحابة وعلم من جاء بعدهم ، فان علماء الصحابة يحتوى على كلام وأصول وعقائد — وان لم يكن يسمى فى ذلك الزمان بهذا الاسم — حيث كان متعلقا بجميع العقائد بقدر الطاعة البشرية ، مكتسبا من النظر فى الادلة اليقينية ، أو كان ملكة تتعلق بها بأن يكون عندهم من المآخذ والشرائط ما يكفيهم فى استحضار العقائد(٢٤) .

---

(٢٣) شرح عقيدة السفارينى ص١٦٠ — ٦١ جا
ط مجلة المنار الاسلامية بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .

(٢٤) شرح عقيدة السفارينى حا ص٦١ .

أن فيصل التفرقة اذن بين المنهجين : ان علماء الحديث والسنة تقيدوا بطريقة الاوائل فى النظر واسندوا ذلك من الكتاب والسنة والاجماع والنظر فى الادلة الشرعية ، وذلك بخلاف اهل الكلام الذين استخدموا اصطلاحات الفلسفة اليونانية .

وبهذه الصفة وبهذا التمييز وصف بأنه اشرف العلوم باعتباره علم أصول الدين اذ شرف العلم بشرف المعلوم ، وهو الفقه الاكبر بالنسبة الى فقه الفروع(٢٥) .

وغايته أن يصير الايمان والتصديق بالاحكام الشرعية متقنا محكما لا تزلزله شبه المبطلين ، فيتصدى المعاندين باقامة الحجج والبراهين وصحة النية والاعتقادات الاسلامية التى تقع بها العمل فى حيز القبول .

وثمرته الفوز بسعادة الدارين فمنفعته فى الدنيا انتظام امر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج اليها فى ابقاء النوع الانسانى على وجه لا يؤدى الى الفساد .

وفى الآخرة : النجاة من العذاب المترتب على الكفر وسوء الاعتقاد(٢٦) .

والمقصود بذلك أن موضوعاته تتصل بالايمان بالله سبحانه وتعالى ذاتا وصفاتا ، ويقتضى الايمان بصفات الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة والسمع والبصر وباقى الصفات والاسماء الحسنى التى اثبتها الله تعالى لنفسه ، تؤدى فى الدنيا الى المراقبة والتقوى ، واعتقاد المسلم بموضوعاته من الايمان بعالم الغيب ومعرفة تفاصيله من عذاب القبر وهول المطلع والحساب وصفات الجنة والنار والصراط وغير ذلك ، هذه المعرفة التفصيلية تعطيه ايمانا مفصلا يدفعه الى خشية الله تعالى ومراقبته وتقواه فى السر والعلن ، كما تجعله يتجه الى مرضاة الله طمعا فى جنته وخوفا من ناره . ومحصلة ذلك كله اقامة العدل بين الناس وتحقيق السعادة المتاحة على المستوى البشرى فى الدنيا ثم النعيم المقيم الخالد فى الجنة .

---

(٢٥) شرح الطحاوية ص١ .

(٢٦) شرح عقيدة السفارينى ج١ ص٦٢ .

ودخل علم الكلام عند علماء السنة دور التـــدوين والتبويب منذ الامام أحمد بن حنبل — رحمه الله تعالى — وصار امام أهل السنة ، وسبب ذلك أنه عندما ابتلى بالمحنة ، وراج فى عصره مذاهب الاعتزال ، اضطر الى اظهار عقيدة الاوائل والدفاع عنها وشرح ما التبس على افهام المعتزلة والكشف عن خطــأ منهجهم ، وهو ما اشار اليه فى مقــدمة كتــابه (الرد على الزنادقة والجهمية) ، فبعد أن حمد الله تعالى الذى جعل فى كل زمان فترة من الرســـل بقايا من أهل العلم الذين يبصرون الناس ويدعونهم الى الهدى ، اخذ فى شرح سمات المعتزلة فوصفهم بأنهم (مختلفين فى الكتـــاب ، مخالفون للكتـــاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله ، وفى الله ، وفى كتـــاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم)(٢٧) .

ويرى شارح عقيدة السفارينى أن الامام احمـــد لما انتصر للسنة ورد على المعتزلة صار هو علم السنة وامامها وصاحبها ومقدامها ، حتى أن أبا الحسن الاشعرى امام الاشعرية ، انتسب الى الامام أحمد ، ورأى أتبـــاعه على عقيدته وهو المنهج الاحمد(٢٨) .

---

(٢٧) مقدمة كتاب الرد على الزنادقة والجهمية .
(٢٨) شرح عقيدة السفاريتى ص٥٣ ـ

الفصـــل الثانى :

محاورات علماء اهل السنة مع المعتزلة

ـــ الامام احمد بن حنبل وابن أبى دؤاد .

ـــ عبد العزيز المكى وبشر المريس .

بالرغم من تبنى المأمون للمذهب الاعتزالى وفرضه على الناس بالقوة ووسائل الاغراء معا حتى كانت محنة الامام احمد فى قضية خلق القرآن وعانى فيها العلماء ما عانوه — بل عانى المسلمون أيضا حتى امتحن اسرى المسلمين بالقول بخلق القـــرآن والا اعيـــدوا الى أعدائهم !! — بالرغم من كل هذا فقد اخذ علماء الحديث والسنة على عاتقهم اظهـــار الحق ، فحفظت لنـــا المصادر اهم محاورات دارت فى هذا الصدد ، ونعنى بها محاورة الامام أحمد بن حنبل وابن داؤد ، ومحاورة عبد العزيز المكى مع بشر المريسى أحد كبـــار المعتزلة .

وسنعرض بايجاز لما دار فى هاتين المحاورتين لاستخلاص المنهج وبيان صدق النتائج التى توصل اليها كل من الامام احمد وعبد العزيز المكى :

١ — الامام احمد بن حنبل وابن أبى دؤاد ١٦٤ — ٢٤١ هـ :

لم تمض القرون المفضلة ، حتى خاض علماء الكلام فى مســائل الذات والصفات ، واثاروا مسائل توقيفية من الحقائق التى اكتفى بها الاوائل بمـــا امدهم به الوحى . وكان لظهور الحديث فى الذات والصفات الالهية بتـــأثير الفلسفة اليونانية آثارها الوخيمة على المجتمع الاســـلامى ، فبينما اتجـــه السابقون الى الجهاد ونشر الدعوة ، وصرف الهم الى تدوين العلـــوم التى يجدى بذل الجهود فيها ، تقلص الاهتمام بالجهاد لتتحول الهمم الى مسائل أفنى البعض فيها اعمارهم ولم يعودوا فيها بطائل ، اذ ليست عندهم وســـائل الوصول اليها ، ومؤهلات الحكم عليها(٢٩) .

من هنا جاءت المعارضة الشديدة للتيار المخالف لما كان عليه السلف ، بادئا بمعبـــد الجهنى (٨٠ هـ) الذى تكلم فى القـــدر ، ثم غيلان الدمشقى ، فشاع الكلام بعدهما بواسطة واصل بن عطاء (١٣١ هـ) وتوالى شـــيوخ الاعتزال فى الظهور الى ان تلقف هذا التيار أحد خلفاء المسلمين وهو المأمون (٢١٥) فاعتنـــق عقيـــدتهم ، واخذ على عاتقـــه نصرة مذهبهم بالارهاب

---

(٢٩) أبو الحسن الندوى — رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ص١١٥ .

والبطش ، فلم ينصت الى اصوات المعارضة التى ارتفعت من الغالبية العظمى للمسلمين . وما من باحث يتعرض لهذه الفترة من الفكر الاسلامى ، الا وتأخذه الدهشة من اساليب المعتزلة ضد خصومهم ، فقد استخدموا اسلوبا مضادا لمبادئهم المعلنة باسم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لينكلوا بكل مخالف ، فكم من الضحايا المعارضين لهم القى بهم فى السجون ؟ فانكمش أغلب المحدثين والفقهاء يلعقون جراحهم ، حتى أصبح الانتساب الى الاعتزال فاشيا منتشرا ، وكل من كان مستننا كان متخفيا مستترا(٣٠) .

وظهر فى هذه الفترة التى عم فيها الاضطهاد بأشد اساليب القمع ، الامام احمد بن حنبل ليعلن استنساكه بعقيدة الاوائل ، وكانت محنة (خلق القرآن) هى مركز الدائرة التى دارت حولها المناقشات الكلامية ، وظل الامر كذلك فى أيام المأمون والمعتصم والواثق ، وكأن التاريخ وقف عندهم حابسا أنفاسه ، ليدون تفاصيلها ، مثبتا أن الراى لا يمكن ان يدحض الا براى مضاد ، وان اساليب القوة لا تجدى فى مجال العقائد والافكار ، وظلت العقيدة الصحيحة حية تتوارثها الطائفة الظاهرة على الحق .

وقبل التعرض للمحنة ، فانه يجدر بنا تناول الحديث عن الامام احمد بايجاز .

حياته وعصره :

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الامام عبد الله ، ولد فى ربيع الاول سنة ١٦٤ هـ وتوفى ابوه محمد شابا ، فوليته امه ، وحفظ القرآن فى صباه وتعلم القراءة والكتابة ، وظهر فيه آثار النبوغ مبكرا . اتجه الى الحديث وبقى يتلقى الحديث ببغداد من سنة ١٧٩ هـ الى ١٨٦ هـ ، وكان فى طلبه للعلم مثال الجد والحرص والنشاط فقد روى عن نفسه (كنت ربما أردت البكور فى الحديث فتأخذ أمى بثيابى ، حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا) .

رحل الى عدة بلاد طالبا للحديث ، فسافر الى البصرة ، الحجاز ، اليمن

---

(٣٠) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ص٤١٠ .

، مكة ، والى الكوفة . واستمر على الجد والطلب حتى بلغ مبلغ الامامة فى الحديث ، ووصف بانه اعلم الناس بالسنة وكان معجبا ، استفاد منه فى الفقه والاستنباط ، وكان الشافعى معجبا به ايضا فوصفه بأنه لا احد ببغداد أفقه من ابن حنبل .

وعند الاربعين شرع فى التدريس والفتيا فأقبل الناس على مجالسه اقبالا عظيما ، ويذكر ابن الجوزى فى مناقبه أن عدد من كانوا يستمعون الى درسه نحو خمسة آلاف . ولكنه كان ينهى حال حياته عن كتابة كلامه ليجمع القلوب على المادة الاصلية العظمى ، ثم استدرك اصحابه ، فنقلوا لنا علمه فانتصرت طريقته(٣١) ، وهذا يدلنا على انه لم يقصد تأسيس مذهب والامر باتباعه .

وقد تعددت المصادر التى وصلتنا تحمل أدق تفاصيل حياة الامام ابن حنبل وآرائه ، ويبدو انه رأى ان يوضح وجهة نظره فى المسائل التى طغت على ثقافة العصر واتجاهاته المختلفة ، وأن يدعم المنهج النقلى مبرزا فى الوقت نفسه مضمونه العقلى فأخرج على هذا الاساس — ضمن مؤلفاته — روائعه الثلاثة : وكلها تحفظ لنا عقائد السلف وآراءهم وسط التيارات المختلفة السائدة فى العالم الاسلامى حينذاك ، فان (المسند) عنى بحفظ الحديث ، وكتابه (الرد على الجهمية والزنادقة) يتضح فيه حجاجه العقلى فى أجلى وأدق صورة ، لأنه يفسر القرآن بالقرآن ليوضح ما اشتبه على المخالفين من فهم ، ثم مؤلفه فى (الزهد) الذى يعد وثيقة عن طريقة الاقتداء عند بداية التصوف وانتشاره ، واذ كان معاصرا للحارث المحاسبى .

أما عن سيرته وأخلاقه ، فقد اشتهر بالزهد والعزوف عن زخارف الدنيا ، وكان يأكل من عمل يده رافضا عطايا الامراء . ويظهر من سيرته فى المحنة شجاعته فى الحق والتشبث به مهما كلفه من آلام ، فقد ظل يواجه حربا ضروسا ، فاستمسك بموقفه فى مواجهة الفقهاء والمتكلمين المعارضين الذين ساقتهم الدولة العباسية سوء العذاب حينئذ بالقوتين المعنوية والمادية معا (**ولقد ابتلت السنة الاسلامية فى شخصه ، فكان فى صبره — لو صبر — فوزها ونهوضها ، وفى ضعفه — لو فتن — سقوطها وخزلانها**)(٣٢) .

---

(٣١) ابن تيمية — مجموعة نصوص باسم مجموعة علمية ص١٥٢ .
(٣٢) باتون — احمد بن حنبل والمحنة ص٣٥ .

وبوسعنا أن ننظر الى النتائج المحتملة التى كانت ستترتب على انهياره وتسليمه بآراء خصومه ومن هنا اقترن اسمه باسم الصديق ، فقيل (أبو بكر يوم الردة وابن حنبل فى المحنة) .

ويرى المستشرق بانون فى دراسته عن المحنة أن الامام أحمد أبقى بموقفه على السنة ودعم أصولها ، ويذهب الى أبعد من ذلك فيذكر أن الاسلام ، اذا كان يبغى المحافظة على جوهره وطابعه ، ليظل اسلاما ، فما من سبيل يبلغ به هذه الغاية أفضل من سبيل المحافظة على السنة والاستمساك بعراها(٣٣) .

فالدال هو الله تعالى ، والدليل هو القرآن ، والمبين هو الرسول صلى الله عليه وسلم

ومما يوضح لنا منهجه ، ما نقل لنا من كلامه المأثور فى قوله (أصول الاسلام أربعة دال ودليل ومبين والمستدل ، هم أولو العلم وأولو الالباب الذين اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم(٣٤) .

وظل الامام أحمد معظما عند أهل السنة والجماعة .

يقول شارح عقيدة السفارينى فى نسبة المذهب السلفى الى الامام أحمد (وانما نسب لامامنا الامام أحمد لأنه انتهى اليه من السنة . قال بعض شيوخ المغاربة : المذهب لمالك والشافعى وغيرهما من الائمة والظهور للامام أحمد بن حنبل)(٣٦) .

منهجه مع المتكلمين :

ضمن الامام أحمد كتابه (الرد على الزنادقة والجهمية) آراءه فى الرد على المتكلمين فيرميهم بأنهم يقولون على الله، وفى الله، وفى كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم . ومضى فى كتابه سالكا طريق تفسير الكتاب بالكتاب فيما أثاروه من شبهات ، ففندها جميعا ، مبينا التفسير الصحيح .

وسنعتمد على هذا الكتاب فى ايراد المسائل التى خاض فيها المعتزلة

---

(٣٣) ولتربانون — ابن حنبل والمحنة ص٣٥ .
(٣٤) ابن تيمية — النبوات ص٤٢ .
(٣٦) شرح عقيدة السفارينى ص٦٤ ط المنار سنة ١٣٢٣ هـ .

بخاصة . من ذلك انكارهم رؤية الله تعالى فى الآخرة ، فبين ابن حنبـل ان تفسير الآية (وجوه يومئذ ناضرة) يعنى الحسن والبياض (الى ربها ناظرة) يعنى تعاين ربها فى الجنة . ومضى شارحا تفسـير الآية الاخرى (لا تدركه الابصار) بأنها تعنى فى الدنيا والآخرة ، وذلك ان اليهـود قالوا لموسى (ارنا اللـه جهـرة فأخذتهم الصاعقـة) وقد سألت مشركو قريش النبى صـلى الله عليه وسلم فقالوا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) ، فنزل قوله تعـالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) واوحى الله الى رسوله انه لا تدركه الابصار ، اى لا يراه احد فى الدنيا ، دون الآخرة .

ولا نعرض بين الآية الاولى التى تخبر برؤية المؤمنين لربهم عز وجل فى الجنـة ، والآية الثانيـة التى تعنى استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى فى الدنيـا(٣٥) .

ويفند الامام احمد دعوى الجهمية فى نفى الصفات عن اللـه تعالى ، ويوضح لنا جذور المسألة ، وعلة اتخاذهم لهذا الموقف ، فيذكر لنا ما بلغـه من أمر الجهم وينسب نفيـه للصفات الالهيـة ، فقـد كان الجهم من اهل خراسان ، صاحب خصومات وكلام ، فلقى اناسا من المشركين يقـال لهم السمنية (نسبة الى سومنات بلدة بالهنـد وهم البوذية) فعـرفوا الجهم ، فناقشوه ، مطالبين اياه بتقديم الحجة على صحة دينه . وسألوه :

— الست تزعم أن لك الهـا ؟ قال الجهم . نعـم ، فقـالوا له فهل رأيت الهك ، قائلا ، لا ، قالوا — فهل سمعت كلامه .

سألوه — هل راى ربه أوسمعه ، أو وجد له حسا ، ومضوا فى هذه الاسـئلة المشبهة لله عز وجل بصفات المخلوقين ، فتحير الجهم فلم يدر من يعبد اربعين يوما ، ثم استدرك حجة مثل حجة النصارى فى زعمهم أن الروح الذى فى عيسى هو روح الله ، فاستدرك حجة مثل هذه الحجة فقال للسمنى

— الست تزعم أن فيك روحا ؟ قال نعم فقال هل رأيت روحك ، . . واستمر فى توجيه نفس الاسئلة وكان جواب السمنى بالنفى ، فظن ان هذا

---

(٣٥) ابن حنبل — الرد على الزنادقة والجهمية ص٥٩ .

افحام ، اذ ختم اسئلته بقوله (فكذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة ، وهو غائب عن الابصار ، ولا يكون في مكان دون مكان .
ويرى الامام احمد ان الجهم يعتمد في حججه على ثلاث آيات من المتشابه . قوله (ليس كمثله شيء) (وهو الله في السموات والارض) و (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) ، فتأول القرآن على غير تأويله ، وكذب بأحادث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن من وصف اللـــه بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، كان كافراً ، وكان من المشبهة ، وتبعه قوم،منهم اصحاب عمروبن عبيد بالبصرة،سألهم الناس عن قول الله (ليس كمثله شيء) اجابوا (ليس كمثله شيء من الاشـــياء ، وهو تحت الارضين السبع ، كما هو على العرش ، ولا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مـــكان ، ولم يتكلم ولا يتكلم ، ولا ينظـــر اليـــه احد في الدنيـــا ، ولا في الآخرة ، ولا يوصف ، ولا يعرف . . ولا يدرك بعقل ، وهو وجه كله ، وهو علم كله ، وهو سمع كله ، وهو بصر كله ، وهو نور كله ، وهو قدرة كله . .

ويرى الامام احمد ان الزامات مذهبهم تؤدي الى أنهم لا يؤمنون بشيء — ويوجه اليهم بدوره الاسئلة لاستدراجهم للاقرار .

ويسألهم : —

— من تعبدون ؟ فاذا قالوا انهم يعبدون من يدبر أمر هذا الخلق ، قيل لهم (هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق هو مجهـــول لا يعرف بصفة . قالوا — نعم — فقلنا — قد عرف المسلمون انكم لا تؤمنون بشيء ، لأن هذا الذي يدبر هو الذي كلم موسى . قالوا لم يتكلم ولا يكلم ، لأن الكلام لا يكون الا بجارحة والجوارح عن الله منفية .

وهكذا يوهمون البعض بأنهم من أشد الناس تعظيما لله ، بينما يعود قولهم الى ضلالة وكفر(٣٧) .

ويمضي الامام في بيان تفصيل ما جحـــدته الجهمية ، شارحا معـــاني الآيات القرآنية التي يستندون اليها ، في الرؤية ، وصفة الاستواء ، وعلو الله تعالى على خلقه : —

---

(٣٧) ابن حنبل — الرد على الزنادقة ص٧ — ٦٩ .

قالوا فى تفسير الآية **(وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة)** ، انما تنظر الثواب من ربها وصحتها انها مع ما تنتظر الثواب ترى ربها ، وقد قال النبى صلى الله عليـــه وسلم (انكم ســـترون ربكم) ويؤيد ذلكتفســـير قوله تعـــالى (للذين احســـنوا الحسنى وزيادة) ان الزيادة هى النظـــر الى وجه الله تعالى . وعلى عكس ذلك فان الكفار سيحجبون عن الله فى قوله تعـــالى **(انهم عن ربهم يومئـــذ لمحجوبـون)** . فاذا كان الكـــافر يحجب عن الله ، **والمؤمن يحجب عن الله ، فما فضـــل المؤمن على الكافر ؟**

ويستند ابن حنبل الى الآيات القرآنية المثبتة بأن الله تعالى على العرش كقوله **(الرحمن على العرش استوى)** و (خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) بينهما يزعم الجهمية أنه سبحانه على العرش وفى السموات وفى الارض وفى كل مكان ولا يخلو منه مكان استنادا الى الآية (وهو الله فى السموات وفى الارض) . فيتساءل (قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظم الرب شىء) ويضرب الامثلة على ذلك . أجســـام البشر واجوافهم واجواف الخنازير والاماكن القذرة ، بينما اخبرنا الله انه فى السماء فقال (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض) ، (أم أمنتم من الســـماء أن يرسل عليكم حاصبا) وقال (اليه يصعد الكلم الطيب) ، وقال (انى متوفيك ورافعك الى) وقال (بل رفعه الله اليه) وغيرها من الآيات ، بينما وجدنا كل شىء أسفل منه مذموما ، كقوله جل ثناؤه (أن المنـــافقين فى الدرك الاسفل من النار) ، (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين اضلانا من الجنس والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الاســـفلين) .

أما معنى الآية **(وهو الله فى الســـموات وفى الارض)** التى اخطـــأ فى تفسيرها الجهمية ، فهى تعنى انه اله من فى السموات واله من فى الارض . وهو على العرش احاط علمه بما دون العرش ، ولا يخلو من علم الله مكان ولا يكون علم الله فى مكان دون مكان ، فذلك قوله (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد احاط بكل شىء علما) .

وواضح من منهج الامام أحمد أنه يقرن الدليل الشرعى بالنظر العقلى ، فيقدم الآية القرآنية ، مقترنة بالتفسير الصحيح للناظر الى القـــرآن بتدبر فى شموله (ففى هذا دلالة **وبيان لمن عقـــل عن الله . فرحم الله من فكر** ، ورجع عن القول الذى يخالف الكتاب والسنة)(٣٨) .

---

(٣٨) الرد على الزنادقة ص٧٧ .

ويلجأ الى الحجة العقلية لاثبات الصفات الالهيــة مع توحيد اللــه عزو جل ، فاذا قلنا أن الله لم يزل بصفاته كلهــا ، اليس انما نصف الهــا واحدا بجميع صفاته ؟ **ومثال ذلك النخلة** ، لهــا جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجحار واسمها اسم شيء واحد وسميت نخلة بجميــع صفاتها . فذلك الله وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد(٣٩) .

وما أوقع الجهمية فى الخطأ ، تفسيرهم لآيات **المعية الالهية** ، فرأوا أن الله سبحانه وتعالى بذاته معهم فى كل مكان ، مؤيدين ذلك بمثل قوله تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا وهو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة أن الله بكل شيء عليم) .

ولكن ابن حنبل يسلك معهم طريقين لاثبات خطأ تفسيرهم — الاول ، لفت نظرهم الى أن الآيات السالفة الذكر بدأت بعلم الله وختم بعلمه ، فالمعية اذن مع العباد ليست **بالذات ولكن بالعلم** ، فالله تعالى مع عباده بعلمه اينما كانوا . هذا هو التفسير الصحيح .

ويسلك الطريق الثانى بالحجاج العقلى ، فيفحم الخصم بوضع الاسئلة المتعددة التى تضطره الى اختيار احدى الاجابات ، فيلزمه بالخطأ او يفحمه فيغير رأيه .

ونترك الامام يتكلم هنا **بأسلوبه الجدلى** فى نقاشه مع احد الجهمية :

— اذا أردت أن تعلم أن الجهمى كاذب على الله حين زعم أن الله فى كل مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان فقل : اليس الله كان ولا شيء فيقول : نعم . فقل له : حين خلق الشيء خلقه فى نفسه أو خارجا من نفسه فانه يصير الى ثلاثة اقوال لابد له من واحد منها ، ان زعم أن الله خلق الخلق فى نفسه كفر ، حين زعم أن الجن والانس والشياطين فى نفسه .

وان قال : خلقهم خارجا عن نفسه ثم دخل فيهم ، كان هذا كفرا ايضــا حين زعم أنه دخل فى مكان وحش قذر ردىء .

---

(٣٩) نفس المصدر ص٩١ .

وان قال خلقهم خارجا عن نفســـه ثم لم يدخل فيهم رجـــع عن قوله أجمع . وهو قول اهل السنة .

ومثل هذا النص يعطينا صورة عن طريقة الجدل عند الامام ، بل أن اكثر اجزاء كتابه تمضى على هذا النحو القائم على نظر عقلى محض . ويجعلنا ندرك انه تصدى للمعتزلة بالمنهج العقلى قبل ظهور المذهب الاشعرى بزمن طويل .

وها نحن **أمام نموذج ثانى من نمـــاذج الاستدلالات** العقلية المؤدية الى افحام الخصم واقراره بخطئه ، واضطـــراره الى التنـــازل عن رأيه . ففى نقاشه لاثبات **علم الله تعالى** ، يقول — اذا أردت ان تعلم ان الجهمى لا يقر بعلم الله فقل له : الله يقول (ولا يحيطون بشىء من علمه) . ويسرد آيات اخرى تصف الله عز وجل بالعلم . فان قال الجهمى : ليس له علم ، كفر . وان قال لله علم محدث ، كفر ، حين زعم أن الله قد كان فى وقت من الاوقات لا يعلم حتى أحدث له علما فعلم . فان قال : لله علم وليس مخلوقا ولا محدثا، رجع عن قوله كله ، وقال بقول أهل السنة .

المحنـــــة :

نفى المعتزلة الصفات الالهية كما بينا فى أصل من اصولهم وهو التوحيد ، ولكنهم خرجوا على هذا الاصل عندما تطرقوا الى صفة الكلام الالهى ، فلم يقولوا بأنه متكلم وكلامه ذاته خشية أن يتساوى كلام الله عز وجل مع ذاته فيكون هناك قديمان مما يؤدى الى الشرك ، ولهذا فانهم يرون أن كلام الله — اى ان القـــرآن — مخلوق محـــدث وغير قديم ، فيحدثه وقت الحاجة الى الكلام ، مفسرين تكليم الله موسى بأن الله خلق الكلام فى شـــجرة فسمعه موسى عليه السلام(٤٠) .

واصدر المأمون سنة ٢١٨ رسالة الى والى بغداد يأمره فيها بجمـــع

---

(٣٩) د . أبو ريان — تاريخ الفـــكر الفلسفى فى الاسلام ص١٩٤ — ١٩٥ .

القضاة وامتحانهم فى عقيدة خلق القرآن وعزل من لا يقول بذلك منهم واسقاط شهادة من لا يراها من الشهود ، وامره بأن يجمع الفقهاء وشيوخ الحديث فى داره ويمتحنهم بهذه العقيدة فأجابوا ، ثم ضيق الامر وأمر بالتوسع فى امتحان الناس ، فأحضر كبار العلماء ورؤس الناس وامتحنهم ، وانتهى الامر بعـــد مكاتبات وأوامر مشددة من المأمون للوالى الى الاقرار من الجميع بأن القرآن مخلوق الا اربعة — احمد بن حنبل ، وســـجادة ، والقـــواريرى ، ومحمد بن نوح .

وتنقل لنا معظم المصادر التاريخية النقـــاش الدائر بين الامام احمـــد بن حنبـــل ممتحنيه ، وكان يرفض القول بالايجاب او السلب عنـــدما يســـأل (هل القرآن مخلوق ؟) ، فمن اجاباته (ليست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هنا الا ما كان فى كتاب او حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه ، فأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محدود) .

كان المحرك للمناقشات القاضى ابن ابى دؤاد* المعتزلى الذى يتعجب من اجابة الامام لانه لا يستند الا لكتاب الله أو سنة رسول الله صلوات الله عليـــه !!

***احمـــد بن ابى دؤاد :**

أحمد بن أبى دؤاد (على وزن فؤاد) بن على أبو سليمان ، يكثر ذكره اذا ما تطرق الحديث الى محنة القرآن . كان قاضيا ، ثم اصبح وزيرا نافذ الكلمة عند الخلفاء الثلاثة : المأمون (٢١٨ هـ) والمعتصم (٢٢٧ هـ) والواثق (٢٣٢ هـ) ، لاسيما الثانى منهم حتى قيل انه ما رؤى احد قط أطوع لآحد من المعتصم لابن دؤاد . وتشير المصـــادر الى اهتزاز هذه المكانة لدى الواثق ، ثم انهارت تماما أمام المتوكل ، اذ رفع المحنة بخلق القرآن واظهر السنة وأمر بنشر الآثار النبوية وأكرم الامام احمد بن حنبل وقدمه . ويقال ان الواثق قبله قد ترك الاشتغال بالمحنة بعد ان أفحم احد الشيوخ القـــاضى ابن ابى دؤاد فى جدال دار أمام الواثق — كما سيأتى .

وابن أبى دؤاد احد القضاة المشهورين من المعتزلة ، نشأ بدمشق ومنها رحل الى بغداد ، وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء . كان بليغا ، جوادا ، عارفا بالاخبار والانساب ، ولكنه أثار أهل السنة عليه بموقفه فى المحنـــة . يقول الخطيب البغدادى (لولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت

ثم يدور الحوار بأسلوب جدلى اذ يتعرض القاضى لبعض الآيات القرآنية لاستخراج معنى الخلق — كقوله تعالى (**ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون**) ، ومن صيغة السؤال الموجه للامام احمد ، حاول ابن ابى دؤاد الوصول الى اجابة ملزمة ، فسأل (**أفيكون محدث الا مخلوق**) ؟ فأجاب ابن حنبل (قال الله تعالى « ص ، والقرآن ذى الذكر » **فالذكر هو القرآن** ، ويحتمل أن يكون ذكرا آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم او وعظه اياهم .

عليه الالسن) ، وذلك لأنه اتسم بكريم الخصال ، فقد كان موصوفا بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الادب .

أصيب بالفالج قبل موته بأربع سنين ، ونكب وأهين ، وظلت عداوه أهل السنة ثابتة فى صفحات الكتب عند الحديث عنه . وظهرت عداوة الغالبية له فى مرضه الذى مات فيه ، وكأنما كان مناسبة لاظهار الحنق عليه والازدراء به . وربما كان ذلك دليلا على ما اثاره من السخط فى النفوس : فقد دخل عليه بعضهم فقال له مخاطبا (والله ما جئت عائدا وانما جئتك لاعزيك فى نفسك وأحمد الله الذى سجنك فى جسدك الذى هو أشد عليك عقوبة من كل سجن) .

ولد حوالى ١٦٠ هـ ومات سنة ٢٤٠ هـ .

وقد عنيت معظم كتب تاريخ المسلمين — كالطبرى والبغدادى وابن الاثير وابن خلكان اليعقوبى — وكتب التراجم ايضا بمحنة خلق القرآن وسجلت تفاصيلها من حيث آراء المتنازعين فيها بدقائقها وأسماء الشيوخ الذين اجابوا بخلق القرآن ، والذين رفضوا الاذعان بالرغم من صنوف التعذيب والتنكيل — وفى مقدمتهم الامام أحمد بن حنبل — ومن ثنايا المحاكمات التى اجريت للامام احمد — وكان على رأسها ابن أبى دؤاد — والمناقشات التى جرت بين المتناظرين ، يمكن أن نستخلص آراء ابن أبى دؤاد من حيث منهجه الكلامى ، ونفس الصفات الالهية ، ونفس الرؤية ، وهى الموضوعات الرئيسية التى اثارت الجدل حينذاك . وقد احتضن القاضى ابن أبى دؤاد عقيدة المعتزلة فى هذه المسائل ، وكان المحرك الحقيقى للمناظرات الدائرة حولها ، والتى اتخذت من محنة خلق القرآن المحور الاساسى لها .

والمحنة لغويا ما يمتحن به الانسان من بلية وشدائد ، واصطلاحا ترتبط بما اتفق عليه المؤرخون من اتخاذ موضوع خلق القرآن موضوعا لها ، وكان أول من عقدها الخليفة المأمون وتابعه المعتصم والواثق . وفكرة خلق القرآن تنتمى الى قضية نفى الصفات عموما ، والتى تستند الى مبدأ التوحيد المعتزلى

فسأل القاضى : — اليس الله قال : (الله خالق كل شىء) ؟
فأجاب ابن حنبل : — قد قال (تدمر كل شىء) فدمرت الا ما أراد الله .

ومن ثم القول بأن القرآن مخلوق . يقول القاضى عبد الجبار (وليس هذا يعنى أن الله احدث الكلام فى ذاته ولكنه أحدثه فى محل) وقد اشترط المعتزلة أن يكون (المحل) جمادا حتى لا يكون هو المتكلم دون الله ، لاعتقادهم بأن حقيقة المتكلم من احدث الكلام وخلقه لا من قام الكلام به .

ويذهب المعتزلة الى أن كلام الله عز وجل من جنس الكلام المعقول فى الشاهد وهو حروف منظومة وصوات متقطعة . وهو عرض يخلقه الله سبحانه وتعالى فى الاجسام على وجه يسمع ويفهم معناه . فالقرآن اذا مخلوق محدث مفعول ، لم يكن ثم كان ، وانه غير الله عز وجل ، وانه أحدث بحسب مصالح العباد .

وتنسب المشكلة الى اول من أثارها وهو الجعد بن درهم (٣٢٤ هـ) وتذكر مصادر اهل السنة أن مصدر المشكلة يهودى ، فيروى ابن عساكر أن الجعد اخذ مصادر بدعته من بيان بن سمعان ، واخذها بيان عن طالوت ابن اخت لبيد بن اعصم واخذها لبيد ابن اعصم الساحر الذى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يهودى باليمن . وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان ثم اخذ بشر المريسى عن الجهم ، وأخذ بن ابى دؤاد عن بشر .

وعن امتحان العلماء والفقهاء فى هذه المحنة اجابوا جميعا بأن القرآن مخلوق ما عدا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبد الله بن عمر القواريرى والحسن بن حماد . ثم اجاب عبيد الله بن عمر والحسن بن حماد ، وبقى الامام احمد بن حنبل ومحمد بن نوح فى السجن لرفضهما الاجابة .

اهم المصادر عنه :

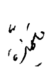
— القاضى ابو الحسن عبد الجبار (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) الجزء السابع : خلق القرآن — وزارة الثقافة والارشاد ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م
— الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد — الجزء السابع ط الخانجى ١٣٤٩هـ — ١٩٣١ م .
— الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ط دار الكتب ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م .
— الذهبى : كتاب دول الاسلام ط حيدر آباد ١٣٤٦ هـ .
— ابن خلكان : وفيات الاعيان الجزء الاول ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م .
— ابن كثير : البداية والنهاية الجزء العاشر — مطبعة السعادة بمصر .
— ابن الجوزى : مناقب الامام احمد بن حنبل ط الخانجى ١٣٤٩ هـ .

وعندما سئل مرة أخرى (أتقول أن القرآن مخلوق) ؟ قال ابن حنبل (القرآن كلام الله لا أزيد على هذا) ، فعاد فسأله **(ما تقول فى كلام الله)** ؟ فأعاد اليه الامام احمد السؤال بصيغة أخرى **(ما تقول فى علم الله)** ؟

وكانت هذه الحجة مفحمة لابن أبى دؤاد ، لأن الاقرار بأن القرآن علم الله يعادل فى نظره ان القرآن جزء لا ينفصل عن علم الله تعالى ، فاذا قالوا بأن هذا العلم غيرمخلوق ، فالقرآن تبعا لذلك ينبغى أن يكون غير مخلوق .

ودفع عبد الرحمن بن أسحق القاضى المناقشة الى نقطة أبعد من ذلك وهى **(أكان الله ولا قرآن ؟) فرد الامام بحجة مماثلة (أكان الله ولا علم ؟)**.

ويعبر لنا ابن اسحاق عن راى المعتزلة بسؤاله ابن حنبل (ما تقول فى هذه **الرقعة)** ؟ فقال **(ليس كمثله شىء وهو السميع البصير)** وقد لاحت عندئذ الفرصة لانتقال الامتحان الى مسألة جديدة وهى المتصلة بصفات الله سبحانه — وعلى راى المعتزلة غير منفصلة عن الذات الالهية — أى أنهم يقولون بأن الله تعالى حى بذاته ، قادر بذاته ، وهكذا فى سائر الصفات ، أى انها ليست زائدة على الذات . وهنا سأل اسحق الامام أحمد (ما أردت بقولك سميع بصير) ؟ وربما أراد ان يستخرج منه اجابة يلزمه بها بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن ابن حنبل أجاب بقوله (أردت منها ما أراده الله منها ، وهو كما وصف نفسه ، ولا أزيد على ذلك) .



ويبدو أن هذه المناقشات قد تسربت الى الجماهير الغفيرة من المسلمين ، فضلا عن علمائهم ، فقد كانت القلوب تحيط بالامام ، مشفقة عليه تخشى عليه من الوان الاذى التى أصيب بها . ولم يستطع السلطان الكبير للمأموم وأتباعه أن ينالوا من مكانة الشيخ فى قلوب المسلمين الذين اتخذوه اماما لهم . ونعثر فى هذا الصدد على عبارة قالها أحد أولئك الذين حاولوا شد أزره فى المحنة ، قال له (وانك رأس الناس اليوم ، فاياك أن تجيبهم الى يدعونك)(٤١) .

وقد ترددت حجج الامام أحمد على الالسنة ، وأخذت مكانها فى الرد على أهل الاعتزال .

---

(٤١) ابن كثير — البداية — جـ١٠ ص٣٣٢ .

وتنقل لنا كتب التاريخ المناظرة بين الاذرى شيخ ابى داود والنسائى ، وبين ابن ابى دؤاد محامى المعتزلة ، أمام الخليفة الواثق .

وقد تمت المناظرة على النحو التالى :

وجه الامام عبد الله الاذرى الاسئلة الثلاثة الآتية الى ابن ابى دؤاد :

الاول : هل ستر الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا مما أمره الله عز وجل فى أمر دينهم ؟

الثانى : حين أنزل ا لقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) .

هل كان الله تعالى الصادق فى اكمال دينه او أنت الصادق فى نقصانه حتى يقال فيه بمقالتك هذه ؟

وقد قوبل السؤالين بالصمت بلا اجابة .

الثالث : اخبرنى عن مقالتى هذه ، علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ام جهلها ؟ فأجاب ابن ابى دؤاد:علمها قال الامام احمد:فدعا الناس ؟ فسكت ، وهنا علق الاذرى قائلا (فكيف وسعه صلى الله عليه وسلم ان ترك الناس ولم يدعهم اليه وانتم لا يسعكم ؟) .

فبهت الحاضرون وأمر الواثق بخلاص الامام الاذرى وقد علق الذهبى على هذا الافحام بقوله : انه الزام صحيح وبحث لازم للمعتزلة(٤٢) .

ومن هذا يتضح كيف اعتبر المعتزلة الاعتقاد بخلق القرآن المحور الاساسى فى العقيدة حتى امتحنوا بها الاسرى المسلمين ، فكأنهم اضافوا للاسلام أصلا جديدا بعد كماله . ومن هنا أثار الشيخ الاذرى الآية القرآنية الآنفة .

---

(٤٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى .
(واسم الامام كاملا أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الاذرى شيخ أبى داود والنسائى) .

والسؤلان الثانى والثالث يوضحان هذا الغرض .

وتنتهى المحنة ، وتسدل الستار عن مأساة كادت تطيح بالمنهج الاسلامى المتوارث عن السلف ، وخلفت لنا مغزى بالغ الاهمية ، يتمثل فى النزاع بين طرفين : احدهما المأمون الذى جعل من الاعتزال مذهبا رسميا ، يحميه ويدعو اليه بالقوة ، فيدين به اصحاب المناصب والجاه والنفوذ ، وجعل من عقيدة الاعتزال التفسير الوحيد للاسلام ، فكانت محنة عظيمة على الامة ، وفكرة فلسفية ضاق عنها تفكير العامة وضاقت بها نفوس(٤٣) .

وتظهر مأثرة الامام احمد الكبرى التى اكسبته مكانة التجديد ، فى وقوفه سدا منيعا فى اتجاه الامة الى التفكير الفلسفى الذى لو سيطر على هذه الامة لانقطعت صلتها بالتدريج عن منابع الدين الاولى وعن النبوة المحمدية وخضعت للفلسفات واصبحت عرضة للآراء والقياسات ، فحفظ الدين من أن يعبث به العابثون او تتحكم فيه السلطة والاهواء(٤٤) .

واذا توقفنا برهة لنتساءل عن سر هذا الاهتمام الكبير بالمحنة من وجهة نظر السلف ، ولم كتبوا عشرات الكتب فى الدفاع عن القرآن واثبات انه كلام الله تعالى ، فلن نفتقد الاجابة بين طيات الصفحات . انهم خشوا من الآثار المرتبة على اعتقاد أن القرآن مخلوق ، فضلا عن ضياع الهيبة من القلوب ، وافتقاد الخشية والخوف من كلام الله ، فان القائل (ان هذا القرآن مخلوق) او (ان القرآن المنزل مخلوق) كان بمنزلة المعتقد أن هذا الكلام ليس هو كلام الله(٤٥) .

---

(٤٣) ابو الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة ص١٢٣ .

(٤٤) نفس المصدر ص١٤٤ .

(٤٥) ابن تيمية موافقة جا ص٥٧؛ تحقيق الفقى .

٢ — عبد العزيز المكى ، وبشر المريسى

المنهـــج :

حرص عبد المكى على بيان المنهج أولا ، فقال (ولكنا نؤصل بيننا أصلا فاذا اختلفنا فى شىء من الفروع رددناه الى الاصل ، فان وجدناه فيه والا رمينا به ولم نلتفت اليه . ثم وجه الحديث الى المأمون عندما سأله عن الاصل بينه وبين بشر المريسى (٢١٨ هـ) قال (يا أمير المؤمنين بينى وبينه ما أمرنا الله عز وجل واختاره لنا وعلمناه وادبنا به فى التنازع والاختلاف ، ولم يكلنا الى غيره ، ولا الى أنفسنا واختيارنا فنعجز) .

فطالبه المأمون بأصل ذلك فى كتاب الله فتلى المكى قول الله تعـــالى (يا أيها الذين آمنـــوا اطيعـــوا الله واطيعـــوا الرســـول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فهذا تعلم من الله وتأديبه واختياره لعبـــاده المؤمنين ما أصله المتنازعون بينهم ، وقد تنازعت أنا وبشر يا أمير المؤمنـــين وبيننا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كمـــا أمر الله عز وجل . فاذااختلفنا فى شىء من الفروع رددناه الى كتاب الله ، فان وجدناه فيه والا الى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان وجدناه فيها والا ضربناه فى الحائط ولم نلتفت اليه) .

وقد اقر المأمون هذا المنهج ، فقال (فأفعلا وأصلا بينكما هذا واتفقـــا عليه ، وأنا الشاهد عليكما ، والحافظ لما يجرى بينكما)(٤٦) .

وسنعرض فى الصفحات التالية لأبرز المسائل التى دار حولها الحوار وهى عن صفات الله تعالى وقضية القرآن الكريم .

صفات الله عز وجل :

حاول بشر المريسى أولا جعل عبد العزيز المكى يقر بأن القـــرآن شىء ،

---

(٤٦) الحيدة ص١٢ .

فان كان المراد بأنه شيء اثباتا للوجود ونفيا للعــدم ، فانه شيء ، وان كان المراد أن الشيء اسم له وانه كالاشياء فليس كذلك .

وقد أقام عبد العزيز الدليل على ذلك بقول الله تعالى (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتــاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) . فذم الله من نفى أن يكون كلامه الذى أنزله على رسوله شيئا ، ولكنه فى آية أخرى أخبرنا تعالى بأنه لا كالاشياء حتى لا يدخله الملحدون فى جملة الاشياء ، فأظهره باسم الكتاب والنور والهدى فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) .

وازاء اصرار قول بشر بأن القرآن شيء كالاشياء ليدعم عقيدته فى خلق القرآن ، وطالب باتيان الدليل بنص التنزيل ، فاحتج عبد العزيز بآيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى (انما قولنا لشيء اذا أردنا أن نقول له كن فيكون) وقوله عز وجل (اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون) فدل سبحانه وتعالى بهذا الاخبار واشباه لها فى القرآن كثير على أن كلامه ليس كالاشياء وانه غير الاشياء وانه خارج عن الاشياء وأنه يكون الاشــياء ، ثم أنزل الله عز وجل خبرا مفردا ذكر فيه حق الاشياء كلها ، فلم يدع منها شيئا الا ذكره وأخذ له فى خلقه واخـــرج كلامه وامره من جملة الخلق وفصله منهـــا ليدل **على أن كلامه غير الاشياء المخلوقة وخارج عنها** فقال (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأره الا له الخلق والامر تبارك اللـــه رب العالمين) .

فجمع سبحانه وتعالى فى قوله (الا له الخلق) جميع ما خلق فلم يدع منه شيئا ثم قال (والامر) يعنى والامر الذى كان به الخلق خلقا ، ففرق بين خلقه وامره فجعـــل الخلق خلقـــا والامر أمرا ، وجعـــل هذا غير هذا وقال (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر) ، وقال (لله الامر من قبل ومن بعد) .

ومن هذه الآيات وآيات اخرى سردها عبد العزيز المكى حتى طلب منه المأمون الاختصـــار ، فأوضح بعـــد ذلك أن الله تعـــالى قد أخبر عن خلق

السموات والارض وما بينهما فلم يدع شيئا من الخلـــق الا ذكره فأخبر عن خلقه انه ما خلقه الا بالحق ، وان الحق قوله وكلامه الذى به خلق الخلـــق كله ، وانه غير الخلـــق **وانه** خارج عن الخلق ، وغير داخل فى الخلق **وهذا نص التنزيل(٤٦) .**

ولكن بشر لم يوافقه على هذا الذى ذهب اليه ، ورأى أن عبد العـــزيز جاء بأشياء متباينات متفرقات مدعيا أن الله خلق بها الاشياء .

قال عبد العزيز : ان الله تعالى خلق الاشـــياء **بقـــوله وكلامه وأمره وبالحق** فاعترض بشر على قوله لأنه جاء بأشياء متباينات متفرقات مدعيا أن الله تعالى خلق بها الاشياء . فأخذ المكى فى بيـــان كلامه وشرحه بأن بين ان هذه اربعة اشياء لشىء واحد ، لأن كلام الله هو **قوله** وقول الله هو **كلامه** وأمر الله هو **كلامه** وكلام الله هو **أمره** وكلام الله هو **الحق** والحق هو **كلام الله فهذه اسماء لكلام الله** ، واوضح ان الله تعالى سمى كلامه **نورا وهدى وشفاء ورحمة وقرآنا وفرقانا وبرهانا وسماه الحق** ، وهذهأشياء شتى لشىء واحد وهو كلام الله كما سمى نفسه بأسماء كثيرة وهو واحد صمد فرد .

وانما ينكر بشر هذا ويستعظمه لقلة معرفته بلغة العرب .

وهنا ظن بشر ان عبد العزيز يستخدم التأويل لا التنزيل ويخالف المنهج الذى اصله منذ البداية . ولكن عبد العزيز اعاد الى سمعه الآيات الدالة على ما ذكره ، كقول الله تعـــالى (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع **كلام الله**) ،وانما يسمعه من قارئه وانما عنى القرآن لا خلاف بين اهل العلم واللغة فى ذلك . وقال تعالى (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا **كلام الله** قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل) . وقال الله عز وجل (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما وراءه وهو **الحق** مصدقا لما معهم) ، وآيات اخرى مثل قوله تعالى (أم يقولون افتراه بل هو **الحق** من ربك) وقال (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من **الحق**) .

---

(٤٦) الحيدة ص١٨ .

وهذه الآيات وغيرها يتضح منها أن الله تعالى اخبر عن القــرآن أنه الحق كما أخبر أن الحق قوله (قال فالحق والحق اقول) فأخبر أنه الحق وأن الحق قوله وقال (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنــة والنــاس اجمعــين) وقال (حتى اذا فزع عن قلــوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق)(٤٧) .

كما اخبر الله تعالى أن **أمره** هو القرآن وهو كلامه ، فقال (حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيهــا يفرق كل امر حكيم **أمراً** من عنــدنا انا كنا مرسلين) يعنى القــــرآن . وقال (ذلك **أمر الله** أنزله اليكم)(٤٨) .

وثبت بذلك ان القرآن أمر الله تعالى وكلامه وأن أمره هو القرآن وهنا قال عبد العزيز المكى (وهذا تعليم الله لخلقه وتأديبه لهم فقلت كما قال الله ان القرآن كلام الله ، وانه أمر الله ، وانه الحق ، وان هذه أســماء لشىء واحد وهو **الكلام الذى به خلقت الاشياء** وهو غير الاشياء وخارج عن الاشياء وليس هو كالاشياء **فهذا بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير) .**

فقال المأمون (احسنت يا عبد العزيز)(٤٩) .

اثبات أن كلام الله تعالى ليس مخلوقا

وبعد أخذ ورد طويل ومناقشات حول معانى القــرآن وطرق قراءته بالفصل والوصل مما اثبت به عبد العزيز المكى جهــل بشر المريسى بأسرار اللغة العربية ، عاد المريسى ليقول ان قول الله تعــالى (خالق كل شىء) لا تخرج عنها شىء لأن تلك كلمة تجمع الاشياء كلها فلا تدع شيئا يخرج عنها وكل ذلك داخل فيها .

وهنا أخذ عبد العزيز يسترسل فى ذكر آيات من القرآن الحكيم ، مثل قوله تعالى (واصطنعك لنفسى) (ويحذركم اللــه نفســه) وقوله عز وجل (كتب ربكم عــلى نفسه الرحمــة) وقال (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) ، فأخبرنا الله عز وجل ان له نفسا ، وطلب من بشر المريسى الاقرار

(٤٧، ٤٨) الحيدة ص١٩ — ٢٠ .
(٤٩) عبد العزيز المكى — الحيدة ص٢٠ .

بذلك ، فأقر . واشهد المأمون هذا الاقرار . وهنا تلى قوله تعالى (كل نفس ذائقــة الموت) ، ثم ســأل بشر (فتقــول يا بشر ان نفس اللــه عز وجل داخلة فى هذه النفوس التى تذوق الموت) ؟ فصاح المأمون بأعلى صوته — وكان جهــورى الصوت — معاذ الله ، معاذ الله !! فقــال عبد العــزيز (**معاذ الله أن يكون كلام الله داخلا فى الاشياء المخلوقة** كما أن نفسه ليست بداخلة فى الاشياء الميتة) .

وقد اعترف المأمون عندئذ بأن حجة عبد العــزيز قد وضحت وانكسر قول بشر ، وطالب عبد العزيز بالمزيد من هذه الاخبار فى القرآن الكريم .

قال عبد العزيز :

يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل شرف العرب وكرمهم وانزل القــرآن بلسانهم فقال (انا انزلناه قرآنا عربيا) وقال (فانما يسرناه بلسانك) فخص الله عز وجل العرب بفهمه ومعرفته وفضلهم على غيرهم بعلم اخباره ومعانى الفاظه وخصوصه وعمومه ومحكمه ومبهمه وخاطبهم بما عقلوه وعلموه ولم يجهلوه ، اذ كانوا قبل نزوله عليهم يتعاملون بمثل ذلك فى خطابهم فأنزل الله عز وجل القرآن على أربعة اخبار خاصة وعامة(٥٠) .

فمنها :

١ — خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص وهو قوله تعالى (انى خالق بشرا من طين) وقوله (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم)ثم قال (يا أيها النــاس انا خلقناكم من ذكر وانثى) والنــاس اسم يجمع آدم وعيسىومابينهما وما بعدهما فعقل المؤمنون عن الله عز وجل انه لم يعن آدم وعيسى لأنه قدم خبر خلقهما .

٢ — خبر مخرجه العموم ومعناه معنى الخصوص وهو قوله تعــالى (ورحمتى وسعت كل شىء) فعقــل عن الله انه لم يعن ابليس فيمن تسعه الرحمة لما تقدم فيه من الخبر الخاص قبل ذلك وهو قوله (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين)فصار معنى ذلك الخبر العام خاصا لخروج ابليسومن تبعه من سعة رحمة الله التى وسعت كل شىء .

---

(٥٠) الحيدة ص٣٢ — ٣٣ .

٣ — خبر مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى العمـــوم وهو قوله (وانه هو رب الشعرى) فكان مخرجه خاصا ومعناه عاما .

٤ — خبر مخرجه العموم ومعناه العموم .

فهذه الاربعة الاخبار خص الله العرب بفهمها ومعرفة معانيها والفاظها وخصوصها وعمومها والخطاب بها ثم لم يدعها اشتباها على خلقه وفيها بيان ظاهر لا يخفى على من تدبره من غير العرب ممن يعرف الخاص والعـــام ، فلما قدم الينا عز وجل فى نفسه خبرا خاصا أنه حى لا يموت بقوله (وتوكل على الحى الذى لا يموت) ثم انزل خبرا مخـــرجه مخـــرج العموم ومعنـــاه الخصوص فقال (كل نفس ذائقة الموت) فعقل المؤمنون عن الله عز وجل انه لم يعن نفسه مع هذه النفوس لما قدم اليهم من الخبر الخـــاص ، وكذلك وقدم الينا فى كتابه خبرا خاصا (انما قولنـــا لشىء اذا اردناه ان نقـــول له كن فيكون) ، **فدل على قوله باسم مفـــرد** فقال اذا أردناه — ولم يقـــل اذا أردناهما — **ففرق بين القول والشىء المخلوق** الذى يكون بالقول مخلوقا ثم قال عز وجل (خالق كل شىء) ، فعقل المؤمنـــون عن الله عز وجل **أنه لم يعن كلامه وقوله فى الاشياء المخلوقة** لما قدم من الخبر الخاص(٥١) .

الفرق بين الجعـــل والخلـــق

ولكن بشرا عاد الى موقفـــه الاول مصمما عـــلى أن قوله مؤيد بنص التنزيل ، واستخرج من القرآن الكريم آية يدلل بها على رأيه بقول الله تعالى (انا جعلناه قرآنا عربيا) ، ذاهبا الى أن معنى جعلناه خلقناه .

وفى مقدمة رد عبد العزيز المكى على بشر المريسى أرجع خطأه الى انه رجل من ابناء العجم يتأول كتاب الله تعالى على غير ما أنزل ، ويحرفه عن مواضعه ويبدل معانيه ويقول ما تنكره العرب وكلامها ولغاتها ، ويكفر بشر الناس ويستبيح دماءهم **بتاويل لا بتنزيل** .

واخذ عبد العزيز المكى يستقرىء آيات القـــرآن التى يثبت فيهـــا أن (جعل) ليست بمعنى (خلق) مثل قوله :

---

(٥١) الحيدة ص٣٤ .

(وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) . فاذا كان (جعلتم) هنا بمعنى خلقتم الله عليكم كفيلا ، ومن قال هذا فقد أعظم الفرية على الله عز وجل وكفر به .

وقال عز وجل (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) وقال سبحانه (ويجعلون لله البنات سبحانه) ، وقوله (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) ، وقال (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) .

وازاء هذه الحجة المفحمة لما يترتب على تأويل معنى (جعل) بـ (خلق) من مقالات ، اعترف المأمون بصحة ما ذهب اليه عبد العزيز المكى فقال (ما أقبح هذه المقالة واعظمها واشنعها فحسبك يا عبد العزيز فقد صح قولك واقر بشر بما حكيت عنه وكفر نفسه من حيث لم يدر)(٥٢) .

اقامة الحجة بالتنزيل

وعندما ضيق الخناق على بشر المريسى ، قال للمأمون (يا أمير المؤمنين هذا يريد نص القرآن لكل شئ يتكلم به ، وهذا مما لا يقدر عليه لأنه ليس كل ما يتكلم به الناس مما يحتاجون اليه من علم اديانهم يوجد فى كتاب الله **بنص التنزيل ، وانما يوجد فيه بالتأويل)** ، أى انه عاد يطالب بالتأويل بعد أن أفحمه عبد العزيز المكى بالتنزيل .

وظن انه بهذه الطريقة سيعجز عبد العزيز عن اثبات صحة ما ذهب اليه ، فأخذ يتحدى مطالبا بآيات تدل على شمولها لكل المخلوقات .

واخذ يطالب عبد العزيز بالاتيان ببراهينة ، فقال (أوجدنى أن هذا الحصير مخلوق بنص القرآن) .

ولكن عبد العزيز لم يعجز عن اثبات ذلك ، فطالب بشر المريسى أولا بالاقرار بأن الحصير من سعف النخل وجلود الانعام بالاضافة الى صناعة الانسان الذى يعمله حتى صار حصيرا ، ثم أخذ يردد آيات الله تعالى فى هذا

---

(٥٢) الحيدة ص٣٧ — ٣٨ .

الصدد قال تعالى فى النخيل (أانتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) فهو نص بخلق النخل والسعف . وأما الجلود فقال الله تعالى (والانعام خلقهـــا لكم فيها دفء ومنافع) وهذا خلق الجلود . وأما الصانع فقال الله عز وجل (ولقد خلقنا الانسان) فهذا خلق الصانع ، فصار الحصـــير مخلوقا بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير . وسأل بشر (فهل عندك مثل هذا لخلق القرآن ما تذكره او تحتج به والا فقد بطل ما تدعونه من خلقه وصح ولم يزل صحيحا ان القرآن كلام الله غير مخلوق من كل جهة وعلى اى جهة تصرفت)(٥٣) .

ثم دارت المحاولة على النحو التالى :

— قال بشر : يا أمير المؤمنين ، عندى اشياء كثيرة الا انه يقول بنص التنزيل ، وانا اقول **بالنظر والقياس . فليدع مناظرتى بنص التنزيل وليناظرنى** بغيره .

فتعجب المأمون من طريقة بشر فى المناظرة وسأله فى دهشة (نقـــول لرجل يناظر بالكتاب والسنة دعهمـــا واخرج الى النظـــر والقيـــاس ؟ هذا ما لا يجوز(٥٤)) !!

اقامة الحجة بالنظر والقيـــاس

ولكن عبد العزيز المكى فاجأ المأمون والحاضرين وأبدى تمام استعداده للمناظرة بالنظر والقياس دون الاحتجاج بآية من كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسأل بشر المريسى (تسألنى أم اسألك ؟ قال اســـأل أنت) وقال مستطردا (وطمع فى هو واصحابه وظنـــوا انى ان خرجت عن الكتاب والسنة لم احسن ان أتكلم بغيرهما) ! !

قال عبد العزيز لبشر المريسى (يلزمك فى قولك بخلق القـــرآن واحدة من ثلاث :

---

(٥٣) الحيدة ص٤٩ — ٥٠ .
(٥٤) الحيدة ص٥٠ .

١ — أن الله خلق كلامه فى نفسه .

٢ — أو خلقه فى غيره .

٣ — أو خلقه قائما بذاته اى شيئا منفصلا قائما بنفسه .
فقل ما عندك يا بشر .

فأجاب بشر (انا أقول انه مخلوق وانه خلقه كما خلق الاشياء كلها ؛ فصاح عبد العزيز فى وجهه ليثبت عليه **الحيدة** عن جوابه(٥٥) قائلا (تركنا الكتاب والسنة عند هرب بشر عنهما ، ونظارته **بالقياس والنظر** لما ادعاه وذكر انه يحسنه ويقيم على الحجة ولكنه مال الى الحيدة ونقض ما شرط على نفسه ، فان بشرا انما يحسن ان يناظر من لا يفهم ولا يدرى ما يقول . وهنا نهره المأمون وامره بأن يجب عبد العزيز المكى ، فقال معترفا بعجزه عن الاجابة (ما عندى جواب غير ما اجبته به) (٥٦) .

---

(٥٥) والمقصود بالحيدة الانصراف عن السؤال والهروب من اجابته .
وقد استند عبد العزيز المكى الى واقعتين احدهما فى القرآن الكريم والاخرى فى تاريخ المسلمين . فأما فى القرآن ، فقد قال الله تعالى فى قصة ابراهيم حين قال لقومه هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم او يضرون ، وانما قال لهم ابراهيم هذا ليذمهم ويعيب آلهتهم ويسفه احلامهم فعقوا ما اراد بهم فصاروا بين أمرين أن يقولوا نعم يسمعونا حين ندعوا وينفعونا أو يضرونا فيشهد عليهم بلغة قومهم انهم كذبوا ويقولوا لا يسمعونا حين ندعو ولا ينفعونا ولا يضرونا فينفوا عن آلهتهم القدرة ، وعلموا أن الحجة عليهم لابراهيم لانهم فى اى القولين اجابوه فهو عليهم ، فحادوا عن جوابه واجتلبوا كلاما من غير ما سألهم عنه فقالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، فلم يكن هذا جواب مسألته . كتاب الحيدة ص٢٣ .

(٥٦) الحيدة ٥٢ .

فأقبل المأمون على عبد العزيز فقال (قد حاد بشر عن جوابك فتكلم انت يا عبد العزيز فى شرح المسألة) .

وهنا اعاد عبد العزيز المكى الالزامات الثلاثة التى ذكرها فى بداية سؤاله ، وفصلها حسب البيان الاتى :

١ — ان قال بشر ان اللـــه خلق كلامه فى نفسه ، فهذا محال باطل لا يجد للسبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول ، لأن الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا — لا يكون مكانا للحوادث ولا يكون فيه شىء مخلوق ولا يكون ناقصا بشىء اذا خلقه .

٢ — وان قال خلق كلامه فى غيره فهذا ايضا محال باطل لا يجد السبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقول ، لظهور الشناعة من قبله لأنه يلزم قائل هذه المقالة فى القياس والنظر والمعقول أن يجعل كل كلام خلقــه فى غيره هو كلام الله ، فيجعل الشعر وقول الزور والفحش والخنـــا وكل كلام ذمه الله وذم قائليه من كلام الكفر والسحر وغيره لله تعالى عن ذلك .

٣ — وان قال خلق كلامه قائما بذاته ، فهذا هو المحـــال الباطل الذى لا يجد السبيل الى القول به من قياس ولا نظر ولا معقـــول ، لأنه لا يكون الكلاما الا من متكلم ، كما لا تكون الارادة الا من مريد ، ولا العلم الا من عالم ، ولا القـــــدرة الا من قدير ، ولا رؤى ولا يرى أبدا كلام قـــائم بذاته متكلم بنفســـه ، وهذا ما لا يعقل ، ولا يعـــرف ولا يثبت من قياس ولا نظـــر ، ولا غيره .

فلما استحال القرآن أن يكون مخلوقا من هذه الجهات ، ثبت أنه صفة لله عز وجل وصفات الله عز وجل غير مخلوقة ، فيبطل قـــول بشر من جهة النظـــر والقياس ، كما بطل من الكتاب والسنة .

وهنا قال المأمون (احسنت يا عبد العزيز) ، ولكن بشرا انتقـــل الى موضوع آخر فقال (دع هذه المسألة واسأل عن غيرها)(٥٧) .

(٥٧) الحيدة ص٥٢ — ٥٣ .

وانتقلا من الحديث عن كلام الله تعالى الى صفاته عز وجل وقد بدأ بالعلم ثم الحديث عن القدرة والفعل ، واختتما المحاورة بالبرهنة بالمنهج القياسى على ان كلام الله تعالى غير مخلوق ، وسنرى كيف التزم عبد العزيز طرقا ثلاثة فى محاورته : اى التنزيل والنظر والقياس :

اثبات علم الله تعالى بنص التنزيل

انتقل الحديث الى الصفات الالهية التى اثبتها لله لنفسه ومنها العلم ، وقد تدخل المأمون فى هذا الجزء من المحاورة ، فسأل عبد العزيز (اتقول يا عبد العزيز ان الله عالم) ؟ فأجابه (نعم يا أمير المؤمنين) ، فسأله ثانيا (فتقول ان لله علما) ؟ فأجاب بالايجاب .

وذهب المأمون بعد ذلك الى ما هو ادق من هذه القضية فى الفهم والنظر ، فسأله عبد العزيز (فتقول ان الله سميع بصير ؟ قلت — نعم يا أمير المؤمنين ، قال — فتقول ان لله سمعا وبصرا ؟ قلت : لا يا امير المؤمنين) .

وكان عبد العزيز واعيا لاجابته ، مدعما عقيدته بالمنهج الثابت المنقول عن السلف الصالح وما فهمه المسلمون قبله ، فقال :

(يا أمير المؤمنين ، وقد قدمت اليك فيما احتججت به ان على الناس جميعا أن يثبتوا ما أثبت الله ، وينفوا ما نفى الله ، ويمسكوا عما أمسك الله عنه ، فأخبرنا الله عز وجل ان له علما ، فقلت ان له علما كما اخبر ، واخبرنا انه عالم بقوله (عالم الغيب والشهادة) فقلت انه عالم كما اخبرنا انه سميع بصير ، فقلت انه سميع بصير كما اخبر فى كتابه ، ولم يخبر ان له سمعا ولا بصرا) .

فقال المأمون لبشر واصحابه **(ما هو بمشبه فلا تكذبوا عليه)** (٥٨) .

وهنا اراد بشر احراج عبد العزيز فسأله (قد زعمت يا عبد العزيز ان لله علما ، فأى شىء هو علم الله ؟ وما معنى علم الله ؟) .

وأجاب عبد العزيز بشىء من التفصيل ، مستشهدا بآيات من القرآن

---

(٥٨) الحيدة ص٢٥ — ٢٦ .

الكريم فقال (هذا مما تفرد الله بعلمه ومعرفته ، فلم يخبر به ملكا مقربــا ولا نبيا مرســـلا ، بل احتجبه عن الخلق جميعهم فلم يعلمــه احد قبلى ولن يعلمه احد بعدى ، لأن علمه اكثر واعظم من ان يعلمه احد من خلقه) .

واخذ يذكره بقوله تعالى (ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء) ، وقوله (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الامن ارتضى من رســـول) ، وقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحــر) ، وقوله عز وجل (ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفذت كلمات الله ان الله عزيز حكيم) .

وسأل بشرا (اتدرى يا بشر ما معنى هذا ؟ واى شىء مما نحن فيه ؟) .

فطالبــه المأمون بالاجابة بنفسه على هذا السؤال شرحا وتفسيرا ، فاستكمل ذلك بقوله (يا امير المؤمنين يعنى بقوله هذا ولو أن ما فى الارض من جميع الشجر والخشب والقصب اقلام يكتب بها والبحــر مداد يمده من بعده سبعة ابحر ، والخـــلائق كلهم يكتبون بهـــذه الاقلام من هذا البحر ، ما نفذت كلمات الله ، فمن بلغ عقله وفهمه وفكره كنــه عظمـــة الله وسعة علمـــه ؟ !!

وقال سبحانه وتعالى (لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفذ البحر قبل ان تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) فمن يحـــد هذا أو يصفه أو يدعى علمه ، وقد عجزت الملائكة المقربون عن علم ذلك واعترفوا بالعجـــز عنـــه فقالوا (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم) ؟

وقال تعالى (ان الله عنده علم الســــاعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير) .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن علم الساعة فقال (علمها عند ربى فى خمس لا يعلمها الا هو وتلا (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام) فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن هذه الخمس مما تفرد الله بعلمها ، فلا يعلمها الا هو ، فاذا كان النبى صلى الله عليه وسلم

لا يعلم من علم الله الا ما علمه ، فكيف يجوز لأحد من امته ان يتكلف علمـــا أو يدعى معرفة) ؟(٥٩) .

ويبـــدو من تعليق عبد العـــزيز انه غضب بسبب هذا السؤال الذى لا محل للاجابة عنه واضطر الى افحامه بنصوص التنزيل لبيان ان مثل هذا السؤال منهى عنه من قبل الله تعالى ، فقـــال عبد العزيز (انك لتأمرنى بما نهانى الله عنـــه وحرم على القـــول به ، وتأمرنى بما امرنى به الشيطان ، ولست اعصى ربى وارتكب نهيه واطيع الشيطان واتبع امره و امرك اذ كنتما قد أمرتمانى بخلاف ما أمرنى به ربى ، بل نهانى) !

وكان المأمون يراقب الموقف منصتا باهتمام، ودهش من رد عبد العزيز واراد شرحا له ، فقال (يا عبد العزيز امرك بشر بما نهاك الله عنه وحرم عليك القول به وامرك به الشيطان ؟!!) فلما اجاب عبد العزيز بالايجاب ، طالبه بآيات من كتاب الله بنص التنزيل .

قال عبد العزيز (قال الله عز وجل لنبيه عليه السلام : قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحـــق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمـــون) . وأمرهم الشيطان بضد ذلك ، فقال الله عز وجل (يا ايها الناس كلوا مما فى الارض حلال طيبا ولا تتبعوا خطـــوات الشـــيطان انه لكم عدو مبين انما يأمـــركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) فأخبر الله عز وجل ان الشيطان يأمر الناس بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، فنهاهم عن اتباعه وقبول قوله ، فهذا تحريم الله ونهيه لنا بها يا امير المؤمنين ان نقول عليـــه ما لا نعلم ، وهذا امر الشيطان لنا ان نقول على الله ما لا نعلم ، وقد اتبـــع بشر يا امير المؤمنين سبيل الشيطان التى نهاه الله عن اتباعها ووافقه على قوله وامرنى بمثل ما أمرنى به الشيطان ان اقول على الله ما لا اعلم) .

ويصف عبد العزيز انعكاسات هذه الاجـــابة على المأمون بقوله (فكثر

---

(٥٩) الحيدة ص٢٦ — ٢٧ .

تبسم المأمون حتى غطى بيده على فيه واطرق يكتب فى الارض بيـــده على السرير)(٦٠) .

ويدهشنا ان تصل المجادلة الى هذا الحد مع اصرار بشر المريسى على موقفه بالرغم من حجج عبد العزيز القوية الواضحة ، ومنهـــا يتضـــح أن المريسى قد افلس بعناده وعجزه عن مجابهة ادلة عبد العزيز .

كما تعجب من تصرف المأمون لاتخاذه القضية البالغة الاهمية ذريعـــة للتضييق على الناس وكبت آرائهم ، ثـــم وقرفه بنفسه على الادلة واقـــراره بصحتها فى اكثر من موضع بقوله (احسنت يا عبد العزيز) ، بينما فى مجالسه الخاصة تكون مدعاة لابتسامة وربما ضحكة ! !

اثبات الفعـــل والقـــدرة بالنظر والقياس

اولا — بالنظر والمعقول :

استهل عبد العـــزيز المكى المحـــاورة فى هذه القضية بسؤاله لبشر المريسى فسأله (يا بشر ، تقـــول ان الله كان ولا شىء ، وكان ولم يفعـــل شىء ، وكان ولم يخلق شىء فلما اقر بشر بهذه المقـــدمة ، استخرج منهـــا الاقرار بأن الله تعالى هو الذى أحدث الاشياء — اى خلقهـــا — **بقـــدرته** ســـبحانه .

ولكنهما اختلفا بعد الاتفاق على هذه المقـــدمة ، ويعبران عن وجهتى النظر المتعارضين ، اذ ان المعتزلة ينفون صفات الله تعالى بينما يثبت علماء اهل السنة والجماعة هذه الصفات كما اتضح لنا فيما تقدم من هذا البحث .

اقر بشر بأن الله عز وجل **لم يزل قادرا** ، ولكنه لم يقر بأن الله سبحانه **لم يزل يفعل** . فانبرى اليـــه عبد العـــزيز المكى (فـــلا ان تقـــول انه خلق **بالفعل الذى كان عن القدرة** ، وليس الفعل هو القدرة ، لان القـــدرة صفة من صفات الله ، ولا يقال لصفات اللـــه هى الله ، ولا هى غير الله ، وهذا يلزمك القول به) .

---

(٦٠) الحيدة ص٢٨ .

فلما اعترض بشر على هذا التفسير قائلا لعبد العزيز (ويلزمك ايضـــا ان تقول انه لم يزل يفعل ويخلق ، واذا قلت ذلك تبينا ان المخلوق لم يزل مع الخلق) ، هنا اضاف عبد العزيز ايضاحا اكبر ، متوسعا فى شرح العـــلاقة بين الخالق والمخلوقات ، ليصل اثبات صفة **الفعل لله تعالى مع القـــدرة** ، وبذلك يضع البرهان العقلى لصفات الله تعالى وتغايرها .

قال عبد العزيز (انى لم اقل هذا وليس لك ان تحكم على وتحكى عنى ما ألم أقل وتلزمنى ما لم يلزمنى ، انى لم أقل انه لم يزل الخالق يخلق ، ولم يزل الفاعل يفعل فألزمنى ما قلت ، وانما قلت لم يزل الفاعل سيفعل ، ولم يزل الخالق سيخلق لأن الفعـــل صفة الله يقـــدر عليهـــا ولا يمنعه منهـــا مانع)(٦١) .

وكان عبد العزيز حريصا فى اختيار الفاظه ان يستخدم الفعل بصيغة المستقبل ، لكى يتضح امام الســــامع ان الله تعالى هو الاول بالاطلاق وانه سبحانه متقدم قبل الخلق ، كان ولا شىء قبله ولا شىء معه .

ولكن بشرا اصرا على موقفه بالاعتقاد ان الله تعـــالى احدث الاشياء بقدرته ولم يقر بالفعل الذى كان عن القدرة .

وهنا اضطر عبد العزيز لاشراك المأمون فى المحاورة ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، قد قـــال بشر ان الله كان ولا شىء ، وانـــه احدث الاشياء بعد انلم تكنشيئا بقدرته، فقلتانا احدثها بأمره وقوله عن قدرته).

فقال المأمون : قد حفظت عليكما قولكما .

فقال عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لن يخلو ان يكون اول خلق خلقـــه الله بقوله قاله ، وبارادة ارادها ، وقدرة قدرها) .

واستمر فى شرح معتقده ، اذ ترتب على المقدمة الســـابقة أن ههنـــا ارادة ومريدا ، وقولا وقائلا ومقولا له ، وقدرة وقديرا ومقدورا عليه ، وذلك

---

(٦١) الحيدة ص٥٣ .

كله متقدم قبل الخلق ؛ **وما كان متقــدما قبل الخلق فليس هو من الخلق في شيء .**

وكان سكوت بشر يدل على انه افحم فلم يحر جوابا فقال عبد العــزيز : وقد كسرت والله قول بشر ودحضت حجته باقراره بلسانه بالنظر والمعقول، ولم يبق الا القياس ، وانا اكسره بالقياس ان شاء الله تعالى ، فقال المأمون : هات واوجز قبل خروج وقت الصلاة(٦٢) .

ثانيا — اثبات ان القرآن كلام الله بمنهج القياس :

واستخدم عبد العزيز المكى المنهج القياسى فى اثبات ان القرآن الكريم كلام الله تعالى وليس شيئا مخلوقا ، وكانت دوافعه للعودة مرة اخرى الى هذا الموضوع أن يثبت صفة الكلام ، فاذا تم ذلك اثبت باقى صفات اللــه تعالى قياسا عليه .

وبدا عبد العزيز بتوجيه كلامه الى المأمون ، فقال :

يا أمير المؤمنــين ، لو كان لبشر غلامان وانا لا اجد لهما خبرا من احد من الناس الا من بشر ، ويقال لأحدهما خالد ، وللآخر يزيد ، وكان بشر غائبا عنى بحيث لا آراه فكتب الى بشر ثمانية عشر كتابا يقــول فى كل كتاب منها (ادفع الى **خالد غلامى** هذا الكتاب) . وكتب الى اربعة وخمسين كتابا يقول (ادفع الى **يزيد** هذا الكتاب **ولم يقــل غلامى**) .

وبعد هذه البداية ، التى سنفهم بعدها سبب اختيار عبد العزيز لهذه الاعداد بالذات حالا ، استكمل حديثه بقوله : ثم قدم بشر من سفره فقـــال لى : الست تعلم ان يزيد غلامى ، فقلت : قد كتبت الى اربعة وخمسين كتابا وقلت ادفع هذا الكتاب الى يزيد ولم تقل غلامى ، وكتبت ولم اسمعك تقول غلامى — وانا لا اجد ذلك الا منــك ولا اعرف خبره من احد غيرك . وكتبت الى ثمانية عشر كتابا ادفع الى خالد غلامى هذا الكتاب ، فعلمت بكتــابك انه غلامك . ثم كتبت الى كتابا جمعتهما فيه فقلت (ادفع هذا الكتـــاب الى

---

(٦٢) الحيدة ص٥٤ .

خالد غلامى والى يزيد — ولم تقــل غلامى ،فمن أيــن اعلم أن يزيد غلامك ولستاعلم خبرهما من احد غيرك ؟) .

وسياقا لهذه الواقعة ، وما يترتب على حدوثها من نتائج ، اراد عبد العزيز الوصل الى انها لو حدثت بهذه الكيفية ، ســيتهمه بشر بأنه فــرط حيث لم يعلم ان يزيد غلامه من كتبه ولكن عبد العزيز يلقى المسئوليــة عن كاهله ويرى ان بشرا هو المفرط ، واشرك المأمون فى الشهادة فسأله (فأينا المفرط يا أمير المؤمنين) ؟ فأقر المأمون بأن بشرا هو المفرط(٦٣) .

ومع غرابة هذه الواقعة التى يريد عبد العزيز القياس عليها ، ظهــرت دهشة بشر المريسى من غرضه فقال (وايش هذا مما نحن فيه نريد أن تثبت بهذا السؤال على ما لم يكن منى كانت هذه المكاتبة وهذا الكلام) ؟ !!

وحينذاك حسم عبد العزيز الموقف مستخدما القياس فى البرهنة على ما ذهب اليه ، فقال (اسمع حتى تقف على ما اردت) ثم أردف قائلا (يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل اخبرنا فى كتابه **بخلق الانســـان فى ثمانيـــة عشر موضعا** ، ما ذكره فى موضع منها الا اخبر عن خلقه . وذكر **القرآن فى أربعة وخمسين موضعا فلم يخبر عن خلقه فى موضع منها** ولا اشار اليه بشىء من صفات الخلق ،ثم**جمع بين القرآن والانسان** فى آية من كتابه فأخبر عن الخلق للانسان ونفى الخلق عن القرآن ، فقال الله عز وجل « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ») ففرق بين القرآن والانسان فزعم بشر يا أمير المؤمنين أن الله فرط فى الكتاب من شىء . فهذا كسر قول بشر بالقياس) .

فقال المأمون (أحسنت يا عبد العزيز)(٦٤) .

الى جانب تناول الجدل حول باقى صفات الله ســبحانه وتعالى من وجهتى النظر المتعارضتين : راى المعتزلة الذى يعبر عنه بشر المريسى ورأى علماء السنة الذى يعبر عنه عبد العزيز المكى(٦٥) .

---

(٦٣) الحيدة ص٥٤ .
(٦٤) الحيدة ص٥٥ .
(٦٥) وقد استخلصناه من ابن تيمية نقلا عن « الحيدة » اذ لاحظنا أن الكتاب المتداول والذى استندنا اليه جاء خلوا من هذه المسألة .

الاســــتواء على العــرش :

من محاورات عبد العزيز المكى مع بشر المريسى فى بيان استواء الله عز وجل على عرشـه :

فسر الجهمية قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) بأن المعنى استولى كقول العرب استوى فلان على مصر وعلى الشام . ويسأل عبـد العزيز المكى عدة أسئلة ليستخلص منها الاجابات الملزمة لها ، فيسأل اولا (أيكون خلق من خلق الله انت عليه مدة ليس الله بمسئول عليه ؟) فالاجابة الصحيحة بالنفى ، ومن زعم غير ذلك فهو كافر . وبالنظر الى آيات اخرى تتناول العرش ، يلزم المريسى بأن العــرش قد اتت عليه مدة ليس اللـه بمسئول عليه ، فقد قال تعــالى الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا) وقوله (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم) وقــوله (ثم استولى الى السماء وهى دخان) ويستطرد المكى بعد هذا قائلا (فيلزمك ان تقول : المدة الذى كان العرش فيها قبل خلق السموات والارض ليس الله بمسئول عليه ، اذ كان (استوى على العرش) معناه عندك استولى ، فانما استولى بزعمك فى ذلك الوقت لا قبله) .

وبقيت الصعوبة التى يثيرها الجهمية فى كيفية الاستواء ، اذ يستفسر المريسى عنه ، اهو كما يقول (اســتوى فلان على السرير) فيكون السرير قد حوى فلانا وحده اذا كان عليه ؟ ويلزم من ذلك القول أن العرش قد حوى الله وحده اذا كان عليه ، لأنا لا نعقل الشىء الا هكذا .

ويوضح عبد العزيز المكى اجابته على هذا التساؤل ، فيؤكد اولا أن الله تعالى لا يجرى عليه كيف ، فلا مجال اذن للتساؤل (كيف استوى ؟) ، فقد أخبرنا بأنه اســتوى على العرش ولم يخبرنا كيف استوى ، اذ لم تره العيون فى الدنيا فتصفه بما رأت ، وحرم عليهم أن يقولوا عليه ما لا يعلمون فآمنوا بخبره عن الاستواء ، ثم ردوا علم كيف استوى الى الله تعالى .

بقى بعد هذه الاجابة أن يلزم الجهمى بالزامين يستخرجهما من وصفه

الله تعالى بأنه فى كل مكان ، أولهما فقد زعم أن الله تعالى محدود وقد حوته الاماكن ، لأنه لا يعقل شىء فى مكان الا والمكان قد حواه . ويلزمه ثانيا تقليد النصارى فى الاعتقاد بأنالله عز وجل فى عيسى وعيسى بدن انسان واحد ، فكفروا بذلك ، ولكن قول الجهمية اشنع اذ يلزمهم القول أنه فى ابدان الناس كلهم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وفى ختام المحاورة يضطر المريسى الى الوقوع فى التناقض اذ يصف الله عز وجل بأنــه فى كل مكان ، لا كالشىء فى الشىء ، ولا كالشىء على الشىء ، ولا كالشىء خارجا عن الشىء ، ولا مباينـــا للشىء . ويسخر المكى من هذا الاعتقاد ، لأن المريسى يدعى انه يستند الى القياس والمعقـــول ، ولكنه دل بالقياس والمعقول على انه لا يعبد شــيئا ، لأن ما لا يكون داخلا فى الشىء ولا خارجا منه فانه لا يكون شيئا ، وان ذلك صفة المعدوم لا وجود له(٦٦) .

وتلقف ابن تيمية بقراءاته المتشعبه مثل هــذا الدليل العقلى ، وزاده ايضاحا ، فبين أولا أن الالفاظ التى لم تنطق الرسل فيها بنفى ولا اثبــات كلفظ الجهة والحيز ونحو ذلك لا يطلق نفيا ولا اثباتا الا بعد بيان المراد ، ثم أحشى الادلة المستمدة من القرآن والسنة فرآهـــا تقارب الف ، مع تطـــابق الانبياء كلهم على أن الله سبحانه وتعالى فى العلو .

ولكن ماذا يقصـــد بالعـــلو ؟

يقدم كعادته الآيات القرآنية ، مثل قوله تعالى (أامنتم من فى السماء أن يخسف بكم الارض) . ، (أم أمنتم من فى الســـماء أن يرســـل عليــكم حاصبا) ، فهو سبحانه العلى الاعلى لا يعلوه شىء من خلقـــه ، كما أخبـــر الرسل بأن الله تعالى فوق العالم بعبارات متنــوعة ولكن ليس مرادهم أن اللــــه فى جوف الســـموات أو أن الله يحصره شىء من المخلوقات ، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضا ، كما قال تعالى (سبحان ربك رب العـــزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (أنت الظـــاهر فليس فوقك شىء

(٦٦) ابن تيمية — مجموع فتاوى جـ٥ ص ٣١٦ — ٣١٧ ط السعودية .

وأنت الباطن فليس دونك شيء) . ويناقش شيخ الاسلام كافة التصورات المحتملة فينفيها ، ويثبت الصحيح ، فمن التصورات الخاطئة اعتقاد أنيكون الرب محصورا فى شيء من المخلوقات اصلا سواء سمى ذلك المخلوق جهـــة أو لم يسم جهة ، ويخطئ أيضـــا من يظن انه ليس فوق الســـموات رب ، ولا على العرش ، ومحمدصلوات الله عليه لم يعرج الى ربه ، ولا تصـــعد الملائكة اليه ، ولا تنزل الكتب منه ، ولا يقرب منه شيء ، ولا يدنو الى شيء .

الاعتقاد الصحيح اذن انه ليس موجودا الا الخالق والمخلوق ، والخالق بائن عن مخلوقاته ، عال عليها ، فمن سمى ما فوق العالم جهة وجعل العدم المحض جهة وقال هو فى جهة بهذا المعنى اى هو نفسه فوق كل شيء فهذا معنى صحيح (٦٧) .

---

(٦٧) ابن تيمية — الجوال الصحيح لمن يدل دين المسيح ج٣ ص٨٣ .

الفصـــل الثالث :

صلة العقـــل بالشـــرع

ـــ صلة العقل بالشرع .

ـــ ادلة الشرع عقلية .

ـــ تعقيب .

صلة العقل بالشرع :

ولعل ابرز نقاط الخلاف بين شيوخ الحديث والسنة ، والمتكلمين بعامة والمعتزلة بخاصة هى نقطة صلة العقــل بالشرع ، فبينما زعم المتكلمون أن بوسعهم استحداث ادلة مستوحاة من العقل وممزوجة بمصطلحات الفلاسفة والاستناد اليها فى الدفاع عن الاسلام ، يرى اهل الحديث والسنة أن الادلة الشرعية بذاتها كافية لانها تتفق مع احكام العقل وقوانينه .

وهنــاك ايضا مترادفات فيقــال النقل والعقل او الرواية والدراية السمع والعقل وكان مثار الخلافات الحادثة بين المسلمين أن اهل الكلام ظنوا أن الادلة الواردة بالوحى لا صلة لها بالعقل ، ولهذا حاولوا التوفيــق بين ادلة الشرع وادلة العقــل ظانين انهم بهذا المنهــج يستطيعون الدفاع عن الاسلام وتقريب اصوله الى الاذهان .

وتوطئه لتحليل هذه القضية الهــامة التى تعتبر جوهر الخــلاف بين المتكلمين والمحدثين فسنعرض لبعض المصطلحات التى حددها احد علمــاء الحديث والسنة ليمكننا التمييز بين مناهج علماء الحــديث ومناهج المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة واصحاب الفرق الاخرى .

الشرع :

وهو ينقسم الى : —

١ — الشرع المنزل : فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتــاب والسنة . هذا هو الشرع المنزل ، وهو الحق الذى ليس لأحد خلافه .

٢ — الشرع المبدل : ويطلق على ما يضيفه بعض الناس الى الشرع ، اما بالكذب والافتراء واما بالتــأويل والغلط ، وهذا شرع مبــدل لا منزل ، ولا يجب ، بل لا يجوز اتباعه .

ويضــــع شيخ الاســــلام ابن تيمية فى دائرة الشرع المبدل هؤلاء الذين

يناقضونه فى خبره ، فينفـــون ما أثبته أو يثبتون ما نفـــاه ، كأتباع جهم بن صفوان الذين ينفون ما أثبته من صفات الله ســـبحانه وتعالى ، والقدرية النفاة الذين ينفون ما اثبته من قدر اللـــه تعالى ومشيئته وخلقه وقدرته — والقـــدرية المجبرة الذين ينفون ما أثبته من عدل اللـــه تعـــالى وحكمتـــه ورحمته ، ويثبتون ما نفاه من الظلم والعبث والبخل ونحو ذلك عنه (٦٨) :

العقـــــل :

مدح الله تعالى مسمى العقل فى القرآن الكريم فى غير آية . كذلك رويت احاديث نبويه كثيرة عن فضل العقل الانسانى ، منها قـــول النبى صلى الله عليه وسلم (ان الرجل ليكون من أهل الصيام واهل الصـــلاة واهل الحج واهل الجهاد فما يجزى يوم القيامة الا بقدر عقله) .

وعن على قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله لقد سبق الى جنـــات عدن اقوام ما كانوا بأكثر الناس صـــلاة ولا صياما ولا حجـــا ولا اعتمـــارا ، ولكنهم عقلوا عن الله تعالى مواعظـــه فوجلت منه قلوبهم واطمأنت اليه النفوس وخشعت منه الجوارح ففاقوا الخليقة بطيب المنزلة وحسن الدرجة عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة(٦٩) .

ويقرر شيخ الاسلام ابن تيمية ان القرآن الحكيم مملوء من ذكر الآيات العقلية اى التى يستدل بها العقل ،وهى شرعية دل عليها وارشد اليها ، ولكن كثيرا من الناس لا يسمى دليلا شرعيا الا ما دل بمجرد خبر الرســـول — صلى الله عليه وسلم — وهو اصطلاح قاصر (٧٠) .

ويذهب الشيخ/الدكتور دراز الى اننا نستطيع دراسة القرآن الكريم من زوايا جد مختلفة ، ولكنها جميعا يمكن أن تنتهى الى قطبين اساسيين هما اللغـــة والفكر ، فالقـــرآن كتـــاب أدبى وعقيـــدى فى نفس الوقت وبنفس الدرجة(٧١) .

---

(٦٨) ابن تيمية — النبوات ص ٦٣ — ٦٤ .

(٦٩) ابن تيميـــة : بغية المرتاد فى الرد على المتفلســـفة والقـــرامطة والباطنية ص٦٠ .

(٧٠) ابن تيمية — النبوات ص٥٢ ط المكتبة السلفية ١٣٨٦ هـ .

(٧١) دكتور محمد عبد الله دراز : مقدمة الكتاب (مدخل الى القـــرآن الكريم) .

لكن ما احدثه المتكلمون من الكلام المبتدع والمخالف للكتاب والسنة مل هو فى نفس الامر مخالف للمعقول ، ومرد ذلك الى ادخال مصطلحات الفلسفة اليونانية والتعبير بهاعن عقائد الاسلام .

والاصل ان الترجمة من اللغات الاخرى جائزة بل حسـن وقد يجب احيانا كما امر النبى صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود لأن المعرفة بلغات الناس واصطلاحاتهم نافعة فى معرفة مقاصدهم ، ولكن المحظور هو عدم الدقة فى فهم الفـروق بين الكلمـات والمعانى من لغـة الى أخرى .

وعلى سبيل المثال فان لفظ (العقل) عند فلاسفة اليونان يقصـد به جوهرا قائما بنفسه ، وليس الامر كذلك فى اللغة العربية ، كذلك العقل فى الكتاب والسنة وكلام الصحابة والائمة لا يراد به جوهر قائم بنفسه باتفاق المسلمين وانما يراد به العقل الذى فى الانسان .

وبسبب الخلط بين اللغتين فسر بعض الفلاسفة المسلمين — نقلا عن اليونان — الخلق بنظرية الصدور ، فتصوروا خلق العالم وكأنه صـدر عن العقول العشرة والنفوس التسعة الى ان انتهى بالعقل الفعال .

عندما رفض المحدثون اذن منهج المتكلمينوردوه ،لم يفعلوا ذلك انكارا لاحكام العقل وقوانينه ، ولا رفضـا للجـدل المبنى على اسس منطقيـة برهانية ، ولكن لأن الاصول التى استند اليها علماء الكلام ، اما أنها تلبس المعانى الاسلامية ثيابا ليست لها كمصطلحات الجوهر والعرض والقـديم والحادث ومثلها من التعبيرات النابعة من الفلسفة اليونانية والتى لا تعبر عن مدلولات مشابهة فى الاسلام ، او انها تشوه الفكرة وتخلط بين التصـورات لأن صلة الفكر باللغة صلة وثيقة) ، وقد وضع المتكلمون هذه المصطلحات أولا ثم ارادوا انزال كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليـه وسلم على ما وضعوه من اللغة والاصطلاح) (٧٢) .

---

(٧٢) ابن تيمية — بغية المرتاد فى الـرد على المتفلسـفة والقرامطة والباطنية ص٢٠ اما الحديث المنسوب الى النبى صلى الله عليه=

السـبب الثـانى انهم اقامـوا حججهم على ادلة مخـالفة للمعقول ولا تستقيم مع الادلة العقلية بينما يزعمون انها كذلك .

ونضرب على ذلك مثالين : —

أولا — فكرة نظرية الجواهر الفردة التى يفسرونها بهـا الخـلق ، وتتلخص ان الاجسام مركبة من الجواهر الصغار التى قد بلغت من الصغر الى حد لا يتميز منها جانب عن جانب وتلك الجـواهر باقية تتقلب عليهـا الاعراض — أو الصفات الحادثة .

وبناء عليه يرى هؤلاء المتكلمون ان الله تعالى احدث اعراضا كجمـع الجواهر وتفريقها فالمادة التى هى الجواهر المنفردة باقية بأعيانها ، ولكن احدث صورا هى اعراض قائمة بهذه الجواهر(٧٣) .

ويترتب على هذه النظـرية اشـد النتائج انحرافا لانه لا يختلف عن مذاهب الفلاسفة القائلين بقدم العالم ، فانهـارت بذلك الحجج العقليـة للمتكلمين الذين ظنوا انهم بأدلتهم يدافعون عن الاسلام، واصبحوا (كمن اراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعى فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده ، بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد ان كانوا عاجزين عنه)(٧٤) .

أما الحقيقة الماثلة للاذهان ، واظهر ما تكون فى خلق الانسان نفسه . انه خلق من تراب وحوله الله تعالى (الذى احسن كل شىء خلقه وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) السجدة .

= وسلم انه قال (لما خلق الله العقل قال له قم فقام ثم قال له ادبر فادبر ثم قال له اقعد فقعد فقال ما خلقت خلقا هو خير منك ولا اكرم على منك ولا احسن منك آخذ وبك اعطى وبك اعرف وبك الثواب وعليـك العقاب) فقد اجمع علماء الحديث — ومنهم ابن الجوزى — ان هذا الحديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفس المصدر ص٢٢ .

(٧٣) ابن تيمية — النبوات ص٥٣ ط المنيرية ١٣٤٦ هـ .

(٧٤) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٦٣ .

فقد خلق الله الانسان ولم يك شيئا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) ولا تعنى الآية الاخيرة انه خلق من لا شيء لأنه قال تعـالى (وجعلنا من الماء كل شيء حى) وهذه هى القدرة التى تبهر العقول وتذهلها ، وهو أن يقلب الحقائق الموجودة فيحيل الاول ويفنيه ويلاشيه ويحدث شيئا آخر فأصل الانسـان التراب وفصله الماء المهين ، فاذا خلق الله الانسـان من المنى ، فالمنى استحال وصـار علقة والعلقـة استحالت وصارت مضغة والمضغة استحالت الى عظام وغير عظـام ، فالانسان مخلـوق خلق الله جواهره واعراضه كلها من المنى — اى من مادة استحالت ، فليست باقية بعد خلقـه ويحدث الله فيها صورا عرضية كما يزعم المتكلمون .

وعند افناء الانسان اذا مات وصار ترابا فنى وعدم وكذلك سائر ما على الارض كما قال تعالى (كل من عليها فان) ثم يعيده من التـراب كما خلقـه ابتداء من التراب ويخلقه خلقا جديدا ، ولكن النشأة الثانية احكام وصفات للاولى ، فمعرفة الانسان بالخلق الاول وما يخلقه من بنى آدم وغيرهم من الحيوانات وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار ، وما يخلقه من السحاب والمطر وغيرهما من المخلوقات ، هو اصل لمعرفته بالخلق ، بالمبدأ والميعاد .

وهكذا تنهار الاصول العقلية التى استحدثها المتكلمون .

المثال الثانى : طريقة المتكلمين فى اثبات الصانع .

وهى الطريقة التى ابتدعها أهل الكلام زاعمين انهـا طريقة عقليـة صحيحة وخلاصتها ان الله تعالى لا يعرف الا بالنظر والاستدلال المفضى الى العلم باثبات الصانع ولا طريق الى ذلك باثبات حدوث العالم . وطريقتهم فى اثبـات حدوث العالم مبينة على الاستدلال بالاعراض او ببعض الاعراض كالحركة والسكون او الاجتماع والافتراق وهى الاكوان فان الجسم لا يخلو منها وهى حادثة ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، فاضطرهم ذلك الى القول بحدوث كل موصف فنفوا عن الله تعالى الصفات وقالوا بأن القـرآن مخلوق وانه لا يرى فى الآخرة(٧٥) .

---

(٧٥) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٧٨ .

وأدى ذلك الى نتائج مشابهة الى الفلاسفة الدهرية القائلين بقــدم العالم ، اذ أثاروا الفلاسفة عليهم فقالوا (هذه الطريقة تستلزم كون الصانع كان معطلا عن الكلام والفعل دائمـــا الى أن احدث كلاما وفعلا بلا ســـبب أصلا ، وهذا مما يعلم بطلانه بصريح العقل(٧٦)) .

وبعد فاننا نرى من وجهة نظر الباحثين فى نظرية المعرفة ، كيف حددها القرآن الكريم مفصــلا الحديث عن الاحاسيس والعقل والشعور مثيرا فى الانسان كوامن الفطرة الموحدة بآية الميثــاق ، مدلل على صــدق النبــوة والرسالة والتوحيد وعالم الغيب بأدلة تمتزج بها والخطاب موجه الى الانسان على الحقيقة بفطرته وروحه وقلبه ووجدانه واحاسيسه وشعوره وعقله ، فكان التوجيه الالهى للانسان بهذا المفهوم والتكوين الذى خلقــه به اللــه تعالى ، وفى الوقت نفسه حض القرآن على التفكير والتعقــل والتــدبر فى غير آية .

ومن غير المتصور وغير المنطقى والحقيقى ان يأتى الشرع بأدلة مخالفة للقوانين العقلية الفطرية كالتأمل والاختــلاف فانها الميزان الذى يزن بهـا الانسان المعلومات الواردة اليه . وهذا ما يقصده شيوخ الاسلام من وصفهم لحقيقة الآيات السمعية والقولية والعيانية والعقلية .

ولهذا فان التنازع الموهوم بين العقل والنقل او الادلة العقلية والادلة الشرعية أو أصحاب الرواية وأصحاب الدراية لا محل لها فى تراثنا بالصورة التى ظهرت فى تراث اهل الكتــاب . كل ما هنــالك ان (عالم الغيب) بما يحتــويه من اعاجيب تذهل المألوف مما يراه الانســان ويشاهده ويحســه ويتعقله ، جعل البعض يحاول اخضاعه للمقاييس العقلية الانسانية ، فحدث الاضطراب بين المتكلمين والفلاسفة (ابن خلدون وميزان الذهب) .

وتصبح القضية غير ذات موضوع لاسيما فى عصـــورنا الحديثة التى كشف العلم فيهــا عمــا يحير العقــل ويذهله فى عالم المخلوقات كالافلاك والحيوان والنبات .

---

(٧٦) ابن تيمية — الصفدية جـ١ ص٢٧٥ تحقيق د . محمد رشاد سالم . مطابع حنيفة — الرياض ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .

ادلة الشرع عقلية :

اثبت علماء السلف ان ادلة الشرع عقلية ايضا وليست نقلية فحسب ، فان القرآن الكريم جاء بالادلة العقلية على احسن بيان واقومه ، واستخلصوا منه الطرق المبينة على البراهين المنطقية التى تخاطب الانســـان اينما كان وحيثما وجد . وكلها دل عليها القرآن الذى وصفه اللــه تعالى بأنه يهدى للتى هو أقوم :

ومن هذه الطرق دلالات الانفس والآفاق التى يدعو القـــرآن الحكيم للنظر فيها والاعتبار بها والتفكر فى نظمها .

اما الاولى فهى دلالة الانفس ، قال الله تعالى (قتل الانسان ما أكفره من اى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره) .

وقال تعالى (وفى أنفسكم افلا تبصرون) .

وقال عز وجل (يا ايهـــا الانســـــان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى اى صورة ما شاء ركبك) وقال (كيف تكفرون بالله وكنتم اموانا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) وقال سبحانه (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خَصِيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها اول مرة .

اما دلالة الآفاق فان القرآن الكريم يحثنا على تدبر ما يحدث حولنـــا فى عالمنا الذى نعيش فيه وما يطرأ من تغييرات تتعاقب فيه فى أوقات محدودة وازمنة معروفة كطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها ودوران الافلاك والنجوم والسفن الجاريات فى البحار والرياح وتغير احوال الهواء بالغيـــوم والصواعق والبروق وانزال الامطار فتسقى الزرع وتنبت الاشجار والفواكه والازهار والثمار وتمد الابحار والانهار والآبار ، وما فى اختلاف الليل والنهار والفصول ، وقد جمع الله تعالى ذلك فى قوله (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل

الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض **لآيات لقوم يعقلون**)(٧٧) .

وقد جمع الله تعالى دلالتى النفوس والآفاق فى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) وذلك اننا نعلم بالضرورة وجودنا أحياء قادرين عالمين ناطقين سامعين مبصرين مدركين بعد ان لم نكن شيئا وأن اولوجودنا كان نطفة قذرة مستوية الاجزاء والطبيعة غاية الاستواء بحيث يمتنع فى عقل كل عاقل ان يكون منها بغير صانع حكيم ما يختلف أجناسا وانواعا واشخاصا .

أما الاجناس فكما نبه عليه قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على اربع) .

وأما الانواع فنبه عليها بقوله سبحانه (الم يكن نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى) ومنه (ثم سواك رجلا) .

وأما الاشخاص فبقوله تعالى (قتل الانسان ما اكفره من اى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره) .

فهذا هو الفكر المأمور به ، وهو اى النظر فى هذه الامور وهى طريقة السلف التى اتبعوها مستندين الى كتات الله عز وجل)(٧٨) .

وقد ظل هذا المنهج موحدا بين علماء الحديث والسنة على مر الاعصار ، فنجد الامام عبد الحميد بن باديس رحمة الله عليه — ينبهنا فى العصر الحديث الى ضرورة اتباع هذا المنهج دون غيره لأنه العاصم من الزلات فيقول (ونحن — معشر المسلمين — قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير فى الزمان الطويل وان كنا به مؤمنين . بسط القرآن عقائد الايمان كلها

---

(٧٧) ابن الوزير اليمانى — ايثار الحق على الخلق ص٤٣ — ٤٩ — ٥٠ .
(٧٨) ابن الوزير اليمانى — ايثار الحق على الخلق ص٤٤ .

بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك ادلة سمعية لا تحصل اليقين واخذنا فى الطرائق الكلامية المعقدة واشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة) .

ويرى الامام بن باديس أن الاقيسة العقلية فى القرآن كافية للرد على المخالفين ، فقد قال تعالى (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا) ٢٥ الفرقان .

وتفسير ذلك (ولا يأتيك يا محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء المشركون وامثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه ويصورون به باطلا او اعتراضا فاسدا الا جئناك بالكلام الحق الذى يدفع باطلهم ويدحض شبهتهم وينقض اعتراضهم ويكون احسن بيانا وأكمل تفصيلا)(٧٩) .

وفى قوله تعالى (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ، ٢٥ الفرقان .

يرى فى هذه الآية نصا صريحا فى أن الجهاد فى الدعوة الى الله تعالى واحقاق الحق من الدين وابطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين وانكار الجاحدين هو بالقرآن العظيم ، ففيه بيان العقائد وادلتها ورد الشبه عنها (٨٠) .

تعقيب :

بعد دراستنا لبعض المشكلات الكلامية التى اثيرت فى العالم الاسلامى على صعيد العقيدة والفكر ، انتهت الى الاقتناع بأن طريقة القرآن الحكيم تسمو ببراهينها على كافة الطرق ، وأن منهج الاقتداء مع الوعى والفهم والتدبر يوصل الى الحق من اقصر طريق لأنه الطريق المستقيم .

وعلينا هاهنا أن نقف لنستطلع بنظرة عامة مقارنة ، ما كان عليه السلف وما طرأ على المسلمين من تغييرات — واذا اكتفينا بدليل واحد وهو

---

(٧٩) تفسير الامام عبد الحميد بن باديس جا ص٤٢١ .
(٨٠) نفس المصدر ص٤٢٩ .

الموقف من القرآن الكريم ، فما اشد المفارقة والتباين بين الصحابة وتابعيهم الذين آمنوا بأن القرآن كلام الله ، فخشعت له قلوبهم وخضعت جوارحهم لاحكامه ، فاستغرقهم التدبر فى آياته وتنفيذ احكامه ، وبين القوى التى أهدرت فى المناقشات والمحاورات والابتلاءات .

ان الموازنة بين الاتجاهين توضح لنا الآثار التى خلفها علم الكلام بحجة استخدام النظر فى الدفاع عن العقيدة الذى نشأ عن ايدى المعتزلة — والنظر فى اصطلاحهم هو الفكر الذى يطلب من قام به علما أو غلبة الظن(٨١) — وليس اليقين . فما الذى ادى اليه هذا الفكر ؟

كان الصحابة رضى اله عنهم — وهم صدور هذه الامة — يعرفون حق القرآن الكريم عليهم ، فوصفهم ابن عمر رضى اله عنهما بقوله (كان القرآن ثقيلا عليهم — أى يقدرونه حق قدره — ورزقوا علما به وعملا ، وان آخر هذه الامة يخف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبى والعجمى لا يعلمون منه شيئا) .

ومهما يكن من امر فى تفسير ظهور المشكلة وآثارها ، فانها لا شك خلفت مظاهر لا تخفى على عين قارىء التاريخ الباحث عن الحقيقة متجردا عن الهوى فقد ارتفع نصيب المناقشات الجدلية على حساب الايمان ، فنقص هذا وزاد ذاك . يقول الانصارى فى كتاب (ذم الكلام) (واوجبوا النظر فى الكلام واضطروا اليه الدين بزعمهم ، فكفروا السلف وسموا الاثبات تشبيها ... فلا يكاد يرى منهم رجلا ورعا ، ولا للشريعة معظما ولا للقرآن محترما ولا لحديث موقرا ، سلبوا التقوى ورقة القلب وبركة التعبد ووقار الخشوع) (٨٢) .

وبايجاز شديد ، تبين كيف كان الدارمى فى حكمه صادقا ومصيبا فى تعليل ما حدث بالردة ، فبعد أن كان القرآن قد أطلق العرب — بل والناس جميعا — من عقال الجاهلية ، وارتقى بهم الى آفاق حضارة رائعة فى مجال العقيدة والفكر والعلم والاخلاق بفضل الوحى الالهى لانه يفوق طور العقل الانسانى القاصر — عادوا ليصفدوا انفسهم بالاغلال .. داخل أسوار عقولهم !!

---

(٨١) فتاوى ابن تيمية جـ٥ ص٢٣٣ تحقيق مخلوف .
(٨٢) نفس المصدر ص ٣٣٠ — ٣٣٢ .

الباب الخامس

علم الكلام على مفتـــرق الطـــرق

ـ السلف والاشـــاعرة .

ـ محنة القرآن ونتائجها المنهجية .

ـ التعريف بابن كلاب .

ـ اثبات صفة العلو لله تعالى شرعا وعقلا .

ـ الامام ابو الحسن الاشعرى والمنهج السلفى

التمييز بين الاشاعرة والسلف عقيدة ومنهجـــا :

ـ صفـــات اللـــه ســـبحانه وتـــعالى .

ـ نظرية الكسب الاشعرية وتفسير أفعال الانسان .

ـ عدل الله وحكمته .

ـ نظرية الجوهر وتفسير الخلق والبعث .

ـ توافق ادلة الكتاب والسنة مع الواقع المشاهد .

ـ صعوبات أمام النظرية فى تفســـير البعث .

ظهـــور الحقيقـــة لأئمـــة الأشـــاعرة :

ـ تحول أئمة الاشعرية الى طريقة السلف .

ـ تقييم ابن تيمية لشيوخ الاشاعرة .

ـ طريقة السلف أعلم وأحكم .

السلف والاشـــاعرة :

تبين لنا مما تقدم ان علماء الحديث والسنة وقفوا طويلا امام علم الكلام نابذين اصحابه ، مبتعدين عن الخوض فيه ، ثم دخلوا الميدان حينما قويت شوكة المعتزلة ، فاضطروا اضطرارا الى مجابهتهم — لاسيما عنـــد محنة القرآن — ولكن بمنهج مخالف ، فكانت طريقتهم فى الدفاع عن اصول الدين اتباع منهج السلف اى مراعاة المعانى الصحيحة والالفاظ الشرعـــية ، والرد على من تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقا وباطلا ، ومثال ذلك ما مر بنـــا من طريقة الامام احمد فى المحنة ، فقد داب على الامتنا عمن التلفظ بالفـــاظ لم ترد بالشرع ، فلما حاول الزامه القول بالجسمية ، امتنـــع وأجاب (هو احد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد)(١) .

ورأى المحدثون بعده أن طريقة الامام ابن حنبـــل هى كفيلة وحدها بالرد على اهل السنة من المتكلمين وغيرهم ، ومن ثم فلم ينكروا جنس النظر والاســـتدلال فيما يتعلق بأصول الدين ، ولكنهم أنكروا الاصطلاحات التى اوردها اهل الكلام وخالفوا بها الاصول الشرعية ، ومنذ ذلك الحين ، يمكن التمييز بين نوعين من الكلام : احدهمـــا كما يذكر السفاريتى — هو العلم المشحون بالفلسفة والتأويل والالحاد والاباطيل وصرف الآيـــات القرآنيـــة عن معانيها الظاهرة والاخبار النبوية عن حقائقها الباهرة ، والثانى : علم السلف ومذهب الاثر وما جاء فى الذكر الحكيم وصحيح الخبر (٢) ويعنى ذلك الاستدلال بالآيات والاحاديث .

وكانت حجة علماء الحديث ان الشارع — صلى الله عليه وســـلم لم يترك شيئا من اصـــول الدين وفروعه الا وأوضحه ، فكيف تترك آثاره ويستند الى آراء غيره ؟ ومن هذه الوجهة لخص الامام احمد موقف علماء الحديث جميعا ، اذ لما سئل عن الكوابيس (٢٤٥هـ) — وهو أحد زعمـــاء

---

(١) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول مع صريح المعقول جا ص١٥٣

(٢) شرح عقيدة السفاريتى جا ص٩٤ .

المتكلمين — اجاب (انما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التى وضعوها تركوا آثار رسـول الله صلى الله عليـه وسلم واصحابه ، واقبلوا على هذه الكتب(٣) .

كذلك اكتفى علماء السنة والحديث واتباعهم بالحديث النبـوى حيث أوضـح اصول الدين أفضـل توضيح ، وبينها احسن بيـان بحيث يغنى عن الالتجاء الى غيره مصدرا او طريقا . يقول الخطيب البغدادى فى كتابـه (شرف أصحاب الحديث) : (ولو ان صاحب الراى المذموم شغل نفسه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتفى آثار الفقهاء والمحدثين ، لوجد ذلك ما يغنيه عما سـواه ، واكتفى بالاثر عن رايه الذى رآه ، لان الحديث يشتمل على معرفة اصول التوحيد ، وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد ، وصفات رب العالمين تعالى عن مقالات الملحدين ، والاخبـار عن صفات الجنة والنار ، وما اعد الله تعالى فيهمـا للمتقين والفجـار ، وما خلق الله فى الارضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الآيات ، وذكر الملائكة المقربين ، ونعت الصافين والمسبحين .

وفى الحديث قصص الانبياء ، واخبـار الزهاد والاوليـاء ومواعظ البلغاء وكلام الفقهاء وسير ملوك العرب والعجم ، واقاصيص المتقدمين من الامم ، وشرح مغازى الرسول صلى الله عليه وسـلم وسراياه ، وجمـل احكامه وقضاياه ، وخطبه وعظاته واعلامه ومعجـزاته ، وعدة ازواجه وأولاده واصهاره واصحابه ، وذكر فضائلهم ومآثرهم . وشرح اخبـارهم ومناقبهم ، ومبلغ اعمارهم ، وبيان انسابهم(٤) .

اما المنهج الكلامى المعتزلى ، فكانت ابرز معالمه — فضلا عما تقـدم من التزامهم بالاصول الخمسة — مخاصمة أهل الحديث والطعن فى الاحاديث النبوية ، اذ تحامل المعتزلة على المحدثين ، واتخذوا من الجدل اساسـا للطعن فى النصوص ، واولوا المتشـابه من آى القـرآن الكـريم تأويلا لم

(٣،٤) الخطيب البغدادى — شرف اصحاب الحديث ص٦ ، ٧ — ٨ . تحقيق د . محمد سعيد خطيب اوغلى ط دار احياء السنة النبوية — انقره ١٩٧٢م .

يفرهم اهل السلف عليه ، **وكانت مسالة الصفات الالهية من اهم مسـائل النزاع بينهما** ، حتى اصبحت علمـا مميزا بين الطائفتين — او بين المثبتين والمنافين لها ، يقول الشهرستانى (اعلم ان جماعة كبيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعـام والعـزة والعظمة ، **ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سـوقا واحدا(٥)** .

ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات ، والسلف يثبتون ، سمى السلف « صفاتية » والمعتزلة « معطلة » .

وبلغت ذروة الخلاف بين الاتجاهين عند محنـة خلق القـرآن التى عرضنا تفاصيلها فى الباب السابق ثم تفجر الموقف بعدها عن اتجـاه آخر جديد ، سنعرض له فيما يلى :

محنة خلق القرآن ونتائجها المنهجية :

كانت محنة خلق القرآن بحق — كما يرى أستاذنا الدكتور ابراهيم مدكور — نقطة تحول واضحة فى تاريخ الحياة الفكرية والعقائدية فى تاريخ المسلمين ، ذلك لأنها اثارت فى نفوس المسلمين ما أثارت من سخط وغضب ، وعززت النزعة السلفية لمواجهة تيار العقليين الغلاة (٦) .

ومنذ ذلك الوقت تميزت المواقف ازاء أصول الدين فكانت الغالبيـة العظمى من اهل الحديث والسنة فى موقف المعارضة للقول بخلق القـرآن بخاصة ونفى الصفات الالهية بعامة الذى تبناه المأمون والخليفتان من بعده وبالنظر لقانون الفعل ورد الفعل ، كان أظهر ردود الفعل على يد أحد أئمة المتكلمين المنتسبين للسنة وهو عبد الله بن سعيد بن كلاب(٧) (وفاته بعد

(٥) الشهرستانى — الملل والنحل جا ص٩٥ ط صبيح ١٣٤٧هـ .
(٦) د . ابراهيـم مدكور — فى الفلسـفة الاسلامية — منهج وتطبيق ج٢ ص١١٣ .
(٧) كخطاف لفظا ومعنى كما فى (طبقات الشافعية لابن السبكى) .

٢٤٠هـ) ، واصبح التابعون لآرائه ينسبون اليه باسم (الكلابية) .

وسار على طريقته ابو الحسن الاشعرى (٣٢٤هـ او ٣٣١هـ) الذى كان منتسبا الى المعتزلة نحو اربعين سنة ثم اعلن خروجه عليهم ونبذ عقائدهم وتبنى عقائد الامام احمد بن حنبل .

وينسب الاشعرى الى ابن كلاب لاعتناقه بعض عقائده — كما سنرى — ثم صارت الشهرة بعد ذلك لابى الحسن الاشعرى ، وصار على نهجه كبار الائمة المنتسبين اليه كالباقلانى ٤٠٢هـ والجوينى ٤٧٨ هـ والغزالى ٥٠٥هـ والشهرستانى ٥٤٨هـ والرازى ٦٠٦هـ وغيرهم .

ومنذ قيام الاشعرى والاشعرية بعده بالرد على المعتزلة ومعارضتهم ، اصبح هناك تياران يعيشان جنبا الى جنب ، كل منهما ينتهج منهجا متميزا وان كان الاثنان يرتبطان بالسنة والجماعة تميزهما عن الفرق الخارجة عن الجماعة الخوارج والشيعة والمعتزلة والقدرية والجهمية .

والمنهجان ينتسبان الى السنة ويعلنان أنهما يتمسكان بها ، ولكن المحدثين يرون أن منهجهم وحده الذى يلتزم باتباع طريقة السلف .

وكانت الضربة القاضية للمعتزلة على يد واحد كان منهم — ونعنى بذلك أبا الحسن الاشعرى ، وتاريخه الذى يعبر تعبيرا صادقا عن الازمة النفسية والاضطرابات التى لاقاها بعد أن عاش سنة على الاعتزال متتلمذا على ابى على وولده ابن هاشم الجبائى ٣٠٣ ، ٣٢١هـ ولكنه عندما عرف طريقة الامام احمد ومنهجه وعقيدة اهل السنة والجماعة التى امتحن وابتلى بسببها ، عندما عرف ذلك كان شجاعا فى التصريح بنبذه منهج المعتزلة وعقائدهم ، واخذ يؤلف كتبه للرد عليه ونقض آرائهم ، وتابعه الائمة المنتمون اليه بعده كالباقلانى والجوينى والغزالى وغيرهم .

ولم يكن طعن المنهج الاعتزالى وتأويلاته بالقهر والقسر كما فعل المأمون وخلفاؤه فى قضية خلق القرآن ، ولكن بمقارعة الحجة بالحجة ، واستخدام المنهج العقلى سواء بطريقة ابى الحسن الاشعرى واتباعه ،

أو بالمنهج الذى اصله علماء الحديث والسنة الذى درسنا فكرة عنه ، على لسان الامام احمد بن حنبل وعبد العزيز المكى وغيرهما .

ولكن الصحيح ايضا أنه قامت موجة عارمة بواسطة علماء الحديث لصد موجة الاعتزال ، ولكنها مهما اخذت شكل العنف احيانا او الالتجاء الى أولى الامر ، فانها لم تصل الى ما وصلت اليه على يد المأمون ، الذى شان (ان يجعل من تعاليمهم عقيدة رسمية . واتخذ موضوع (خلق القرآن) شعارا لذلك . وجاراه فى هذا الخليفتان التاليان المعتصم والواثق ، وقضى المسلمون ما يقرب من نصف قرن فى قلق فكرى ، وجدل متواصل ، وامتحان لبعض الائمة وقادة الراى ، لم يسلم فيه بعضهم من السجن والتعذيب والقتل(٨) .

وقد أثبت استاذنا الدكتور ابراهيم مدكور فى دراسته عن المحنة ان بطلها بلا منازع كان الامام احمد بن حنبل أبى أن يجارى الحكام فيما ذهبوا اليه ، او ان يجارى الحكام فيما ذهبوا اليه ، او ان يأخذ بالتقية فى امر يمس العقيدة ، لأنه كان يرى انه (اذا اجاب العالم تقية ، والجاهل بجهل ، فمتى يتبين الحق ؟) — ولم تسكن هذه العاصفة الا يوم أن تولى المتوكل سنة ٢٣٢ هجرية واخذ يعالج الموقف فى حذر وحكمة ، واستطاع فى عام ٢٣٧ ان يأمر بوقف هذا الصراع ، فهدأت ثائرة ، وسكنت جماهير متحركة ، وأحس انصار السلف بتأييد رسمى لهم ، الى جانب تأييد الراى العالم . ولم يلبث هؤلاء ان غلوا بدورهم فى الجمود والمحافظة غلوا ربما زاد على غلو المعتزلة ، فتطرفوا فى أرائهم ، واستمسكوا بحرفية النصوص ، وانتقلنا من غلو عقلى الى غلو آخر نقلى ، وعلى راس هؤلاء الغلاة جماعة الحنابلة الذين اصبح لهم نفوذ عظيم ببغداد فى آخريات القرن الثالث للهجرة حتى اصبح يهدد الامن والنظام ، وقد امتد بعض الوقت)(٩) .

اضف الى ذلك ان موقف الحنابلة لم يكن طارئا جديدا على مسرح الاحداث ، بل كان امتدادا لمنهج علماء الحديث والفقهاء قبلهم بزمن طويل .

(٨،٩) د . مدكور — فى الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيقه ج٢ ص١١٤ .

وكان اضطهاد المأمون لمعارضيه شاملا الحنابلة وغيرهم من ائمة السنة والحديث .

ولكننا نرى أن مهما كان نفوذ الحنابلة فى ذلك الحين ، انه لم يبلغ نفس النفوذ المفروض بالقوة الذى بداه بها المأمون واتباعه امثال بشر المريسي وابن ابى دؤاد . اضف الى ذلك انه لم يظهر دور الحنابلة المميز فى ذلك الوقت المبكر لأن الفقهاء والمحدثين واتباعهم كانوا مجتمعين **تحت** لواء واحدة ولم تظهر الفرقة بين الحنابلة والاشاعرة بشكل مؤثر الا فى عصر متأخر عندما قامت فتنة القشيرى عام ٤٦٩هـ اى بعد المحنة بما يقرب من قرنين ونصف قرن بين الحنابلة والاشاعرة .

وتخبرنا كتب التاريخ عن حوادث عارضة حيث تنازع الفريقان واتباعهم ، مثل ما حدث بين الامام ابن خزيمة واتباعه وابن كلاب واتباعه ، وكان اثبات صفات الله تعالى هو المعروف عند اهل السنة والحديث كالبخارى وابى زرعة وابى حاتم ومحمد بن يحيى الذهلى وغيرهم من العلماء الذين ادركهم ابن خزيمة وتابعهم فى العقيدة حيث استقرت على الايمان بأن الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، وانه يتكلم بالكلام الواحد مرة بعد مرة . وترتب على ذلك ان صار الناس حينذاك حزبيين ، منهم من وافق ابن خزيمة كالحاكم والسلمى والشهرستانى وابن منده ، ومنهم من وافق ابن كلاب كأبى ذر الهروى وابى بكر البيهقى (٩ب) .

ولكن صدى هذا الخلاف لم يتعد ان امر ابن خزيمة — فى رواية — ولاة الامر بتأديبهم لمخالفتهم له وكانوا من اتباعه . وفى رواية اخرى — انه هب مناقشا لآراء الكلابية (فلم يزل يصيح بتشويهها ، ولقن فى الكتاتيب ونقش فى المحاريب ، ان الله تعالى متكلم ... ان شاء الله تكلم وان شاء سكت ..)(١٠) .

وهناك حادثة ثانية كانت بمثابة فصل الخطاب فى النزاع بين الاشعرية

(٩ب) ابن تيمية — موافقة جـ٢ ص٦ — ٧ .
(١٠) نفس المصدر ص٤٢ .

والحنابلة ، ولكنها لم تخرج ايضا عن خلاف بين الفريقين واسفر — كما يذكر ابن كثير فى تاريخه — عن مقتل رجل واحد .

وتسمى هذه الحادثة **بفتنة القشيرى** ، من حوادث عام ٤٦٩هـ بسبب ان ابن القشيرى قدم بغداد فجلس يتكلم فى المدرسة النظامية واخذ يذم الحنابلة وينسبهم الى التجسيم ، وكتب الى نظام الملك يشكو/الى الله الحنابلة ويسأله المعونة عليه ، كما ارسل بعض مؤيديه الى الشريف ابن جعفر شيخ الحنابلة وهو فى مسجده للاعتداء عليه فدافع عنه اتباعه ، واقتتل الناس بسبب ذلك وقتل رجل خياط وجرح آخرون ثم انتهت الفتنة بالمصالحة بين شيوخ الطرفين ، واستدعى الخليفة ابو جعفر شيخ الحنابلة الى دار الخلافة للسلام عليه والتبرك بدعائه .

ولكن يفهم من سياق الحادثة ان البادىء هم اتباع الاشعرية لا الحنابلة ، كما يستخلص منها ايضا ان الاشعرية كانوا اقوى شوكة وانهم استندوا الى قوة الوزير فى اثارة الناس على الحنابلة . وجاء هذا على لسان شيخ الحنابلة الى الشيخ ابى اسحق (.. الا انك لما كنت فقيرا لم تظهر لنا ما فى نفسك ، فلما جاء الاعوان والسلطان .. ونظام الملك — اى الوزير — وشبعت ، ابديت ما كان مختفيا فى نفسك)(١١) .

وتضطر للتساؤل ، اين مثل هذه الحوادث بحجمها ونتائجها مع ضراوة الاساليب التى اتخذها المأمون والخليفتان من بعده ؟! .

وبغير استطراد فى سرد الوان الاضطهاد والتعذيب مما تحشده كتب التاريخ عن المحنة — حتى اصبح اللفظ مصطلحا معبرا عن محنة خلق القرآن وحدها !! — سنكتفى بالواقعة المشهورة المذهلة التى تتلخص فى اختبار اسرى المسلمين بقضية خلق القرآن ونفس رؤية الله عز وجل فى الجنة ، فان اجابوا بالايجاب فك اسرهم وان لم يفعلوا اعيدوا الى الاعداء

---

(١١) ابن كثير — البداية والنهاية جـ١٢ ص١١٥ .

مرة اخرى !!(١٢) .

قال المسعودى يصف هذه المأساة (وحضر هذا الفداء رجل يكنى ابا رملة من قبل احمد بن ابى دؤاد قاضى القضاة . يمتحن الاسارى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة وعلى الرؤية ونفى الرؤية فودى به ، واحسن اليه . ومن ابى ترك بأرض الروم . فاختار جماعة من الاسارى الرجوع الى ارض النصرانية على القول بذلك . وابى ان يسلم الانقياد الى ذلك ، فنالته محن ومهانة الى ان تخلص(١٣) .

فان ذلك المنهج لم يكن قاصرا على الحنابلة وحدهم اما عن الفكرة الشائعة عن الغلو فى التمسك بالنصوص ، وسنحاول توضيحه فى الصفحات القادمة ، عندما ندرس آراء ابن كلاب والاشعرى فى ضوء مؤلفات لعلماء الحديث والسنة تتضمن المنهج العقلى حيث برهنوا به على ان طريقة المتكلمين لم تخل من ثغرات كبيرة لا يمكن سدها الا بالتأويل الصحيح لنصوص التنزيل .

وبذلك فان وصفهم بـ (النصيين) لا ينطبق بالمعنى الحرفى عليهم ؛ واذا كانت طريقتهم مبنية على تفصيل ادلة الشرع فانهم ما فعلوا ذلك الا بناء على فهمهم لتفسيرها الصحيح ، ومعرفتهم لاساليب اللغة واسرارها وأسباب النزول ، واستدلالات الاوائل بها ، ولذلك مضى علماء السنة يستدلون بآيات القرآن والاحاديث بناء على ادراكهم العميق لها ، وامتلاكهم لنواصى منهج البحث العلمى كاملا فى قضايا امور الدين واصوله مما جعلهم فرسانا فى هذا الميدان لا يحاربهم فيه احد فلم يقتصروا على ظاهر النصوص كالظاهرية مثلا .

---

(١٢) ومع هذا يؤسفنا ان نجد باحثا جادا كالدكتور محمد عمارة فى كتاب (تيارات فى الفكر الاسلامى) يغض الطرف عن هذه الحقيقة ويقتصر وصف المحنة على ما حدث لبعض المعتزلة نتيجة خروجهم

(١٣) وقد عدد الاسرى حينذاك بأربعة آلاف وثلثمائة واثنتين وستين من ذكر وانثى وقيل اربعة آلاف وسبعة واربعين (المسعودى — التنبيه والاشراف ط القاهرة ١٣٥٧هـ ص ١٦١ — ١٦٢ .

وللتعريف بهم وبمنهجهم فى البحث العلمى ، نورد طرفا من وصف أمام الحرمين أبو الحسن الكرجى (٥٣٢) لهم ووصف قدراتهم وعلومهم وأسباب تفضيلهم على غيرهم(١٤) ، قال :

لأنهم اجمع لشرائط (القدوة والامامة من غيرهم واكثر لتحصيل أسبابها وأدواتها — مع جودة الحفظ والبصيرة ، والفطنة والمعرفة بالكتاب والسنة ، والاجماع والسند والرجال والاحوال ، ولغات العرب ومواضعها والتاريخ والناسخ والمنسوخ ، والمنقول والمعقول ، والصحيح والمدخول فى الصدق والصلابة ، وظهور الامانة والديانة ممن سواهم) . واذا فرض ولم يستكمل احدهم هذه الشرائط جميعا جبر تقصيره قرب عصره من الصحابة والتابعين لهم باحسان ،با ينوا هؤلاء بهذا المعنى من سواهم فان غيرهم من الائمة — وان كانوا فى منصب الامامة — لكن اخلوا ببعض ما اشرت اليه مجملا من شرائطها(١٥) .

اسفرت المحنة اذن عن التمييز بين منهجين معارضين للمعتزلة :

احدهما : منهج علماء الحديث المتصل بسلسلة طويلة من الائمة ،

---

(١٤) ويقصد بهم ائمة اهل السنة فى أنحاء العالم الاسلامى كالشافعى ومالك والثورى والبخارى وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك والاوزاعى والليث بن سعد واسحق بن راهويه وغيرهم .

(١٥) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٤٣ — ١٤٤ نقلا عن شيخ الحرمين ابو الحسن الكرجى (٥٣٢هـ) بكتابه (فى الاصول عن الائمة الفحول) .

ويرى الكرجى انه يلزم كل من يتبع احدا من الائمة فى الفروع ان يتبعه فى الاصول ايضا ، فانتحال مذهبه — مع مخالفته له فى العقيدة — مستنكر شرعا وطبعا . فمن قال : أنا شافعى الشرع، اشعرى الاعتقاد ، قلنا له : هذا من الاضداد ، لا بل من الارتداد !! اذ لم يكن الشافعى اشعرى الاعتقاد . ومن قال : أنا حنبلى فى الفروع معتزلى فى الاصول ، قلنا : قد ضللت اذا عن سوء السبيل فيما تزعمه ، اذ لم يكن احمد معتزلى الدين والاجتهاد !! .

بادئة بعصر الصحـــابة والتابعين ، ولكن اصبح الامام ابن حنبـــل علما له واشتهر باسمه بسبب مالاقاه وحده فى المحنة من عذاب وابتلاء ، بـ ينما كان موقفه فى الحقيقة معبرا عن طريقة العلماء من معاصريه والسابقين عليـــه السائرين على طريق السنة .

الثانى : موقف جديد معارض للمعتزلة ايضا ، ولكن استخدم طريقة علماء الكلام مع محاولة التوفيق — فى رايهم — بين المنقـــول والمعقول وقد بداه ابو الحسن الاشعرى ، موافقا مذهب السنة والحـــديث فى أصولهم العامة كاثبات صفات الله تعالى خلافا للنفاة ، واثبات القـــدر وان اعمـــال الناس وغيرهم بمشيئة الله وقدرته ، خلافا لنفاة القدر ، واثباته لفضـــائل الصحابة لاسيما الخلفاء الاربعة ، وموافقة لاهل السنة فى عقـــائدهم فى الشفاعة والصراط والميزان . كما قام بالرد على المعتزلة والشيعة والجهمية مبينا تناقضهم(١٦) .

ولما كان الاشعرى بعد رجوعه عن الاعتزال قد سلك طريقـــه ابن كلاب ، فاننا سنعرض أولا لعقيدة ابنكلاب ، قبـــل الحـــديث عن الشيخ الاشعرى لمعرفة الصلة بينهما ، لاسيما فى موقفهما من موضوع كلام اللـــه تعالى .

التعريف بابن كلاب :

تروى كتب الفرق ان ابا الحسن الاشعرى لما رجع عن الاعتزال سلك طريقة أبى محمد بن كلاب ، الذى قام مدافعـــا عن عقيـــدة اهل السنة فى مواجهـــة المعتزلة مبينا فساد قولهم بنفى علو الله تعالى ، ونفى صفاته وصنف كتبا كثيرة فى اصل التوحيد والصفات ، وبين ادلة كثيرة عقلية على فساد قول الجهمية ، وبين فيها أن علو الله على خلقـــه ، ومباينته لهم من

---

(١٦) ابن تيمية : مجموع فتـــاوى جـ٤ ص١٣ ط الرياض ١٣٨١هـ وفى موضع آخر يدافع عن الاشعرى بحرارة مقررا انه بين من تناقض اقوال المعتزلة وفســـادها ما لم يبينه غيره حتى جعلهم فى قمـــع السمسمة !! (شرح حديث النزول ص١٧٢) .

المعلوم بالفطرة والادلة العقليـــة القياسية ، كمـــا دل على ذلك الكتـــاب والسنة ، اذ كان الجهمية النفاة المعطلة للصفات فى عصره يقولون : ان الله لا يرى ولا له علم ولا قدرة وانه ليس فوق العرش رب ، ولا على السموات اله ، وان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يعـــرج به الى ربه ، وقد انصفه ابن تيمية فأقر بما كان له من فضل وعلم ودين ودافع عنه ازاء من يتهمونه بأنه ابتدع ما ابتدعه ليظهـــر دين النصـــارى فى المسلمين وراى انه كذب عليه(١٧) ، وانما افترى هذا عليه المعتزلة والجهمية الذين رد عليهم لانهم يزعمون ان من اثبت الصفات فقد قال بقول النصارى ، بينما كان ابن كلاب اقرب الى السنة من الجهمية والمعتزلة(١٨) .

ولكن وجه الخطأ فى تأويل ابن كلاب ومن وافقه ظنه انه لا يمكن رد قول الجهمية فى القرآن الا اذا قيل ان الله تعالى لم يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا كلم موسى حين اتاه ، ولا قال للملائكة اســـجدوا لآدم بعـــد ان خلقه ، ولا يغضب على احد بعد ان يكفر به ، ولا يرضى عنـــه بعد ان يطيعـــه ،

---

(١٧) شرح حديث النزول ص١٧١ .

(١٨) وبذلك طعن ابن تيمية فى الرواية التى يحكيها خصوم ابن كلاب ، وتتلخص فى الادعاء بأنه كان نصرانيا فأسلم وفارق قومه ، وكانت له اخت اكبر منه عالمة بدين النصرانية ، لها عنـــدهم قدر عظيم فهجرته حين اسلم وابعدته من المحلة ، لانها كانت راهبة للنصارى مقبولة القول عندهم ، يصدرون عن رايها فتحيل عليها كل احمد من المسلمين والنصارى من الجيران ، فى أن تمكنه من الدخول اليها فلم تفعل فاحتال حتى تسلق عليها من بعض بيوت الجيران ، فلما راته صاحت فقال لها : يا سيدتى اسمعى منى كلمة واحدة ، ثم افعلى ما بدا لك . فقالت : هات . فقال : اعلمى انى وجدت هذا الاسلام ينشر ويزداد كل يوم ظهورا ، والنصرانية تضمحل آثارها،فوضعت فصولا وعملت مسائل — ذكرها لها — اودعتها معنى النصرانية ، واسسها فى الاسلام ، وشوشت عليهم اصولهم . فلما سمعت ذلك منه طابت نفسها .

* (عبـــاس بن منصـــور السكسكى الحنبلى (متوفى ٦٨٣هـ) — البرهان فى معرفة عقائد أهل الاديان ص١٩ تحقيق خليل احمـــد ابراهيم الحاج ، دار التراث العربى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠م) .

ولا يحبه بعــد أن يتقرب اليــه بالنوافل ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام فتكون كلماته لا نهاية لها .

وكانت هذه العقيدة التى اتخذها ابن كلاب واتباعه بمثابة رد فعــل لما زعمه الجهمية بأن القرآن مخلوق ، فظنــوا ان دفع هذا القــول والرد عليه يقتضى الاعتقــاد بأن كلام الله تعــالى معنى واحد قائم بذاته ، وبذلك خالفوا سلف الامة وجمهورها القائلين بأن كلام الله بعضــه افضــل من بعض ، كما بين ذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتــابعين من غير خلاف يعرف فى ذلك عنهم(١٩) .

لذلك انكر بعض اصحاب مالك والشافعى على ابن كلاب هذا الاصل وأمر احمد بن حنبل وغيره بهجر الكلابية ، حتى هجر الحــارث المحاسبى لأنه كان صاحب ابن كلاب ، وكان قد وافقه على هذا الاصــل ، ثم روى عنه انه رجع عن ذلك ، وكان الامام احمد يحذر من الكلابية(٢٠) .

والصحيح فى راى ابن تيمية ان القرآن الكريم — وان كان كله كلام الله تعالى وكذلك التوراة والانجيل والاحاديث القدسية (أو الالهية) التى يحكيهــا الرسول صلى لاله عليه وسلم عن الله تبارك وتعــالى كقــوله (يا عبادى ، انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) — وكقوله (من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى) وأمثال ذلك ، فهى وان اشتركت فى كونها كلام الا ان بعضها افضل من بعض ، وشرح ذلك يحتاج الى بيان أن الكلام له نسبتان :

نسبة المتكلم به ، ونسبة الى المتكلم فيــه . فهو يتفــاضل باعتبــار النسبتين وباعتبار نفسه أيضا ، فان (قل هو الله احد) و (تبت يدا ابى لهب) كلاهما كلام الله تعالى ، وهما مشتركان من هذه الجهــة ، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، فالآيات الاولى كلام الله وخبره الذى يخبر به عن نفســه ، وصفته التى يصف بها نفســه ، وكلامه الذى

---

(١٩) ابن تيمية — جواب اهل العلم والايمان ص٥٢ — ٥٣ .
(٢٠) نفس المصدر ص٥٥ .

يتكلم به عن نفسه تعالى . والآيات الثانية كلام اللـــه الذى يتكلم به عن بعض خلقه ، ويخبر به ويصف به حاله ، وهما فى هذه الجهـــة متفاضـــلان بحسب تفاصيل المعنى المقصود بالكلامين(٢١) .

ولكن ، لا ينكر ابن تيمية فضل ابن كلاب عندما قام فى وجه المعتزلة مثبتا صفات الله تعالى ، ومنها صفة العلو ، وهى بايجاز تتلخص فيما يلى :

اثبات صفة العلو لله تعالى شرعا وعقلا :

نقد ابن كلاب بشدة راى المعتزلة القائل بأن الله سبحانه وتعـــالى لا هو فى العالم ولا خارج منه لأن هذا النص يتساوى مع وصف العـــدم . وعلى هذا فان دعواهم هى النفى الخالص بدعوى التوحيد الخالص ، مع انهم عقليـــون قياسيون وعرض آرائهم على العقـــل تكشف اخطـــاءهم ، وفيما يلى راى ابن كلاب بايجاز :

يستند ابن كلاب فى ايراد حجته لاثبات استواء الله على العرش الى حجج عقلية وشرعية ، فمن الحجج **العقلية** ، ان المعتزلة اذا وصفوا الله عز وجل بأنه ليس فوق ولا تحت ، فانهم بذلك يصفون العدم . وهم يعتقدون أن الله فى الامكنة كلها ، فيتساءل ابن كلاب متعجبا (وان كنتم تذهبون الى خلوه من استوائه عليها كما استوى على العرش ، فنحن لا نحتشم أن نقول استوى الله على العرش ونحتشم ان نقول استوى على الارض واستوى على الجدار ، وفى صدر البيت) .

وايضا يلزمهم بالفوقية ، لانهم يعنون بها القدرة والعزة ، وليس هذا اجابة عن سؤاله لهم ، لانهم من ناحية أخرى يصفونه بأنه ليس هو فوق وليس هو تحت ــ ويلزمهم بالتناقض ــ لأن ما كان لا تحت ولا فوق فعدم ، ويتناقضون ايضا بقولهم هو تحت وهو فوق ، فساووا بين الجهتين ، وهذا تناقض .

---

(٢١) ابن تيمية : جواب أهل العلم والايمان ص٥٧ .

أما التفسير فهو فى جانب اثبات صفة العلو لله تعالى ، فاذا تعمقنا فى غور الفطرة الانسانية ، لوجدنا من المفروض فيها معرفة ربها فى السماء ، ومعارف الآدميين هنا لا شىء ابين منه ولا اوكد ، فلا تسأل احدا من الناس عربيـــا ولا عجميـــا ولا مؤمنـــا ولا وكافرا — اين ربك ؟ لأجاب بأنه فى السماء ، ولا رأينا احدا اذا دعا الا رافعا يديه الى السماء ، فكيف يضـــل الناس جميعا ويهتدى جهم واتباعه ، ويدعون انهم افضل الناس كلهم ؟ !!

ويضيف ابن كلاب الى ذلك الدليل الشرعى فى الحـــديث النبوى عن سؤال الرسول صلى الله عليـــه وسلم جارية (اين الله) ؟ فأجابت (فى السماء) ، فأجاز اجابتها الرسول ، وانه صواب ، ومن اجله شهد لهـــا بالايمـــان(٢٢) .

وبعد فان وقوف ابن كلاب فى وجه المعتزلة واثباته للصفات الالهيـــة كان بمثابة تمهيد لآراء ابى الحسن الاشعرى بعده ، ولهذا عده صـــاحب (الفهرست) من الكلابية(٢٣) .

ويرى الاشاعرة بعامة — حينما يذكر ابن عساكر المتكلم بلسانهم — فى ظهور آراء امامهم ابى الحسن الاشعرى حسما للمشاكل الكلامية المثاره حينذاك على مسرح الفكر الاسلامى من الوجهين المنهجى والموضوعى ، فقد استطاع منهجيا استخدام نفس اسلوب المعتزلة لدحض آرائهم مستخدما المنهج الكلامى الجدلى ، كما استطاع موضوعيا ايجاد الحلول للمســـائل المتنازع عليها بين طائفتى أهل الحديث والسنة والمعتزلة ، واهمها الصفات الالهية والقدر ورؤية الله عز وجل فى الآخرة . يقول حمودة غراب (وعلى يديه وحده تمت هزيمة المعتزلة بعـــد ان نازلهم بنفس ســـلاحهم وناقشهم

---

(٢٢) ابن تيمية — مجموع فتاوى جـ٥ ص٣١٨ — ٣٢٠ . ط السعودية

(٢٣) ابن النديم : الفهرست ص١٨١ ط فلوجل ليبك ١٨٧١م .

بأسلوب يعتمد على العقل والمنطق(٢٤) .

ويقرر ابن عساكر أن الاشعرى لم يكن أول من تكلم بلسان أهل السنة ، ولكنه جرى على سنة غيره ، مناصرا المذهب فزاد حجة وبيانا (ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهبا انفرد به .. وليس له فى المذاهب أكثر من بسطه وشرحه وتأليفه فى نصرته(٢٥) .

وسنعرض فيما يلى لأهم القضايا الكلامية من وجهة نظر الامام الاشعرى ، ثم نتبعها بآراء شيخ الاسلام ابن تيمية باعتباره ممثلا للمذهب السلفى ومدافعا عنه .

الامام ابو الحسن الاشعرى والمنهج السلفى :

هو أبو الحسن على بن اسماعيل أبى بشر الاشعرى ، من أهل البصرة ، وكان معتزلى النشأة والعقيدة ، ثم رجع عن القول بآرائهم . واعلن فى المسجد الجامع بالبصرة فى يوم الجمعة مناديا بأعلى صوته (من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه نفسى .. أنا فلان بن فلان .. كنت اقول بخلق القرآن ، وأن الله لا يرى بالابصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع)(٢٦) .

ولن نخوض فى الدراسة التفصيلية لآراء الاشعرى وأئمة المذهب

(٢٤) د . حمود غراب : ابو الحسن الاشعرى ص٥٩ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٣هـ — ١٣٧٣م .

(٢٥) ابن عساكر — تبين كذب المفترى على الامام ابى الحسن الاشعرى ص١١٨ .

(٢٦) ابن النديم — الفهرست ص١٨١ ليبسك ١٨٧١م تحقيق فلوجل وكان الاشعرى شديد المعارضة للمعتزلة بعد خروجه عن صفوفهم ومن مظاهر ذلك أنه كتب مدللا على كفر النظام — فروى البغدادى فى كتابه (الفرق بين الفرق) ذلك بقوله (ولشيخنا أبى الحسن الاشعرى رحمه الله فى تكفير النظام ثلاثة كتب) ص١٣٣ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط مكتبة محمد على صبيح بالازهر .

بعده ، فان المؤلفات العديدة قديما وحديثا قد كفتنا مؤونة ذلك ، ولكننـــا سنشغل أنفسنا ببيـــان اهم الموضـــوعات التى كانت مثار مناقشـــة بين الاتجاهين البارزين فى دائرة علم الكلام عبر قرون طويلة ممتدة حتى عصرنا الحاضر ، وهو السبيل لتوضيح المنهـــج عنـــد كل منهمـــا ــ ونعنى بذلك الاتجاهين :

المذهب الاشعرى بامامة ابى الحسن الاشـــعرى ، والسلفى بامامة شيخ الاســـلام ابن تيمية ، وبالرغم من انهما ليسا متعـــاصرين ، الا أنهما استأثرا بجذب علماء المسلمين وعامتهم منهجيـــا وعقـــائديا ، ولكن الفرق بينهما أن الاول كما قلنا نشأ فى بيئة الفكر الاعتزالى ثم خرج عليه مفضـــلا التأويل فى اغلب آرائه ــ ثم روى انه رجع فى نهاية حياته الى اعتناق مذهب الامام احمد بن حنبل ــ ولكن الثانى ، اى ابن تيمية ، وان عاش فى العصور المتأخرة ــ خلال القرن السابع ــ الثامن الهجرى (مولده ٦٦١هـ ووفاته ٧٢٨هـ) ، الا انه استمسك بمنهج الاوائل منذ الصحابة والتابعين ــ فضلا عن ادلة الكتاب والسنة ــ مدافعا عن الاسلام بعـــامة واصوله بخاصـــة بأسلوب الحجاج العقلى ، مؤكدا اتفاق الادلة العقلية مع الادلة الشرعية ، وظهر اثره الايجابى فى كثير من رجال الفكر والدعوة فى العصر الحـــديث كمحمد بن عبد الوهاب والافغانى ومحمد عبده وابن باديس ومحمـــد اقبال وغيرهم .

أما منهج الاشعرى ، فقد كان نتاجا للنزاع العميـــق الذى تفجـــر بين المعتزلة وعلماء الحديث والسنة فى عصره ، وبدا محاولاته الجدلية الكلامية بعد انفصاله عن صفوف المعتزلة ، وكان يظن بحكم ثقافته ونشأته وتكوينه بافتراق طريقى العقل والنقل ، وان دوره يقتضى الجمـــع بينهمـــا ، وكان حريصا على الارتباط بأهل السنة والحديث فى شخص امامهم احمد بن حنبل ولذلك ذيل مقالتهم فى كتابه (مقالات الاسلاميين) بقوله (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقـــول ، واليـــه نذهب ، وما توفيقنـــا الا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، واليه المصير)(٢٧) .

---

(٢٧) مقالات الاسلاميين جـ٢ ص ٣٢٥ .

وظل المذهب الاشعرى ينتقــل من طور الى آخر بواسطة شــيوخ المدرسة ، كالباقلانى والجوينى والشهرستانى والغزالى والامدى والرازى : ومازال يلقى قبولا وتأييدا لدى الغالبية العظمى من المسلمين ، فلسنا بازاء قضايا تاريخية انقطعت صلتنا بها ، بل مازالت تلقى اهتماما فى دوائر الفكر الاسلامى المعاصر ايضا . ويقابلها الاتجاه السلفى المتصل بابن تيمية .

ويقول الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق :

(اما النهضة الحديثة لعلم الكلام تقوم على نوع من التنافس بين مذهب الاشعرية ومذهب ابن تيمية .

وانا لنشهد تسابقا فى نشر كتب الاشعرية وكتب ابن تيمية وتلميــذه ابن القيم ، ويسمى انصار هذا المذهب الاخير انفسهم بالسلفية ، ولعــل الغلبة فى بلاد الاسلام لا تزال الى اليوم لمذاهب الاشاعرة)(٢٨) .

ومع تقديرنا البالغ لعلمائنا الذين بذلوا الجهد الكبير وافنوا اعمارهم فى خدمة الاسلام عقيــدة وشريعــة ، ورغبتنــا فى التوحيد والتآلف بين الصفوف ، نرى ان اسهامنا فى توضيح مذهب اهل السنة والحديث — وابن تيمية واحد من ابرزهم — يعبر عن اقتناع بتفضيل منهج السلف لاتصــاله الوثيق بالقرآن والكشف عن الطرق العقلية بهما ، وهما لا شك باقيان ابدا ، وينبغى ان يكونا دائما جامعين للمسلمين .

ولعل الدور الذى قام به شيخ الاسلام ابن تيمية يوضح اكثر من الامام الاشعرى التقاء المعقــول ، بل التحامهما ، وذلك بسبب بيئته الثقافيــة وتكوينه العلمى ومواهبه الذهنية والقضايا المثارة فى عصره . فقد عاش فى زمن انقسمت فيه الفــرق الاسلامية انقســاما كبيرا وتضخمت المشكلات

---

(٢٨) الشيخ مصطفى عبد الرازق — تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص٢٩٥ ط لجنة التأليف والترجمــة والنشر بالقاهرة ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤م .

الكلامية والفلسفية ، وتوقفت الاجتهادات الفقهية فشاع التقليد والتعصب للمذهبية الضيقة ، كذلك عانى المسلمون الامرين بسبب آثار حروب طاحنة متوالية بسبب الحروب الصليبية وغزوات التتار ، فتنبه الشيخ السلفى الى صلة العقيدة بالواقع الثقافى والاجتماعى والسياسى ، بل ارجع هذه الحروب الى تراخى العلاقة بين المسلمين وعقيدتهم ، وبسبب تفرقهم وتنازعهم .

وكان نفوذ الاشعرية هو السائد آنذاك ، فأثاروا مع ابن تيمية عدة مناقشات تتعلق بأصول الدين ، واجتاز بسببها المحن تلو المحن ، وكانت دوافعه تنبيه المسلمين الى منهج السلف ، بعد ان قام بدراسة نتاج شيوخ الاشاعرة ، وهاله ان يجد اختلاط الكلام بالفلسفة اليونانية ، واستخدام الحدود والاقيسة المنطقية الارسططالية ، فوقف ابن تيمية ليدافع بشــدة عن قضية موافقة الشرع للعقل ، ولم يدع لنفسه تجديدا — مع انه كذلك — وعكف على قراءة واستيعاب مئات المؤلفات لعلماء الحــديث والسنة قبله ، واخــذ يدعم منهجهم ويشرحه لمعــاصريه ، مستخدما اصطلاحات المتكلمين والفلاسفة أيضا ، معالجا لكافة القضايا المثارة ، فاهما بعمــق للمنهج السلفى ومدافعا عنه بكافة الاساليب المتاحة ، فضــلا عن ابرازه لأحد سمات الاسلام البارزة بشموله وسعة دائرته لامور الدين والدنيــا ، ولا بأس هنا من الاشارة بصفة عاجلة لاهم القواعد التى استند اليها ، قبل أن ننتقل لعرض منهجه بالتفصيل ، وهى :

أولا — أن ان اصول الدين وفروعه قد بينها الرسول صلى الله عليه وســلم .

ثانيا — اصحاب القرون الاولى هم الافضل مستندا الى قول الله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحســان) التوبة ١٠٠ ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (خير القــرون الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ، وتفســير ذلك انه رضى عن السابقين مطلقا ورضى عمن اتبعهم باحسان ، وذلك متناول لكل من اتبعهم الى يوم القيامة(٢٩) .

---

(٢٩) النبوات ص١٦١

ثالثا — ان الاولى استخدام طرق القرآن فى الحجـــاج والجـــدل ، والتعبير عن حقائق الايمان بكلمات القرآن افضل ، سيما انه اراد اساليب الرسل فى مناقشة الامم الذين بعثوا اليهم(٣٠) ، والامثلة كثيرة : منهـــا ان الله تعالى قد اخبر عن قوم نوح وابراهيم ومجادلتهما للكافرين (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنـــا) هود ٣٢ وعن قوم ابراهيم (وحاجة قومه — الى قوله — وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) الانعام ٨٠ كما فصل محاجة ابراهيم عليه السلام للنمروز . وايضا فان الدارس للقرآن المتدبر لآياته يلتقى مع مناظرات متعددة للكفار والاحتجاج عليهم بالادلة العقليـــة الكافيـــة الشافية ، وان الله تعالى امر بالجـــدل بالتى هى احسن فقـــال (ولا تجـــادلوا اهل الكتـــاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم) العنكبوت ٤٦ وقال سبحانه (وجادلهم بالتى هى احسن) النحل ١٢٥ .

رابعا — ان آيات الله السمعية والعقلية والعيانية كلها متوافقـــة . فلا تعارض اذن بين ادلة الشرع وادلة العقل(٣١) .

وربما كان اكثر ما اثار شيخ الاسلام ان تيمية هو اعتبار المنهج الذى اختطتـــه الاشـــاعرة لانفســـهم افضـــل من منهـــج السلف ، فاعتبروا طريقـــة السلف اسلم وطريقتهم هم أعلم واحكم ، ولا شك ان مثـــل هذا الشعار يؤدى الى تفضيل الخلف على السلف فى العلم والبيان والتحقيق والعـــرفان ، ويصف السلف بالنقص فى ذلك والتقصير فيـــه ، أو الخطـــأ والجهل ، ويؤدى الى الزعم ايضا بأن (اهل القرون المفضولة فى الشريعة أعلم وافضل من اهل القرون الفاضلة)(٣٢) .

لذلك بذل ابن تيمية المحاولات تلو الاخرى فى كتبه ومناقشاته لاثبات ان السلف كانوا اهل نظـــر ودراية الى جانب كونهم اهل نقـــل ورواية ، وانهم آثروا عدم تضييع جهودهم وأوقاتهم فى محاولات عقيمة ، اذ رأوا فى كتـــاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليـــه وسلم ، وأقاموا البنـــاء

---

(٣٠) نفس المصدر ص١٥٧ .
(٣١) ن . م . ص٣٠٣ .
(٣٢) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٢٨ .

كاملا فى العقيدة والشريعة والعبادات والنظم والاخلاق جميعا ، فاذا أرادت الامة أن تأخذ بزمام أمورها من جديد بين الامم ، فعليها باتباع طريقتهم ؛ وهذا معنى قول عبد الله بن مسعود (من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات ، فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كانوا أبر هذه الامة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفــا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينــه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهــدى المستقيم) ويمضى الشيخ فى شرح ذلك فيصف الصحابة بالمقارنة بغيرهم بأنهم كانوا أقل الناس تكلفا ، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ، ما يهدى الله بها أمة ؛ وهذا من منن الله على هذه الامة ، ونجــد غيرهم يحشــون الاوراق من التكلفات الشطحات(٣٣) .

ونرى ابن تيمية محقا فى نظرته . واذا كان المجال هنــا غير مناسب للكشف عندرايته العميقة بأصول التفسير التاريخى ، أو ما يسمى بفلسفة التاريخ ، الا أنه كثيرا ما كان يعالج فى مؤلفاته أسباب هزائم المسلمين وطمع أعدائهم فيهم ويعللها بسبب التفرق والاختلاف ، وقد أصــاب فى تفسيره اذ شغلوا أنفسهم بالبحث فى حقائق توقيفية مصدرها الوحى ، فانصرفوا عن العمل والتنفيذ ، وكان بوسعهم المضى قدما فى مجالات العلوم والمعارف النافعة ، وكان لعلمائهم جهود لا تنكر فى هذه الميادين كما أسفرت عنــه الدراسات الحديثة المصنفة .

والآن ، نتسائل : هل وفق الاشاعرة فى التمييز عن أئمة السلف عقيدة ومنهجا ؟(٣٤) .

---

(٣٣) نفس المصدر ص١١٣ — ١١٤

(٣٤) سبقنا الى طرق هذا البحث أستاذنا الدكتور محمد على أبو ريان بكتابه (تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام) ، وانتهى الى أن البون شاسع بين موقف السلف ومذهب الاشاعرة من حيث أنه لم يثبت أن السلف قد استخدموا الكلام فى شرح العقيــدة ، أو مالوا الى التأويل فى تفسيرها ص٢٢٣ .

مع العلم بأن السلف يرون أن هنــــاك نوعين من الكلام : مذموم وممدوح ، وقد نقدوا الاول واستخدموا الثانى كما بينا .

تقتضى الاجابة دراسات متشعبة يضيق عنها نطاق هذا الكتاب مما اضطرنا الى اختيار بعض القضايا التى دار حولها النقاش لكى نعرف بالمقارنة مدى التمايز بين المنهجين ، وهى كما يلى :

أولا — صفات الله سبحانه وتعالى :

فرق الاشاعرة بعامة بين صفات الذات وصفات الافعال الالهية قال الامدى (مذهب اهل الحق : ان الواجب بذاته مريد بارادة ، عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، وهذه كلها معان وجودية ازلية زائدة على الذات)(٣٥) .

وقد تعرض هذا الموقف للنقد بواسطة شيخ الاسلام ابن تيمية لأنهم اقتصروا على هذه الصفات وحدها ، مؤكدا أن الكتاب تضمن الاسماء والصفات التامة الكاملة لله سبحانه وتعالى ، مثل قوله سبحانه (والهكم اله واحد) ، وقوله عز وجل (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقال تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم) وقوله (وعنت الوجوه للحى القيوم) .

ومما يدل على دقة الشيخ فى النقد انه مع اقراره بالمعنى الصحيح لصفتى **مريد ومتكلم** الا انه باحصاء الآيات القرآنية يتبين أن هذين الاسمين لم يردوا فى القرآن الكريم ولا فى الاسماء الحسنى المعروفة ، ولكن معناهما حق .

ويقرر ابن تيمية أن صفات الله عز وجل ثابتة بالشرع والعقل ، ويعجب من موقف الاشاعرة وغيرهم من الصفاتية الذين اثبتوا الصفات السبع لأنها عندهم قد دل عليها العقل ، ويرى أن وجه القصور فى هذا المنهج يرجع الى انهم لم ينتبهوا الى أن هناك من الاسماء والصفات المقدسة

---

(٣٥) سيف الدين الامدى (٥٥١ — ٦٣١ﻫ) — غاية المرام فى علم الكلام تحقيق د . حسن عبد اللطيف ص٣٨ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٣٩١ﻫ — ١٩٧١م .

ما هو ثابت بالشرع — ولكن يلـــزم من عدم الدليـــل المعين عـــدم المدلول فلا يلزم نفى ما سوى هذه الصفات اذ ان السمع قد اثبت صفات اخرى . واستطرد مثبتا الاسماء والصفات التى تدل على الرحمة والمحبة وغيرهما . ثم ميز بين نوعى الفعل : المتعدى واللازم ، واتخذ من آيات الله تعـــالى أدلة على الجمع بين صفات الافعـــال بمثل قوله سبحانه (هو الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ، واخذ فى تدبر الآيات الاخرى واحصائها مثبتا ان هذا الاصل ورد فى القـــرآن فى اكثر من مائة موضع(٣٦) .

كذلك لا يرى سببا يدعو الى انكار صفات الافعال مستندا الى دليل عقلى مقتضاه (ان دلالة السمع على علم الله تعالى وقدرته وارادته وسمعه وبصره ، كدلالته على رضاه ومحبته وغضبه واستوائه على عرشه ونحـو ذلك) .

ويصبح التساؤل هنـــا فى موضعه تماما ، اذ اين الصفات السبعة التى اقتصر عليها الاشاعرة من الاسماء والصفات التى اثبتها الله تعـــالى لنفســـه ؟! لقد اخبرنا فى كتابه انه حى ، قيـــوم ، حكيم ، غفور ، رحيم ، سميع ، بصير ، عظيم ، خلق السموات والارض وما بينهما فى ســـتة أيام ثم استوى على العرش ، وكلم موسى ، وتجلى للجبل فجعله دكا ، يرضى عن المؤمنين ، ويغضب عـــلى الكافرين ، الى امثـــال ذلك من الاســـماء والصفات .

هذا من حيث اثبات الصفات والافعال .

اما من حيث النفى ، فان اللـــه تعالى يصف نفسه بانه (ليس كمثله شىء) (ولم يكن له كفـــوا احد) (هل تعلم له سميا) ؟ (فلا تجعلوا للـــه اندادا) فنفى بذلك ان تكون صفاته كصفات المخلوقين .

وبعد هذه المقارنة التى عقدها الشيخ ، لفت نظرة اختلاف طريقـــة

---

(٣٦) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٣ — ٤ ، ٨ ، ٢٣ .

الانبياء والرسل وطريقة المتكلمين فى التحدث عن صفات الله تعالى وبيانها : فان القارىء للقرآن يتضح له أن الله سبحانه وتعالى بعث انبياءه ورسله باثبات مفصل لاسمائه وصفاته . ونفى مجمل لها اى نفوا عنه مماثله المخلوقات كقوله تعالى (ليس كمثله شىء) . ولكن جاء النظار (اى اهل النظر من المتكلمين النفاة والفلاسفة وغيرهم) فعكسوا القضية فجاءوا بنفى مفصل واثبات مجمل ، اى يقولون (ليس كذا .. ليس كذا) . والقارىء الذى يراجع هذا الحكم يجده صحيحا تماما ، وخير شاهد على ذلك عقيدة المعتزلة فى صفات الله تعالى(٣٩) .

أما الرسل صلوات الله عليهم ، فطريقتهم طريقة القرآن ، وطريقة القرآن النفى المجمل والاثبات المفصل ، وقد رد الله تعالى على كل المخالفين لهذه الطريقة بقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(٣٨) .

ويلح ابن تيمية دائما فى مؤلفاته على قاعدة اصلية يجب الاستناد اليها فى توضيح اصول الدين ، وهى أن الاولى بيان الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مستخدما الاقيسة العقلية والامثال المضروبة ، لانها طريقة الكتاب والسنة وسلف الامة .

والآيات القرآنية كثيرة تدل على ضرب الامثال كما قال تعالى (ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا) ، كما بين سبحانه بالبراهين العقلية توحيده وصدق رسله والبعث وغيرها من قضايا اصول الدين مجيبا بها على معارضة المشركين ، اذ لما سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن احياء الموتى ضرب له المثل باحياء النبات كما فى سورة (يس) وغيرها .

---

(٣٧) ينظر مقالات الاسلاميين جا ص٢٣٥ — ٢٣٦ وكلها تتضمن النفى فى وصف الله تعالى .

(٣٨) ابن تيمية — اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم ص٤٦٦ — ٤٦٧ .

والاحاديث مملوءة ايضا بذكر صفات الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما منكم من احد الا سيخلو به ربه ، كما يخلوا احدكم بالقمر ليلة البدر) ، فسأله ابو زين العقيلى : كيف يا رسول الله وهو ونحن كثير ؟! فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم ضاربا المثل ، قال (سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله ، هذا القمر من آيات الله كلكم يراه مخليا به ، فالله أعظم) .

ولكن التشبيه هنا تشبيه للرؤية لا للمرئى بالمرئى !! فان الله تعالى ليس كمثله شىء .

وكانت طريقة الصحابة ايضا ، فقد روى عن ابن عباس انه لما اخبر بالرؤية عارضه السائل بقوله (لا تدركه الابصار) ، فقال له (ألست ترى السماء ؟) فقال : بلى فسأله مرة ثانية : اتراها كلها ؟ اجاب : لا ، وبهذا بين ابن عباس للسائل أن نفى الادراك لا يقتضى نفى الرؤية(٤٠) .

ومضى ائمة الحديث والسنة على نفس الطريقة ، اذ عندما اثيرت صفات الله تعالى ايام المحنة ، ومنها صفة العلو لله عز وجل ، بين الامام أحمد دلالة القرآن على علوه تعالى واستوائه على عرشه ، وانه مع ذلك عالم بكل شىء ، كما دل على ذلك قوله تعالى (هو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم اينما كنتم والله بما تعملون بصير) ٥٧ — ٤ ، وفسر الامام ابن حنبل المراد بذكر المعية فى الآية انه عالم بهم ، وكما افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ، وانه سبحانه بين انه مع علو على العرش يعلم ما الخلق عاملون ، كما فى حديث العباس بن عبد المطلب الذى رواه ابو داود وغيره ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيه (والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه) .

---

(٤٠) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول جا ص١٤٢ ، ص١٥٢ .

وقد شرح الامام احمد هذا الحديث بالقياس العقلى وضرب مثلين ، ولله المثل الاعلى ، فقال (لو ان رجلا فى يده قوارير فيها ماء صاف ، لكان بصره قد احاط بما فيها ، مع مباينته له ، فالله — وله المثل الاعلى — قد احاط بصره بخلقه ، وهو مستو على عرشه) . والمثال الثانى : لو ان رجلا بنى دارا لكان مع خروجه عنها ، يعلم ما فيها ، فالله الذى خلق العالم يعلمه مع علـوه عليـه ، كمـا قال تعـالى (الا يعلم من خلـق وهو اللطيف الخبير) ؟ ٦٧ — ١٤ (٤١) .

ثانيا — نظرية الكسب الاشعرية وتفسير افعال الانسان :

نشأ الاشعرى كما علمنا فى بيئة الاعتزال ، ومن اصـولهم العـدل ومؤداه ان العدل الالهى فى رايهم يقتضى ان الله سـبحانه وتعالى لم يخلق افعال العباد ، فالارادة الانسانية حرة ، والانسان نفسه هو خالق افعاله ، ومن ثم يستحق الثواب والعقاب(٤٢) وكان موقفهم هذا بمثابة رد فعـل للجبرية القائلين بعدم قدرة العبد على احداث الفعل .

ومن هنا وصف المعتزلة انفسهم بأنهم أهل العدل ، لأنهم يهـدفون باثبات الفعل للانسان ، نفى الظلم عن الله سبحانه التى تتجه أفعاله نحو قصد وغاية ، وتتفق مع ما يقتضيه العقـل من التمييز بين الحسن والقبيح والخير والشر ، ، فأجمعوا — كما يذكر الشهرستانى على ان العبد قادر على الافعال خيرها وشرها ، مستحق على كل ما يفعله ثوابا وعقـابا فى الدار الآخرة والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية(٤٣) .

واستدل المعتزلة ببعض الآيات القرآنية التى تثبت نفى الظلم والشر والقبح عن الله سبحانه وتعالى ، مثل قوله (وما الله يريد ظلما للعبـاد) وقوله (وما انا بظلام للعبيد) وقوله (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء

---

(٤١) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول جا ص١٤٣ .
(٤٢) د . ابو ريان — تاريخ الفكر ص١٦٧ .
(٤٣) الشهرستانى — الملل والنحل جا ص٣٦ — ٤٠ ط بدران .

ذى القــربى وينهى عن الفحشـــاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وغيرها من الآيات الدالة عــلى ان اللـــه لم يجبر احد على الخير او الشر او الحسن او القبيح ، بل ترك لكل انسان حرية الاختيار فيما يفعل(٤٤) .

ثم جاء الاشعرى فاختط طريقــا وسطا بين فــكرة المعتزلة ورأى الجبرية ، فأثبت الحرية الالهية الغير خاضعة للمعيـــار الانسانى ، فليس لأحد ان يوجب عليه سبحانه فعل الصلاح او الاصلح لعباده ، كمـــا اراد اثبات حرية الانسان وقدرته على الفعل فميز فى الانسان بين حركات الرعدة والرعشة ، وبين حركات الاختيار والارادة ، الذى يجد الانسان فى نفسه تمييزا واضحا بينهما ، فالتفرقة راجعة الى ان الحركات الاختيارية حاصلة تحت القدرة ، متوقفة على اختيار القادر ، ويسمى هذا الفعـــل « كسبا » فيكون خلقا من الله تعالى ، ابداعا واحداثا وكسبا من العبد ، حصولا تحت قدرته(٤٥) .

فاذا عدنا للنظرية الجبرية عن الفعـــل الانسانى ، لما وجدناها تختلف عن فكرة الكسب الاشعرية ، فالجبرية ينفون الفعل حقيقة عن العبد ويضفونه الى الله تعالى ، ولا يختلف ذلك فى جوهره عن قول ابى الحسن الاشعرى أن الفعل الحاصل اذا اراده العبد وتجرد له سمى هذا الفعل كسبا ، فيكون

---

(٤٤) يذكر الاشعرى المقالات المختلفة فى فكرة (الكسب) فيقــول : عنــد المعتزلة الانســـان فاعل محــدث ومخترع ومنشىء عـــلى الحقيقة دون المجاز . وكثير من أهل الاثبات يقولون : ان الانسان فاعل فى الحقيقة بمعنى مكتسب ويمنعون أنه محدث . مقـــالات الاسلاميين ج٢ ص٢١٩ .
ثم يذكر رأيه (والحق عندى أن معنى الاكتساب هو ان يقـــع الشىء بقدرة محدثة ، فيكون كسبا لمن وقع بقدرته) (نفس المصدر ص٢٢١) .
والحق أن مؤدى الفكرة يتفق مع الجبرية المحضة بطريقة غير مباشرة ،
(٤٥) الملل والنحل ج١ ص٨٨ — ٨٩ .

خلقا من الله تعالى — وابداعا واحداثا — وكسبا من العبد — حصولا تحت قدرته(٤٦) .

وربما احس الشهرستانى نفسه — باعتباره اشعريا — بهذا المازق ، فتراه عرضه للمذهب الجبرى، يفرق بين ما سماه بالجبرية الخالصة التى لاتثبتللعبد فعلا او قدرة على الفعل اصلا،والجبرية التىيسميهاالمتوسطة — وهى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة ، ثم اضطر الى اصطناع موقف الدفاع عن فكرة الكسب فقال (فأما من اثبت للقدرة الحادثة اثرا ما فى الفعـــل ، وسمى ذلك كسبا ، فليس بجبرى)(٤٧) .

ولم يكن ابن تيمية متعسفا ازاء الاشعرى ، عندما اظهر تناقضه بين الجبريين والقدريين . وهذا يفضى بنا الى بيان النقد التفصيلى الذى يوجهه شيخ الاسلام الى فكرة الكسب الاشعرية . ونقطة البداية فى شرح المسألة أنه ينبغى التمييز فى الارادة الالهية بين نوعين : ارادة تتعلق بالامر المتضمنة للمحبة والرضا وهى الارادة الدينية ، وارادة تتعلق بالخلق وهى المشيئة ، أى الارادة الكونية القدرية(٤٨) لاثبات ان كل الافعال خاضعة لقدرة اللــه تعالى ، فى مثل قوله (الذى احسن كل شىء خلقه وبدا خلق الانســـان من طين) وقوله عز وجل (صنع الله الذى أتقن كل شىء) ، فاذا نظرنا الى افعال العباد من الطاعات لوجدناها موافقة **للامر الالهى** ، لا موافقة **للارادة الالهية** وذلك لينفى تلك الجبرية ، لأن الطاعة والمعصية باختيار العبد

وينتقل الى نقطة اخرى ، فيؤكد ان الله سبحانه وتعالى خالق افعال العباد بارادته ، ولكنه لم يأمر بالكفر والفسوق والعصيان ، كمـــا لا يحب

---

(٤٦) ن . م . الصفحة (٨٩) .
وينظر ايضا نشأة الفكر للدكتور النشار ص٧٨ حيث يحكم على هذا المذهب بأنه جبرى خالص ط مكتبة النهضة لسنة ١٩٥٤م

(٤٧) ن . م . ص٧٩ .

(٤٨) ابن تيمية — منهاج ج٢ ص٢٨ — ٢٩ .
واستند ابن تيمية الى قواعد اللغة العربيـــة فى شرح وبيان ما قد يغمض ماعلى البعض فهمه فى هذه الفكرة .

الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، وهذا ما فهمه السلف الصالح ، كقول أبى بكر وعمر وابن مسعود رضى الله عنهم (اقول برايى فان يكن صوابا فمن الله ، وان يكون خطأ فمنى ومن الشيطان)(٤٩) — ففهموا — اى السلف جميعا — ان الشر مخلوق لحكمة ، ولكنه لا ينسب الى الله تعالى مفردا ، ولكن اما يدخل فى العموم كقوله تعالى (خالق كل شىء) او يضاف الى السبب (قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق) ، او يحذف فاعله كقوله فيما حكاه عن الجن (وانا لا ندرى اشر اريد بمن فى الارض أم اراد بهم ربهم رشدا) .

يشرح ابن تيمية ضمن ابحاثه اللغوية التى يستقيها من البخارى فى (خلق افعال العباد) ، لكى يؤكد أنه لا تقوم بالله سبحانه وتعالى افعال العباد ولا يتصف بها ولا تعود اليه احكامها ، ولهذا قال اكثر المثبتة للقدر بأن افعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وهى فعل العبد ، فاذا قيل هى فعل الله ، فالمراد انها مفعولة له لا انها هى الفعل الذى هو مسمى المصدر ، واكثر الائمة يفرقون بين الخلق والمخلوق(٥٠) والمسلمون جميعا ينزهون الله تعالى عن الظلم ، فليس كل ما كان ظلما من العبد يكون ظلما من الرب ، ولا ما كان قبيحا من العبد يكون قبيحا من الرب ، فان الله ليس كمثله شىء ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

ويعتمد شيخ الاسلام فى نفى الظلم عن الله تعالى على دليل عقلى ، لأن من قوانين الفطرة الانسانية الا يعتبر الانسان مقابلة الظالم على ظلمه بمثابة الظلم له ، فالله تعالى أولى أن لا ينسب الى الظلم ، فاذا اخذ الله العبد بما فعله ، فلا يتم باختياره . ولكن مورد خطأ المعتزلة ونفاة القدر بعامة ، أنهم قاسوا افعال الله على افعال خلقه ، وعدله على عدلهم ، وهو قياس ظاهر الفساد — وسنعود لشرح رايه من عدل الله وحكمته . وعلى النقيض من ذلك غلاة المثبتة للقدر اى الجبرية ، الذين سلبوا العبد قدرته ، زاعمين أن حركته كحركة الاشجار بالريح ، واشد الطوائف اقترابا منهم — فى راى ابن تيمية — الاشعرى ومن وافقه ، اذ يظهر اضطرابه بين اثباته للعبد

(٤٩) منهاج ج٢ ص٢٥ .
(٥٠) نفس المصدر ص٢٦ .

قدرة محدثة واختيارا ، وان الفعل كسب للعبد ، وبين نفيه لتأثير قدرة العبد فى ايجاد المقدور ، فخالف بذلك قول **اهل الاثبات** ، بأن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وله قدرة واختيار ، وقدرته مؤثرة فى مقدورها ، كما تؤثر القوى الطبائع . لهذا قال من قال (ان هذا الكسب الذى اثبته الاشعرى غير معقول)(٥١) .

بقيت النقطة المشار اليها فى السياق ، وهى تتصل بفكرة العدل والظلم ، ولهذا سنفرد لها الحديث **من وجهة نظر ابن تيمية** حيث يرى ان فكرة الكسب فى جوهرها جبرية ، والجبريون لا ينزهون الله تعالى عن الظلم .

عدل الله تعالى وحكمته :

كانت حجة المعتزلة فى نفى القدر اثبات العدل الالهى كما رأينا ، ولكن اهل الحديث والسنة مع اثباتهم لعدل الله تعالى يؤمنون بالقدر ايضا ، ولا يتنافى هذا مع ذلك ، ولما رأوا ان فكرة (الكسب) تؤدى للجبرية ، عارضوها موضحين الموقف الصحيح فان الله تعالى منزه عن الظلم ، ولا يفعل السوء ولا السيئات — مع انه سبحانه خالق كل شىء : افعال العباد وغيرها .

وقد يحدث الالتباس فى فهم البعض بسبب الخلط بين نسبة الفعل الى العبد ونسبته الى الله تعالى ، فان الانسان اذا فعل القبيح المنهى عنه اصبح شرا وظلما بالنسبة اليه ، ومع ان الرب قد جعله فاعلا لذلك ، بناء على اختياره ، الا ان ذلك منه سبحانه عدل وحكمة ووضع للاشياء مواضعها ، فهو منه عدل وحكمة وصواب وان كان فى المخلوق عيبا .

ويضرب ابن تيمية لذلك مثلا لتقريبه للاذهان ، لأن مثل هذا يحدث فى الفاعلين المخلوقين ، فان الصانع اذا اخذ الخشبة المعوجة ، والحجر الردى ، واللبنة الناقصة فوضعها فى موضع يليق بها ويناسبها ، كان ذلك منه عدلا واستقامة وصوابا وهو محمود ، وان كان فى تلك عوج وعيب هى

---

(٥١) نفس المصدر ص١٦ .

به مذمومة ، ومن آخذ الخبائث فجعلهافى المحل الذى يليق بها كان ذلك حكمة وعدلا ، وانما السفه والظلم ان يضعها فى غير موضعها(٥٢) .

وله المثل الاعلى ، فانه سبحانه لا يضع شيئا الا موضعه ، فلا يكون الا عدلا ولا يفعل الا خيرا ، وهو سبحانه له الخلق والامر ، فأمر بتحصيل المصالح وتكميلها وبتعطيل المفاسد وتقليلها ، واذا تعارض امران رجح احسنهما ، وليس فى الشريعة امر بفعل الا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهى عن فعل الا وعدمه خير من وجوده وهو فيما يأمر به قد اراده ارادة دينية شرعية واحبه ورضيه ، فلا يحب ويرضى شيئا الا ووجوده خير من عدمه ، ولهذا امر عباده ان يأخذوا بأحسن ما انزل اليهم من ربهم فان الاحسن هو المأمور ، وهو خير من المنهى عنه .

والقارىء لمؤلفات ابن تيمية ، يلحظ انه كثيرا ما يعالج قضايا متشابكة فى مؤلف واحد او رسالة واحدة ، ولكن وراءها ضابط يمسك بزمامها فاذا ما وجه الباحث عنايته اليها ظهر الحل واضحا جليا .

وقضية كهذه — اى قضية الايمان بالقضاء والقدر وصلتها بأفعال العباد — من أهم القضايا واعمقها ، وقد حارت فيها العقول والافهام ، ولهذا نجد ابن تيمية يعالجها من مداخل عدة : مدخل الايمان بأن الله تعالى ربكل شىء ومليكه ، وانه سبحانه خالق العباد وافعالهم ، واثبات صفات الله تعالى من الحكمة والعدل والرحمة كما يفضل احيانا عرض آرائه من خلال التمييز بين الارادة الكونية القدرية والارادة الدينية الشرعية .

ويرى ابن تيمية ان سوء الفهم والاعتقاد بين القدرية والجبرية راجع الى الخلط بين خلق الله تعالى وتقديره ، وأمره وتشريعه ، **فان امره وتشريعه** مقصوده بيان ما ينفع العباد اذا فعلوه ، وما يضرهم ، بمنزلة امر الطبيب المريض بما ينفعه وحميته مما يضره . فأخبر الله على السن رسله

---

(٥٢) ابن تيمية — رسالة فى معنى كون الرب عادلا وفى تنزهه عن الظلم ص١٣٠ — ١٣١ بكتاب (جامع الرسائل) المجموعة الاولى — تحقيق الاستاذ الدكتور محمد رشاد سالم مطبعة المدنى ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

بمصير السعداء والاشقياء ، وأمر بما يوصل الى السعادة ، ونهى عما يوصل الى الشقاوة . **واما خلقه وتقديره** فيتعلق به وبجمله المخلوقات ، فيفعل ما له فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه ، وان كان فى ضمن ذلك مضرة للبعض . مثال ذلك انه ينزل الغيث رحمة وحكمة ، وان كان فى ضمن ذلك ضرر للبعض بسقوط منزله او انقطاعه عن سفره أو تعطيل معيشته . ويرسل الرسل رحمة وحكمة وان كان فى ضمن ذلك اذى قوم وسقوط رياستهم . فاذا قدر على الكافر كفره قدره لما فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، وعاقبه لاستحقاقه ذلك **بفعله الاختيارى** ولما فى عقوبته من الحكمة والمصلحة العامة(٥٣) .

وهناك عاملان آخران يسهمان فى سوء الفهم والخلط فى هذه المسألة احدهما — قياس افعال الله تعالى على افعالنا وهو خطأ ظاهر . ولزيادة ايضاح ذلك فان السيد يأمر عبده بأمر لحاجته اليه ولغرضه ، فاذا أثابه على ذلك كان من باب المعارضة ، وليس هو الخالق لفعل العبد المأمور . ولله المثل الاعلى فانه سبحانه غنى عن العباد، انما أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم أمر ارشاد وتعليم ، فان اعانهم على فعل المأمور فقد تمت نعمته ، وان خذل ولم يعن العبد حتى فعل الذنب كان له فى ذلك حكمة اخرى ، وان كانت مستلزمة . تألم هذا فانما يألم بأفعاله التى من شأنها أن تورثه نعيما أو عذابا ، وان ذلك الايراث بقضاء الله وقدره ، فلا منافاة بين هذا وهذا .

العامل الثانى — موقف الناس من حكمة الله تعالى الكلية ، فليس على الناس معرفتها وقد تكون فوق مداركهم القاصرة المخلوقة ، ويكفيهم التسليم لمن قد عرفوا وآمنوا بحكمة الله تعالى ورحمته وقدرته . فمن المعلوم ما لو علمه كثير من الناس لضرهم علمه ، فحكمته سبحانه اكبر من العقول ؛ لذلك قال تعالى (لا تسألوا عن اشياء ان تبدلكم تسؤكم) المائدة ١٠١ .

وختام ذلك كله فى كلمات قليلة ولكنها تلخص المسألة وتشرحها بما فيه الكفاية . قال ابن تيمية (وهذه المسألة مسألة غايات افعال الله تعالى ونهاية حكمته ، ولعلها أجل المسائل الالهية ، وما ضلت القدرية الا من

(٥٣) ابن تيمية — منهاج السنة جـ١ ص٢٧١ — ٢٧٢ .

جهة قياس الله بخلقه فى عدلهم وظلمهم ، كما ضلت الجبرية الذين لا يجعلون لافعال الله حكمة ، ولا ينزهون عن ظلم ، ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه)(٥٤) .

نظرية الجوهر الفرد وتفسير الخلق والبعث :

تنسب النظرية الذرية العامة الى ديمقريطس من فلاسفة اليونان ، وتتلخص فى تقسيم الوجود الى عدد غير متناه من الوحدات المتجانسة غير المنقسمة غير المحسوسة لتناهيها فى الدقة ، تتحرك فى الخلاء ، ويحدث بتلاقيها وافتراقها الكون والفساد .

واحدها الجوهر الفرد او الجـزء الذى لا يتجـزأ ، وهى متشابهة الطبيعة تمام التشابه ، وليست لها اية كيفية ، ولا تتمايز بغير خاصيتين : وهما الشكل والمقدار(٥٥) .

ولكن ثمة نقاطا كثيرة هامة فى النظرية لم تعالجها مثل مسألة ما اذا كانت الذرات ذات ثقل ومسألة المصدر الاصلى للحركة ومسألة الضرورة ، فمازالت موضعا للتخمين(٥٦) .

هذه هى النظرية الذرية فى وضعها الاصلى ، صدرت فى محيط فلسفى يونانى ، وبيئة وثنية لا تعرف الها ولا كتابا ولا نبيا . ولعل الفكرة نشأت بسبب التخبط فى تفسير خلق العالم . وكل ما هنالك ان الفلاسفة القائلين بالصورة والهيولى القديمتين زعموا ازلية العالم وحركته عنـدهم دائرية ولهذا فهى قديمة مثلها فى ذلك مثل مادته ولكن اصحاب النظـرية الذرية خالفوهم فاعتقدوا ان الحركة فى هذه الجواهر مستقيمة فهى ليست ازلية ولا ابدية(٥٧) .

---

(٥٤) نفس المصدر السابق .

(٥٥) يوسف كرم — تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٣٨ — ٣٩ لجنـة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٨هـ — ١٩٥٨م .

(٥٦) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٤٦ مكتبـة الانجلو المصرية سنة ١٩٦٣م .

(٥٧) د . محمد لعى ابو ريان — تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسـلام ص١٩٧ دار الجامعة المصرية بالاسكندرية .

واقتبس المتكلمون — المعتزلة والاشاعرة — هذه النظـــرية (ما عدا النظام)(٥٨) مع اختلاف فى التفاصيل ، ولكن الاشاعرة حولوا هذه النظرية الى القول **بالمناسبات** فى الفعل الالهى ، اى انكار خاصية الاشياء وفاعليتها ، فالنار لا تحرق عند التقائها بالخشب مثلا ، ولكن الله تعالى يخلق الاحتراق **عند التقائهما** لا بسبب النار أنها محرقة .

وتنسب النظرية الى الباقلانى (٤٠٢هـ) — وترتيبه الثانى فى المذهب الاشعرى بعد ابى الحسن شيخه — فقال بأن العالم مؤلف من جواهر فردة لا حصر لها ولا تتجزأ ، والعقل هو الذى يضفى على هذه الجواهر الكيفيات التى ليست من طبيعتها وانما هى من العقل فقط ، والجواهر متغيرة محدثة وكذلك اعراضها ، وليست لها خواص او صفات فعالة بذاتها ، اذ ان الله تعالى هو الخالق للجواهر واعراضها ، وهو سبحانه الذى يحدث فيهـــا خصائصها ، مثال ذلك أن الله تعالى يخلق فعل الاحراق ، وما اجتماع النار والخشب الا **مناسبة** للاحتراق .

وجاء الغزالى (٥٠٥هـ) بعده فأنكر قانون السببية او العلية وأرجعه الى مبدأ العادة والتكرار(٥٩) .

ويبدو من سياق النظرية فى صياغتها العامة اثبات قدرة الله تعـــالى فى المخلوقات ، وانه سبحانه وتعالى هو وحده الفعـــال لما يريد ، ان شاء خلق فى الاشياء خصائصها وانشاء لم يخلقها .

ولكننا مادمنا فى مجال الدفاع عن اصول الدين بالادلة العقلية ، فان حسن النـــوايا لا يكفى ، بل لابد ان يتوافر معهـــا الاقوال المتفقة مع ادلة العقول ، وما يتفق مع المشاهد المجـــرب المتفق عليه بين البشر ، فضـــلا عن اتفاقه مع النصوص الشرعية المتوافقة مع الادلة العقلية التى تثبت أن الله تعالى سننا فى خلق العالم وحركته .

---

(٥٨) ولكن النظـــام يرى انه لا جزء الا وله جزء ، ولا بعض الا وله بعض ، ولا نصف الا وله نصف وان الجزء جائز تجزئته ابدا ، ولا غاية له من باب التجزؤ (مقالات الاسلاميين للاشعرى ج٢ ص١٧) .

(٥٩) د . ابو ريان — تاريخ الفكر الفلسفى .. ص٢٠٥ — ٢٠٦ .

من هذه الزاوية ، نقد شيخ الاسلام ابن تيمية هذه النظرية مقدما الادلة الكثيرة من الكتاب والسنة المتوافقة مع المعقولات وما يعلمه الناس بالفطرة والتجربة العملية والمشاهدات العيانية .

ونقطة البداية فى معارضته للنظرية تتلخص فى اثبات ان المتكلمين الآخذين بها لا يجعلون الله تعالى خلق شيئا بسبب ، ولا لحكمة ، ولا يجعلون للانسان قدرة تؤثر فى مقدورها ، ولا لشىء من الاجسام طبيعة ، ولا غريزة بل يقولون **(فعل عنده لا به)** . وخالفوا بذلك الكتاب والسنة ، واجماع السلف والائمة ، وصرائح العقول(٦٠) .

وسنلخص فيما يلى الادلة التى قدمها ابن تيمية وهى مستمدة من الكتاب والسنة ، ومن آراء العلماء والفلاسفة نتيجة التجارب والنظر والمعقول .

توافق ادلة الكتاب والسنة مع الواقع المشاهد :

اختيار ابن تيمية من النصوص ما يبرهن على اثبات الاسباب ، مثل قوله تعالى (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) البقرة ١٦٤ وقال سبحانه وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) الاعراف ٥٧ .

وقال عز وجل (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) ق٩ .

وهناك آيات كثيرة اخرى فى كتاب الله تعالى حيث يذكر سبحانه انه فعل هذا بها ، كما ذكر انه انزل الماء بالحساب ، وانه احيا الارض بالماء .

---

(٦٠) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٧٠ .

اما ما ورد فى السنة ، فكثير ايضا ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال (ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده . فاذا رايتموهما فأفزعوا الى الصلاة) .

وامر صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالصلاة ، والذكر ، والدعاء ، والصدقة ، والعتاقة ، والاستغفار ، . وكذلك عند سائر الآيات التى يخوف الله بها عباده .

وقوله صلى الله عليه وسلم (لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته) رد لما كان قد توهمه بعض الناس من ان كسوف الشمس كان لأجل موت ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم وكان قد مات وكسفت الشمس ، فتوهم بعض الجهال من المسلمين ان الكسوف كان لأجل هذا . فبين لهم النبى صلى الله عليه وسلم ان الكسوف لايكون سببه موت احد من اهل الارض ، ونفى بذلك ان يكون الكسوف معلولا عن ذلك .. وبين ان ذلك من آيات الله التى يخوف بها عباده(٦١) .

وما يثبت ايضا ان التخويف انما يكون سببا للشر وعلة له ، ما قاله تعالى فى سورة الاسراء (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) آية ٥٩ وقياسا على ذلك فلو كان الكسوف وجوده كعدمه بالنسبة الى الحوادث ، لم يكن سببا لشر ، وهو خلاف نص الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويدعم ذلك ماورد فى السنن — الترمذى والنسائى واحمد — أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر وقال لعائشة (يا عائشة ، تعوذى بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب . وتفسير الحديث ايضا يدل على ان الاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر .

اضف الى ذلك انه صلى الله عليه وسلم امر عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء ، والذكر ، والاستغفار ، والتوبة ، والاحسان بالصدقة والعتاققة . فان هذه الاعمال

(٦١) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٧٠ — ٢٧١ .

الصالحة تعارض الشر الذى انعقد سببه . كما فى الحـديث (ان الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض فيعتلجان) . ومثل ذلك مثلما جاء عدو فانه يدفع بالدعاء ، وفعل الخير ، وبالجهاد له . ومثلما يفعله المرء اذا هجم البرد ، يدفعه باتخاذ الدفء ، فكذلك الاعمال الصالحة والدعاء .

واذا كانت الحكمة ضالة المؤمن ، فان ابن تيمية لا يكتفى بهذه الادلة فيضيف اليها اتفاق اهل الملل واساطين الفلاسفة ، مؤيدا ذلك بما ذكر عن بطليموس انه قال (واعلم ان ضجيج الاصوات فى هياكل العبادات بفنون اللغات يحلل ما عقدته الافلاك الدائرات !!) .

من هذا يتضح خطأ تفسير الخلق — او النشاة الاولى — بنظـرية الجواهر الفردة كما فعل المتكلمون — من المعتزلة والاشاعرة — فالثابت ان كل ما سوى الله تعالى محدث وانه سبحانه خلق الاسباب والمسببات ، وبذلك ينتظم الكون وفق نواميس ثابتة منتظمة .

أما الاعادة والبعث ، فان النظرية ايضا تقصر عن تفسيره والبرهنة عليه ، فأدى الى تقوية شبهات الفلاسفة المنكرين لمعاد الابدان ، ونتج عنها صعوبات لن تجد حلا الا بالادلة الشرعية والعقلية ، سنعرض لها كما يلى :

صعوبات امام النظرية فى تفسير البعث :

لما كان اصل رايهم فى ابتداء الخلق اثبات الجوهر الفرد ، جعلوه ايضا فى الميعاد والبعث ، ولكن اختلفوا بين رايين :

احدهما — تعدم الجواهر ثم تعاد .

الثانى — تتفرق الاجزاء ثم تجتمع .

ولكن هذين الرايين اثارا صعوبات امامهم فى مواجهة الفلاسفة المنكرين لبعث الابدان حيث تساءل هؤلاء الفلاسفة عن الآتى : —

(أ) الانسان الذى يأكله حيوان ، وذلك الحيوان اكله انسان آخر ، فان الاجزاء فى هذه الاجساد قد اختلطت .

---

(٦٢) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٧٢ .

(ب) ان الانسان يتحلل دائما ، فما الذى يعاد ، أهو الذى كان وقت الموت ؟

فان اجيب بالايجاب ، لزم ان يعاد على صورة ضعيفة ، وهو خلاف ما جاءت به النصـــوص . وان كان غير ذلك فليس بعض الابدان بأولى من بعض ، أى انها تتفاوت فى القوة والضعف .

واضطر المتكلمون امام هذه الصعوبات الى القول بأن الله تعـــالى يخلق بدنا آخر تعود اليه الروح ، فالمقصود تنعيم الروح وتعذيبها ســـواء كان فى هذا البدن أو فى غيره . وهذا ايضا يخالف النصوص الصريحة باعادة هذا البدن ، كما يخالف عقائد السلف وجمهور العقلاء والفقهاء والفلاسفة والاطباء اذ يجمعون على القول فى خلق الله للاجسام التى يشاهد حدوثها انه يقلبها ويحيلها من جسم الى جسم ؟

وتفصيل ذلك ان الفقهاء يبحثـــون فى النجاســـة مثلا ، هل تطهـــر بالاستحالة ام لا ؟ كما تستحيل العذرة رمادا والخنزير وغيره ملحا ونحـــو ذلك .

والاطباء كذلك يقررون بأن المنى الذى فى الرحم يقلبه الله تعالى علقة ثم مضغة ، وهذا التحول يسرى على بنى آدم .

اما آدم عليه السلام فقد خلق من طين ، فقلب الله سبحانه وتعالى حقيقة الطين فجعلها عظما ولحما وغير ذلك من اجزاء البدن ، والمضغة ايضا يقلبها عظاما وغير عظام . قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ١٢ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ١٣ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين ١٤ ثم انكم بعد ذلك لميتـــون ١٥ ثم انكم يوم القيامة تبعثون) ١٦ المؤمنون .

وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذى سقى بها أو نزل عليها وغير ذلك من المواد التى يقلبهـــا

---

(٦٣) ابن تيمية — تفسير سورة الاخلاص ص٢٤ — ٢٥ .

ثمرة بمشيئته وقدرته ، والحبة ايضا يفلقها وتتقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك .

وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) يس .

ويجمع ابن تيمية هذه الامثلة لما يربط بينها من حقيقة التحول الخاضعة للمشاهدة والتجربة ، فيقول (نفس تلك الاجزاء التى خرجت من الشجر الاخضر ، جعلها الله نارا من غير أن يكون كان فى الشجرة الاخضر نار اصلا ، كما لم يكن فى الشجرة ثمرة أصلا ، ولا كان فى بطن المراة جنين اصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره ، بقلبه تلك المادة الى هذا ، وبما ضمه الى هذا من مواد اخرى)(٦٤) .

ويرى شيخ الاسلام أن عقيدة السلف وما اجمع عليه العقلاء وما اتفق عليه الاطباء أن الاجسام تنقلب من حال الى حال ، ويؤيد هذا الاطباء بصفة خاصة فى تناولهم لخلق الانسان وأطوار نموه ، فالله تعالى يقلبه ويجعله من جسم الى جسم . وأيضا فان معنى الاعادة يدل على أن الله سبحانه

---

(٦٤) ابن تيمية — تفسير سورة الاخلاص ص٢٥ .

ويختار شيخ الاسلام من بين الاقوال المختلفة فى الجوهر الفرد أن الجسم يقبل القسمة الى غاية ، من غير اثبات الجوهر الفرد، مدللا على ذلك بأن الجسم — كالماء مثلا — يقبل انقسامات متناهية الى أن تتصاغر أجزاؤه ، فاذا تصاغرت استحالت الى جسم آخر ، فلا يبقى ما ينقسم الى غير غاية ، بل يستحيل عند تصاغره ، فلا يقبل الانقسام بالفعل مع كونه فى نفسه يتميز منه شىء عن شىء ، وليس كل ما تميز منه شىء عن شىء لزم أن يقبل الانقسام بالفعل ، بل قد يضعف عن ذلك ولا يقبل البقاء مع فرط تصاغر الاجزاء ، لكن يستحيل ، اذ الجسم الموجود لا بد له من قدر ما ولابد له من صفة ما فاذا ضعفت قدره على اتصافه بتلك الصفة انضم الى غيره ، اما مع استحالته أن ذلك من غير جنسه واما بدون الاستحالة ان كان من جنسه كالقطرة الصغيرة من الماء اذا صغرت جدا فلابد أن تستحيل هواء أو ترابا أو تنضم الى ماء آخر (كتاب الصفدية ص١١٨) .

وتعالى يعيد الجسم بعد ان يبلى (ولهذا يقال هو مثله ، ويقـال هذا هو هذا ، فان فعل مثل فعل غيره ، ولا يقـال اعادة ، وانمـا يقـال : حكاه وشابهه ، بخلاف ما اذا فعل ثانيا مثل ما فعل اولا ، فانه يقال أعاد فعله) ، مثلما هدم بيت ثم اعيد بناؤه .

وبعبارة اخرى ، فان الله عز وجل يعيـد الخلق بعـدما استحالت الاجسام الى غيرها ، فيعيـدها من تلك الاجزاء التى انقلبت واستحالت اليها ، والنشأة الاولى خلقة فساد وبناء ملائمة للحيـاة الدنيا وطبيعتهـا الفانية بينما الثانية للبقاء فهمـا يتشابهان من وجه ويتنوعـان من وجـه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدى وجعل مثله ايضا ، فباعتباره اتفـاق المبدا والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله .

فلا بد اذن من الاستناد الى الحقيقة القرآنية الممثلة فى خلق اللـه ، منها قوله تعالى (أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) وهى أمر للانسان بأن يتذكر خلقه من نطفة ، فاذا ما فسر الانسـان المخلوق فى ضوء نظرية الجواهر الفردة ، فان جواهر الانسان عندهم مازالت باقيـة وحدث لهـا الاعراض ، ومعلـوم ان تلك الاعراض وحـدها ليست هى الانسان ، فان الانسـان مـأمور ، منهى ، حى ، عليم ، قدير ، متكلم ، سميع ، بصير ، وموصوف بالحركة والسكون ، وهذه صفات الجواهر ، والعرض لا يوصف بشىء لاسيما وهم يقولون العرض لا يبقى زمانين(٦٥).

وهكذا يبرهن شيخ الاسـلام أن فكرة الجوهر الفرد لا تفسر لنـا المشاهدة العيانية فى الخلق ، ولا تتفق مع حقيقته الثابتة بالآيات القرآنية ، والمرئية فى اطوار الانسان كما يثبت ذلك الاطباء ايضـا ، فانه يتحول فى مراحل خلقه ، فيخلق الله الانسان من المنى ، فالمنى استحال وصار علقة ، والعلقة استحالت مضغة ، الى استواء الانسان بشرا سويا ، ويستشهد بهذا المثال ليقوض دعائم تفسير المتكلمين ، اذ يعدون الاجسام متماثلة لانها مركبة من الجواهر المتماثلة ، وانما اختلفت باختلاف الاعراض . ويستبدل بها حقيقة الخلق والبعث القرآنية المتفقـة مع ادلة العقول وتجارب البشر .

---

(٦٥) ابن تيمية تفسير سورة الاخلاص (٥٤ — ٥٦) .

بعد هذا العرض الموجز ، يتضح ان طريقة الاشاعرة مع اخلاصهم فى الدفاع عن النصوص لم تقو على الوقوف ازاء النقد الذى وجه اليهم من شيوخ السنة كابن تيمية وغيره حيث ناقشوا وفندوا بالحجج والبراهين .

ويبدو ان ائمة الاشاعرة انفسهم قد ظهرت لهم الحقيقة ، ولكن بعد طول بحث وبعد افناء الاعمار .

ومن هنا نجد أئمتهم قد فضلوا طريقة السلف فى نهاية حياتهم واعلنوها صراحة .

والى القارىء بيان ذلك :

تحول ائمة الاشعرية الى طريقة السلف :

لا شك ان الرغبة فى الدفاع عن عقيدة اهل السنة بخاصة والاسلام بعامة هى التى دفعت ائمة الاشاعرة الى علم الكلام ظنا منهم انه المنهج الصحيح لهذا الغرض ، ثم تبين لهم بعد التجربة غير ذلك ، فتحولوا عنه ، ولعل اول المتحولين الى طريقة السلف هو الامام ابو الحسن الاشعرى نفسه ، وقصة تحوله من الاعتزال الى عقيدة الامام احمد بن حنبل تبرهن على ذلك كما اسلفنا .

ومن الثابت عن الذين ترجموا للاشعرى — وابرزهم ابن عساكر فى كتاب (تبيين كذب المفترى) ان كتاب (الابانة) من اواخر كتبه وهو دليل على استقراره على طريقة الامام احمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف .

ويمكن تقسيم حياته العلمية الى ثلاثة اطوار — الاول عندما كان معتزليا — والثانى عندما بدأ يعيد النظر فى معتقدات المعتزلة ويخط لنفسه منهجا جديدا يلجأ فيه الى تأويل النصوص بما ظن انه يتفق مع احكام العقل ، ثم الطور الاخير الذى كتب فيه (الابانة) وعبر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف ومنهجهم والتى كان الحامل لوائها حينذاك الامام احمد بن حنبل(٦٦)، وكرر أيضا مضمون عقيدته فى كتابه (مقالات الاسلاميين) ناسبا اياها لاهل السنة والحديث .

---

(٦٦) ينظر تعليق الاستاذ محب الدين الخطيب على كتاب (المنتقى) للذهبى ص٤٣ ط السلفية ١٣٧٤هـ .

وجاء بعده الامام الباقلانى فكان حريصا على الانتســـاب الى الامام ابن حنبـــل ايضــــا حتى كان يكتب فى بعض اجوبتـــه محمـــد بن الطيب الحنبلى(٦٧) .

وائمة الاشعرية بعده اتخذوا موقفا مشابها ايضا يثير الانتباه ويدعو لبحث هذه الظاهرة التى — ان دلت علىشىء — فانها تدل على الاخلاص فى البحث عن الحقيقة من جهة ، كما يدل من جهة اخرى على أنه لا سبيل الى معرفة اصول الدين الا من مصادره فى الكتاب والسنة .

فهاهو امام الحرمين الجوينى فى كتابه (الرسالة النظامية) يشير الى اختلاف مسالك العلماء فى هذه الظواهر ، فراى بعضهم تاويلهـــا ، والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن، وذهب ائمة السلف الى الكف عن التاويل ، واجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها الى الرب . ثم يصرح بأنالذى يرتضيه رايا ، ويدين لله به عقـــدا ، اتباع سلف الامة ؛ مبرهنا على ذلك بأن الدليل السمعى القاطع فى ذلك ان اجماع الامة حجة متبعة ، وهو مستند الشريعة وقد درج صحب رسول الله صلى الله عليــــه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيهـــا وهم صفوة الاســــلام . والمستقلون باعباء الشريعة وكانوا لا يالون جهـــدا فى ضبط قواعد الملة ، والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون اليه منها .فلوكان تأويلهده الظواهر مشروعا او محتوما لاوشك ان يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة.واذ ثبت عنهم الاضراب عن التاويل كان ذلكهوالوجهالمتبع فحق على كل ذى دين ان يعتقـــد تنزيه البارى عن صفات المحـــدثين . ولا يخوض فى تـــأويل المشـــكلات . ويكل معناها الى الـــرب فليجر آيـــة الاستواء ، والمجىء ، وقوله (لما خلقت بيدىَ) (ويبقى وجه ربك) وقوله (تجرى بأعيينا) وما صح من اخبار الرسول — صلى اللـــه عليه وسلم — كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا .

---

(٦٧) ابن تيمية — موافقة .. ج٢ ص٩ ، ٥١ .

ويعضد ذلك ما ذهب اليــه فى كتــابه (غياث الامم) فبالرغم من ان الكتاب مخصص لعرض الفقه السياسى الاسلامى وآرائه فى منصب الخلافة أو الامامة ، فقد حرص فى باب (تفصيل ما الى الائمة والولاة) على ان ينص على احد مهام الخليفة على صرف المسلمين عن الخوض فى المشكلات الكلامية وتوجيههم الى طريقة السلف فقال فى هذا الصدد (والذى اذكره الآن لائقا بمقصود هذا الكتاب ، ان الذى يحرص الامام فيه جمــع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين ، قبــل أن نبغت الاهواء وزاغت الآراء ، وكانوا رضى الله عنهم ، ينهون عن التعرض للغوامض والتعمق فى المشكلات .. الى أن يقول وما كانوا ينكفون رضى الله عنهم عما تعرض له المتأخرون عن عى وحصر ، وتبلد فى القــرائح هيهــات ! قد كانوا اذكى الخلائق اذهانا وارجحهم بيانا ..(٦٨)

ورأى الغزالى ايضا فى علم الكلام مدون فى كتبه معروف مشهور لاسيما (الاحياء) فقد قال فيه (وأما منفعته فقد يظن ان فائدته كشف الحقــائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهــات فليس فى الكلام وفاء بهــذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه اكبر من الكشف والتعريف ..) والى نفس المعنى يذهب فى كتابه (المنقذ من الضلال) فذم علم الكلام ايضا وقال بأن أدلته لا تفيد اليقين . وفى كتابه (التفرقة بين الايمان والزندقة) ، صرح بتحريم الخوض فيه فقال (لو تركنا المداهنة لصرحنا بأن الخــوض فى هذا العلم حرام) .

ومات الغزالى على خير احواله ، مات على الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، طالبا علم الحديث ، فتحول من الكلام الى طلب السنة من مصادرها الصحيحة .

أما الرازى — وهو المعبر عن المذهب الاشعرى فى مرحلتــه الاخيرة حيث خلط الكلام بالفلسفة — فقد نبه فى أواخر عمره الى ضرورة اتباع منهج

---

(٦٨) الجوينى — غياث الامم فى التياث الظلم ص١٤٠ — ١٤١ تحقيق د . مصطفى حلمى ود . فؤاد عبد المنعم ط دار الدعوة بالاسكندرية سنة ١٤٠٠هـ .

السلف ، واعلن انه اسلم المناهج بعـد ان دار دورته فى طرق علم الكلام والفلسفة ، فقال فى النهاية (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رايتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورايت اقرب الطرق القرآن اقرا فى الاثبات (الرحمن على العرش استوى) (واليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وأقرا فى النفى (ليس كمثله شىء) (ولا يحيطون به علما) (هل تعلم له سويا) ثم قال (ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى) وكان يتمثل كثيرا الابيات التالية :

نهـاية اقدام العقـول عقال	وأكثر سعى العـالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا	وحاصـل دنيـانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا له فيه قيل وقالوا(٦٩)

وقال فى وصيته (أحمد الله بالمحامد التى ذكره بها افضـل ملائكته فى اشرف اوقات معارجهم ، ونطق بها اعظم انبيائه فى اكمل أوقات مشاهدتهم ، بل اقول ذلك من تاريخ الحدوث والامكان ، فأحمده بالمحامد التى يستحقها لالهيته ويستوجبها لكمال الاهيته ، عرفتها او لم أعرفهـا ، لأنه لا مناسـبة للتراث مع جلال رب الارباب) .. الى قوله (ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية **فما رايت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم** ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق فى ايراد المعارضات والمناقضات ، وما ذلك الا للعلم بأن العقـول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية) وذكر فى وصيته ايضا انه يدين لله تعالى بدين محمد صلى الله عليه وسلم ، وسأل الله تعالى أن يقبل منه هذه الجملة ولا يطالبه بالتفصيل(٧٠) .

---

(٦٩) ابن الوزير اليمانى — الروض الباسـم فى الذب عن سنة أبى القاسم جـ٢ ص١٦٨ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٥هـ .

(٧٠) ابن الوزير اليمانى — الروض الباسم .. جـ٢ ص١٦٨ .
وقد اورد نصوصا كثـيرة اخرى تثبت رجوع ائمة الكلام الى طريقة السلف، فنقل عن القرطبى فى (شرح مسلم) ايضـا أن =

ونكتفى بهذا القدر لبيان النتائج التى توصل اليها اكبر أئمة المتكلمين فى المدرسة الاشعرية ، اذ تأكدوا بعد رحلة طويلة مع الكلام والخــوض فى قضاياه الى نتائج حاسمة حيث وجدوا — كما ذكر الرازى — ان طريقــة القرآن كافية شافية ، وان طريقة اهل الحديث موصلة الى اليقين ، داعية الى الاطمئنان وثبات الايمان .

تقييم ابن تيمية لشيوخ الاشاعرة :

يرى ابن تيمية ان شيوخ الاشاعرة اقرب الى الامام احمــد تحقيقــا وانتسابا . أما تحقيقــا ، فان الاشــاعرة اقرب الى مذهب السلف واهل الحــديث فى مسألتى القــرآن والصفات . كذلك فان انتساب الاشـــعرى وأصحابه الى احمد بن حنبل والمحدثين عموما ظاهرة واضحة فى كتبهم(٧١). ويقول (ولهذا لما كان ابو الحسن الاشعرى وأصحابه منتسبين الى السنة والجماعة كان منتحلا للامام احمد ذاكرا انه مقتد به متبع سبيله . وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لكثير من أصحاب الامام احمــد ما هو معروف)(٧٢) .

أما عن موقفه من الامام أبى الحسن ، فان القارىء لكتبه يلمس احيانا

= الجوينى كان يقول لاصحابه : يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى ما بلغ ما تشاغلت به . واوصى الكرابيسى قبل موته واتباعه بقوله (عليكم بما عليه أهل الحديث ، فانى رأيت الحق معهم) . وأورد قول أبى الوفاء بن عقيل لاصحابه (لقــد بالغت فى الاصول طول عمرى ثم عدت القهقرى الى مذهب المكتب — يعنى الذين يكتبون الحــديث ويشتغلون به) . وأيضــا قول الشهرستانى (عليكم بدين العجائز ، فانه أسنى الجوائز) . (المصدر السابق ص٩٦٨ — ١٦٩) .

وينظر أيضا نص الوصية التى أوردها الدكتور على محمد حسن العمارى فى كتــابه (الامام فخر الدين الرازى — حيــاته وآثاره ص٧٥) ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقــاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م) .

(٧١) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٦٨ .

(٧٢) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٣٧ .

رقة فى نقده ، وذلك بسبب اقوال الاشعرى المؤيدة لمذاهب اهل الحـديث والسنة فى عدة مواضيع كالصفات والقدرة والامامة ، وردوده على المعتزلة والشيعة والجهمية . ولهذا يرى انه ينبغى ان يعرف لهذا الامام حقه وقدره عملا بقول الله تعالى (قد جعل الله لكل شىء قدرا) ، كذلك فان قيامه بنصرة مذهب اهل السنة فى وجه اهل البدع وقهـره للمخالفين يضعه فى مرتبـة المجاهدين(٧٣) .

ومع ان شيخنا لا يعد اتباع المدرسـة الاشعرية سلفيين خلصا لأن المذهب السلفى بالمعنى الدقيـق يلفظ علم الكلام سواء على منهج المعتزلة ام بدفاع شيوخ الاشاعرة ، الا انه يقر بوجود تقارب بين المذهبين كمـا قلنا ، ويراه يكاد يلتحم عند المحدثين منهم خاصة : كابن عساكر (٥٧١هـ) ، والبيهقى (٤٥٨هـ) ، والنووى (٦٧٦هـ) حيث غلب عندهم جانب الحديث عن الاتجاه الكلامى . من جهة اخرى ، ينتسب الى الحنـابلة ايضـا من المتاخرين من يذهب الى شىء من التأويل كابن عقيل (٥١٣هـ) وابن الجوزى (٥٩٧هـ) (٧٤). كذلك نقد شذت منهم قلة — شأنهم فى ذلك اتبـاع المذاهب والفرق جميعا — حيث اتفقت مع ابن حنبل فى الفروع وخالفتـه فى بعض الاصول قائلين بالجهـة والجسمية ولكن (احمـد برىء منهم واهل السنة والجماعة من الحنابلة لا يعدونهم منهم)(٧٥) .

وفى نقده للمحدثين ، يرى ان ما يعيب بعض علماء الحديث يرجع الى الحشو الناجم عن الاحتجاج بأحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو ما لا يصح الاحتجاج به . اما القاعدة السليمة التى ينبغى على المحدثين التقيد بها حتى يسلم منهجهم من الاخطاء والحشو ، فهى تتلخص فى ضرورة توافر عاملين : احدهما التثبت من صحة الحديث ، والثانى : فهم معناه(٧٦) .

---

(٧٣) ن . م ١١ .
(٧٤) صفى الدين الحنفى — القـول الجلى فى ترجمة شيخ الاسـلام .. ص٢٥٣ .
(٧٥) ن . م ١٢٧ .
(٧٦) ابن تيمية — نقض المنطق ص٢٢ .

وهكذا استطاع مفكرنا باستخدامه لمنهج (المعادلة والموازنة) ان يحدد مدى الاقتراب والابتعاد عن طريقة السلف ، محاولا البرهنة على أن المحدثين الذين تنسحب الشروط السالف الاشارة اليها عليهم — هم المثلون الحقيقيون للمدرسة السلفية لانهم (اعتمدوا فى دينهم على استنباط النصوص لا على خيال فلسفى ، ولا راى قياسى ولا غير ذلك من الآراء المبتدعات)(٧٧) .

أما سبب ذيوع المذهب الاشعرى فى راى شيخ الاسلام فيرجع الى العوامل الآتية :

أولا — كثرة الحق الذى يقولونه وظهور الآثار النبوية عندهم .

ثانيا — لبسهم ذلك بمقاييس عقلية — ظنوا انها صحيحة بينما هى فى الواقع موروثة عن تيار خارجى من الفلسفة وغيرها — وظنوا ايضا انه لم يمكن التمسك بالآثار النبوية فى مواجهة المعتزلة بهذا الوجه .

ثالثا — ضعف الآثار النبوية فى عصورهم الموضحة لسبيل الهدى .

رابعا — تقصير المنتسبين للسنّة . ويحملهم ابن تيمية مسئولية ما حدث ناقدا لبعضهم بقوله (انهم تارة يروون ما لا يعلمون صحته وتارة يكونون كالاميين الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الامور)(٧٨) .

طريقة السلف اعلم واحكم :

وبعد ، فان الغالب على القضايا المتنازع أصبحت لها الصبغة التاريخية لأن الاهتمامات الثقافية والعلمية والدينية حينذاك هى الدافعة لجعلها الاولى بالبحث والمناقشة ، ولكن لهذه القضايا نفسها جانبا مازال يستحق الاهتمام والدراسة باعتباره لقى الضوء على الصلة بين الاتجاهين النصى والعقلى ، ولا يمكن تجاهل النقاش الدائر بينهما ، فان الانسان

---

(٧٧) ن ٠ م ٨١ .
(٧٨) ابن تيمية — فتاوى ج١٢ ص٢٣ .

بمكوناته العقليه والنفسية وثقافته المصطبغة احيانـــا بصبغة العصر الذى يعيش فيه ، كل ذلك قـــد يؤثر عليه تأثرا كبيرا عنـــد تطلعه فى البحث عن الحقيقة التى ينشدها . واذا خصصنا المسلم المعاصر بالحديث ، فاننـــا نراه يقف امام القرآن الحكيم والسنة النبوية أحد موقفين : الاول التـــأثر بالفلسفات السائدة والمناهج التى تجعل من العقل المكانة الاولى فى نظـــرية المعرفة ، ومن ثم يميل الى المنهج الاعتزالى ، وأن توسط فى موقفه اختـــار المنهج الاشعرى .

والثانى — وأما البحث عن المنهج الصحيح للعقيدة موقنا بأنه من الخطأ العلمى والدينى الانصراف عن الاصل الثانى للاسلام وهو الحديث وتحرى الصحيح منها فى مصادرها ، وما اكثرها واوثقهـــا . وهنـــا ينبغى ايضـــا الاسترشاد بطريقة علمـــاء الحديث والســـنة ومعـــرفة منهجهم فى النظـــر والاستدلال لاثبات صحة اصول الدين .

وفى بحثكهذا محدود الهدفوموحد المنهج،راينا توضيح التباينوالتمايز بين الاتجاهين : المعتزلى والاشعرى من ناحية ، والسلفى من ناحية أخرى.

وقد تبين لنا أن المعتزلة اعتزلوا السنة والجماعة ووضعوا لانفسهم أصولا خمسة .

اما الاشاعرة — فانهم دافعوا عن عقيـــدة اهل السنة والجمـــاعة واعلنـــوا الانتماء اليهم — ولكنهم التزموا فى منهجهم بصفة عامة بالمنهـــج الكلامى ، بحجة التوفيق بين النصوص الشرعية والاحكام العقلية ، وغلب عليهم تأويل النصوص الشرعية لتطويعها للاصول التى وضعها اهل الكلام قبلهم .

واذا كانت دراستنا قد أوصلتنا الى انتهـــاء اغلب ائمة الاشـــاعرة سلفيين ، فان ذلك يدلعلى اكتشافهم ان طريقة السلف هى الاعلم والاحكم، وعلينا الاستفادة من تجاربهم التى امضوا فيها السنوات الطـــوال بحثـــا وتفكيرا وتأملا ودراسة ، ويصبح من السرف ايضا فى الوقت والجهد ، اتباع

طريقتهم الكلامية قبل رجوعهم عنها ، لاسيما ولدينا مؤلفات علماء الحديث والسنة بعدهم ، اخلصوا فى اظهار المنهج السلفى والدفاع عنه وبيان انه يستند الى الادلة الشرعية العقلية .

وفى مقدمة هؤلاء يقف شيخ الاسلام ابن تيميـــة ، وسنحاول عرض منهجه بايجاز فى الباب التالى .

البـــاب السادس

موقف ابن تيمية من القضايا الكلامية :

ـــ حياته وعصره .
ـــ منهجـــــه .
ـــ هدم المنطق الارسطاليسى .
ـــ الفطرة الانسانية وطرق المعرفة .
ـــ الهدى والنبوات .

موقفه ازاءالقضايا الكلامية :

ـــ الصفات الالهية .
ـــ اثبات صفات الله تعالى وافعاله بالادلة العقلية والقاطعة .
ـــ الميزان القـــــرآنى
ـــ قياس الاولى .
ـــ من طرق الميزان القرآنى ـــ اللزوم والاعتبار .
ـــ النبـــــوة .
ـــ براءة ابن تيمية من تهمة التجسيم .

موقف ابن تيمية من القضـــايا الكلاميـــة

مقـــدمة :

ولد تقى الدين بن تيمية يوم الاثنين عاشر من شهر ربيـــع الاول سنة ٦٦١هـ فى حران ونشأ فى بيت علم اتاح له الاطلاع على التراث الاســـلامى واستيعاب علوم المسلمين ، فبز علماء زمنه لتفرده بالاحاطة الشاملة دونهم باغلب هذه العلوم — كالتفسير واللغة وحفظ السنن والآثار ، وعلم الفقه ، والتاريخ ، والفلسفة وعلم الكلام وغيرها . وقد ساعدته مواهبه العقلية على بلوغ مرماه اذ كان يتمتع بذكاء حاد وحافظة ممتـــازة استطاع بهما ان يفهم ويعبر عن اعوص المسائل فى الفلسفة والمنطق وعلم الكلام واصـــول الفقه بحيث ارتفع انتاجه العلمى الى مصاف المتخصصين فى هذه الفـــروع كلها كما يذكر مترجموه . الى جانب خصـــائص اخلاقيـــة تتمثـــل فى النهم والتشوق للمعـــرفة وقوة الجلد والصبر على قراءة ما يشبه الموسوعات ، بحيث مكنته من استحضار النصوص وقت الحاجة والاستشهاد بها وتأييد صحة آرائه . ويضاف الى ذلك انقطاعه للعلم انقطـــاعا تاما فلم تشغله صاحبة ولا ولد ، ولم يحل دونه منصب أو يعوقه سعى لطلب مال أو جاه لزهده وتقلله فى معيشته . وعنـــدما اضطهد وسجن بسبب آرائه الجريئة التى ساقته اليها اجتهاداته المدعمة بالادلة ، انتهز فرصة سجنه واستمر فى القراءة والبحث الى ان أجبر فى فترة سجنه الاخيرة عن التخلى عن أدوات الكتابة . ومن اخلاقه الشخصية الدقة والامانة فى رواية النصوص المنقولة من مصادرها المختلفة فحفظ لنا صفحات كاملة من كتب تعد فى حكم المفقودة، مع شـــجاعته فى اعلان رايه مهمـــا قوبل من صنوف الاضطهاد بسببها ، وخوضه المعارك الحربية فى مواجهة التتار وقيامه بحث الامراء على مقاومة حروبهم مهما كلفهم ذلك من نفوس وأموال .

لقى العنت بسبب خصومته لعلوم الكلام والطعن فى شيوخ الصوفية وتسفيه آراء بعض الفقهاء ، كما انتقد مظاهر الاضطـــراب والضعف فى عصره لانه عاش وسط جو صاخب ملىء بالحـــروب الخارجية ومظـــاهر التشتت والاختلاف فى الداخل بعد انهيار الخلافة العباسية فى بغداد ســـنة

٦٥٦هـ وانقسام الدولة الاسلامية الكبرى الى ولايات متعددة ، فقامت بمصر والشام حينذاك دولة المماليك التى عاش فى ظلها ابن تيمية ، وقد كتب لها أن تقوم بالنصيب الاوفى فى خدمة الاسلام ودفاع المعتــدين من المغــول فى الشرق والصليبيين فى الشمال(١) .

ولم يأل ابن تيمية جهــدا فى شن الغـــارة على النصيرية والباطنية فى الشام ، لأن السواحل الشامية انها استولت عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ، كما قام ابن تيمية بالسفارة لدى ملك المغول غازان .

وجمع فى شخصيته صفات العالم المجاهد الذى ضحى — كما يصفه الشيخ المراغى — بمتع الدنيا لنصرة دعوته ، فانتقد انتقاد الرجل المثـــالى الذى كان يرى الا حكم الا الله ، وان الجماعـــة يجب ان تكون على النحو الذى شرعه الله ، فله فى الدين راى ، وله فى الدولة راى ، وله فى الصوفية راى ، وله فى رجال الكلام راى ، وله فى النصرانيـــة راى ، والباطنيـــــة راى(٢) .

ومضى حياة حافلة فى التاليف والجدل والجهاد بنفسه ضـــد التتـــار والافتاء ومحاربة البدع .

ومثل هذه الشخصية الفذة لابد ان تتعرض للابتلاءات والمحن ، ولذا فقد استطاع خصومه ادخاله السجن اكثر من مرة فى حيـــاته ، فكان موته بسجن قلعة دمشق عام ٧٢٨هـ(٣) .

والآن يحسن بنا ان نفصل هذه المقدمة : —

---

(١) المراغى — ابن تيمية ص٥٩ ط الحلبى (سلسلة اعلام الاسلام) .
(٢) المراغى — ابن تيمية ص٣٧ — ٣٨ .
(٣) ينظر كتاب المستشرق الفرنسى هنرى لاووست (نظريات شـــيخ الاسلام فى السياسة والاجتماع) ترجمة الاستاذ محمد عبد العظيم وتقديم وتعليق د . مصطفى حلمى دار الانصار ١٣٩٦هـ — ١٩٧٧م

حيـــاته وعصره :

ولد الشيخ كما قلنــا فى بيت ثقــافة اسلامية سلفية ، فان جده كان محدثا مشهورا ، وكذلك كان ابوه . يصف ابن تيمية جده بقوله (كان جدنا عجبا فى حفظ الاحاديث وسردها وحفظ مذاهب النــاس بلا كلفة) ويصفه بانه كان معدوم النظير فى زمانه ، راسا فى الفقه واصوله)(٤) .

اما ولده فانه (اتقن العلوم وافتى وصنف وصار شيخ البد بعــد ابيه .. وكان محققا كثير الفنون ، وكان من انجم الهدى ، وانما اختفى من نور القمــر وضوء الشمس . ويشير الذهبى فى هذا الوصف الى كل من ابيــه وابنه !(٥) .

وتلقى شيخنا الفقــه والحديث والتفســير والعلوم الاخرى ، وكان مضرب المثل فى قوة الحفظ والذكاء . كما استطاع أن يستوعب ثقافة العصر كما قلنا ويجيدها ويحاجج اهلها عن مقدرة ودراية . يصفه تلميذه الذهبى بانه (برع فى الرجال ، وعلل الحــديث وفقهه ، وفى علوم الاســلام وعلم الكلام ، وغير ذلك . وكان من بحور العلم والاذكياء المعــدودين والزهاد الافراد . وسارت بتصانيفه الركبان ، لعلها ثلاثمائة مجلد)(٦).

وكان عصره يموج بالتيارات السياسية العنيفة ، فان حروب التتــار التى بدات تغزو البلاد منذ عام ٦١٦هـ — ١٢٢٩م ، وظلت أمواجها تتلاحق دفعة وراء الاخرى عبر السنوات الطويلة حتى سنة ٦٨٠هـ — ١٢٨١م حيث

---

(٤) ابن تيمية — جلاء العينين فى محاكمة الاحمدين ص١٨ .

(٥) ن . م ١٩ .

(٦) الذهبى — تذكرة الحفاظ ج٤ ص٢٨٨ . وقد لاحظ لاوست وحدة النظرة الدينية عند ابن تيمية فى قوتها ودوامها (حيث كانت الافكار التى عرضها فى مطلع فجر تاليفــه هى نفس الافكار التى تناولها شرحا وتفصيلا فى سائر تواليفه المتــأخرة) ص٨٣٥ من كتــاب اسبوع الفقه — ابن كثير — البداية ج١٣ ص٨٢ .

وصلت الى حماه ، واشترك ابن تيمية بنفسه فى احد المعارك . الى جانب صراع المماليك على السلطة فى الداخل .

وكان سقوط بغـداد عام ٦٥٦هـ — ١٢٥٧م على ايدى التتـار هو النتيجة الطبيعية التى تمخض عنها ضعف الدولة العباسية ، لأنهـا بدات منذ اواخر القرن الرابع ، واوائل القرن الخامس (وكانهـا جدار يريد ان ينقض وكان لابد لها ان ينتهى الى احدى النهايتين : الى الانحـلال التـام والفناء او اليقظة والاحياء)(٧) . ولكن مع الاسف انتهت الى ما نعرفه من انقسام الدولة الاسلامية الكبرى الى دويلات عديدة ، وعاصر ابن تيميـة دولة المماليك .

وكان للشيخ دور بارز فى مقاومة الغزو التتارى وهذا يعطينـا فكرة عن ارتباط العقيدة بالعمل عنده . وقد افرغ ما فى جعبته من آيات واحاديث لحث المسلمين على الجهاد ، وتخليصهم من روح اليأس والهـزيمة التى دفعت بجموع كبيرة منهم الى الفرار هربا من جحافل الجيش التتـارى ، الذى شرب من كأس النصر حتى الثمـالة ، وانتشى بروح السـيطرة والتفوّق .

وفى مقابل الحرب والغزو الخارجى الذى ملأ التاريخ بصفحات عديدة للمآسى والكوارث التى اصابت العالم الاسلامى ، كانت هنـاك فى الداخل تيارات عدائية تتمثل فى روح الهزيمة ، وبث روح اليأس ، وترويج الاشاعات التى تروع القلوب وتخلعها لكى يسلم الناس دون قتال . يقول ابن كثـير (واشاع المرجفون بأن التتر وصلوا الى حلب ، وان نائب حلب تقهقر الى حماه ، ونودى فى البلد بتطبيب قلوب الناس واقبالهم على معايشهم)(٨) .

ومما زدا الامر سوءا فى هذا العام — اى عام ٧٠٠هـ — ١٣٠٠م حيث بدا التتار يقصدون بلاد الشام — ان هذه البلاد شهدت شتاء قارسا ممـا ادى الى صعوبة الهجرة (حيث جعلوا يحملون الصغار فى الوحل الشديد

(٧) د . جمال الدين الشيال — تاريخ الدولة العباسية ص ٨٩.
(٨) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص٩٥ .

والمشقة عــلى الدواب والرقاب ، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف ، مع كثرة الامطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشىء)(٩) .

رأى ابن تيمية هذه الظـروف العصيبة التى تضـافرت فيها توالى انتصـارات الاعداء ، مع ضعف المسلمين وبأسهم ، وممـا زاد الطين بلة الاحوال الجوية التى جرت على غير المألوف . وهنا يتجلى ايمان الشـيخ ، وتظهر آثار التشبع بالروح السلفية فعالة قوية ، فى الوقت الذى كان بعض الفقهـاء غيره يتركون دمشـق فرارا بأنفسهم وعائلاتهم اذ (كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق ، كبيت ابن صصرى ، وبيت ابن فضل الله وابن منجا وابن سويد وابن الزملكانى وابن جماعة)(١٠) .

وبذل الشيخ جهدا كبيرا ليقف فى وجه كل العـوامل التى تدعو الى الهزيمة واليأس ، معلنا على الملأ آراءه الكفيلة بتحويل الهزيمة الى نصر . فأخذ يحرض النـاس على القتـال بدلا من الفـرار (وساق لهم الآيات والاحاديث الواردة فى ذلك ، ونهى عن الاسراع فى الفرار ، ورغب فى انفاق الاموال فى الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وان ما ينفـق فى اجرة الهرب اذا انفق فى سبيل الله كان خيرا)(١١) .

كذلك سافر بنفسه الى مصر لحث السلطان على الدفاع عن الشام ، واقنعه بضرورة تجهيز الجيش لهذا الغرض . وجاء ضمن اقواله للسلطان فى هذا الصدد (لو قد انكم لستم حكام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم اهله ، وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حـكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وانتم مسئولون عنهم ؟!)(١٢) .

وعندما حان أوان المعركة المرتقبة بأرض الشام ، ووصلت جحـافل التتـار الى حمص وبعلبك ، ولم يكن جيش مصر قد وصل للنجدة بعـد ،

---

(٩) ن . م ١٥ .
(١٠) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص١٤ .
(١١) ن . م والصفحة .
(١٢) ن . م ص١٥ .

تخبط الناس ومسهم الفزع والذعر ، وعادوا يتحدثون عن التقهقر ، ولكن ابن تيمية عاد ينفث من قوة ايمانه فى صدور الامراء والجنــد ، مؤكدا لهم النصر ، متأولا قوله تعالى (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى لينصرنه الله ان الله لعفو غفور — الحج — ٦٠) ، واذا ما طلبوا منه ذكر مشيئة الله ، اجابهم (ان شاء الله تحقيقا ، لا تعليقا)(١٣) .

أما عن تردد بعض المسلمين فى حرب التتار لأنهم اعلنــوا الاســلام تظاهرا ، فقد اوضح لهم شيخنا هذا اللبس ، اذ ان التتار عنده كالخوارج الذين خرجوا على على ومعاوية ، زاعمين انهم احق بالرياسة منهما . وكذا يفعل التتار ، فبينما هم متلبسون بالمظالم والمعاصى (يزعمــون انهم احق باقامة الحق بين المسلمين) .

وحتى لا يدع مجالا للشك فى صحة رايه لادخال الطمأنينة والثبــات فى قلوب المترددين ، اعلن لهم فى وضوح قاطع (اذا رايتمونى من ذلك الجانب — يقصد التتار — وعلى راسى مصحف فأقتلونى) (١٤) .

وقاتل الشيخ مع الجند ، حاثا اياهم على الافطار فى شهر رمضان ، لأن الفطر اقوى لهم ، وذلك تشبها بالمسلمين حين افطروا عام الفتــح تنفيــذا النصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم(١٥) .

خلقــه :

اتصف الشيخ بمكارم الاخلاق. اما عن حدة الطبع التى يوصف بها كتاباته وشدته فى نقد المذاهب والطوائف المخالفة للسنة .

فالواقع أن الرجوع الى مراحل حيــاة الشيخ ، والاطلاع على التهم

---

(١٣) ن . م ص٢٣ .
(١٤) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص ٢٤ .
(١٥) ن . م ٢٦ .

التى كيلت اليه ظلما ، وما نسب اليـــه زورا وبهتـــانا(١٦) . كل هذا دفع بالشيخ الى الثورة على المظالم التى احدقت به .

ويزيد الامر ايضاحا ، ما يحدثنـــا به عن نفسه فيقول (فان النـــاس يعلمون انى من اطول الناس روحا وصبرا على مر الكلام ، واعظم النـــاس عدلا فى المخاطبة لاقل الناس)(١٧) . فبم اذن يفسر ثورته وغضبه ؟

هنا يجيب قائلا (فمتى ظلم المخاطب ، لم نكن مأمورين ان نجيبه بالتى هى أحسن ، بل عنف ابو بكر الصديق رضى الله عنه عروة ابن مســـعود بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم لما قال — انى لأرى اوباشا من النـــاس خليقا ان يفـــروا ويدعوك ، واجابه بحدة بالغـــة الشدة (أنحن نفر عنـــه وندعه) ؟!(١٨) .

وفيما عدا هذا ، فقد كان الشيخ متسامحا ، مطبقا لاخلاقيات الاسلام فى العفو وتصفية قلبه من الاحقـــاد والضغائن ، اذ لما انقلبت الاوضـــاع السياسية وحل الملك محمد بن الملك المنصـــور قلاوون ، بدلا من المظفـــر الجاشنكير بيبرس — وكان يكن للشيخ المحبة والتقدير فى بداية حكمه — طلب منه ان يفتى بقتل بعض القضـــاء — الذين افتـــوا بعـــزله عن الملك أيام الجاشنكير — فأبى ، بل دافع عنهم بقـــوله (اذا قتلت هؤلاء ، لا تجـــد بعدهم مثلهم !!(١٩) ، فلما ذكره الملك بأنهم سبق ان آذوه ، وارادوا قتله مرارا ، اجاب (من آذانى فهو فى حل)(٢٠) !!

وازاء هذا التصرف ، اضطر ابن مخلوف قاضى المالكية الى الاعتراف بانه لم ير مثل ابن تيمية ، لانه حرص عليه فلم يقدر عليه ، فلما قدر عليهم

---

(١٦) يقول ابن تيمية (وكان قد بلغنى أنه زور على كتـــاب) .. ويقول (أنا اعلم أن أقواما يكذبون عـــلى) ص٢٠٧ من كتـــاب العقـــود الدرية لابن عبد الهادى .

(١٧) محنة الشيخ ص٤٤ .

(١٨) ن م . والصفحة ٢٠،١٩ ابن كثير ص٥٤ ج١٤ .

جميعا صفح عنهم ، وحاجج عنهم(٢١) . وهذا صحيح . لاننا لو عقدنا مقارنة بين حديث هذا القاضى بعد ان زال عنه الصولجان ، ووصف ابن تيمية له فى السجن ، لظهر الفرق بين الرجلين ، اذ يقول عنه (وابن مخلوف ولو عمل مهما عمل — والله ما اقدر على خير الا واعمله معه .. فانى اعلم ان الشيطان ينزغ بين المؤمنين ، ولن اكون عونا للشيطان على اخوانى المسلمين(٢٢) !!

فاذا ما انتقل من هذه العلاقة الخاصة مع خصمه القاضى ونظر الى المسلمين بعامة ، فانه يدعو لهم بالخير فى دينهم ودنياهم ، ويجب ان يراهم وقد اختفت من بينهم بذور الفتن والخلاف ، فلن (ينقطع الدور وتزول الحيرة ، الا بالانابة الى الله والاستغفار والتوبة ، وصدق الالتجاء ، فانه سبحانه لا ملجأ منه الا اليه ، ولا حول ولا قوة الا بالله)(٢٣) .

كذلك يعلن انه لا يهدف الى تحقيق غرض دنيوى ، ولا يطمع فى تحقيق منصب ، او جاه ، او الحصول على اموال ، فانه (لم يقبل من احد شيئا من النفقات السلطانية ، ولا من الكسوة ، ولا من الادارات ولا غيرها ، ولا تدنس بشىء من ذلك)(٢٤) ، فهو يسعى الى تحقيق ما يحبه الله ورسوله ، فاذا ما قابلته بعض الخصومات ، فانه لا ينظر اليها نظرة شخصية خاصة ، وانما يتحمل كل الصعاب فى سبيل هدفه العام الذى عاش من اجله (نحن انما ندخل فيما يحبه الله ورسوله والمؤمنون ، ليس لنا غرض مع احد ، بل نجزى بالسيئة الحسنة ، ونعفو ونغفر)(٢٥) .

وكانت حياة الشيخ برهانا على صدق قوله ، واقتران العلم بالعمل . انه تمكن من خصومه كما بينا فلم يصبهم بأذى ، وعندما سجنه الملك الناصر ، اصبح ذلك دليلا على انه انه لم يحاول ان يستمد قوته من الامير ،

---

(٢١) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص٥٤ .
(٢٢) محنة الشيخ ص٥٩ .
(٢٣) ن . م والصفحة .
(٢٤) ابن كثير — البداية والنهاية ج١٤ ص٤٣ .
(٢٥) محنة الشيخ ص٥٨ .

بل كان يعلن ما يراه حقا (ولو كان يسندها من الناصر ما القاه فى غيابه السجن ، فكان هذا هو الدليل القاطع على انه متبوع لا تابع ، وحر سيد نفسه ، وليست نفسه ولا فكره ملكا لأحد(٢٦) وبذلك نراه يتخلق بأخلاق العالم المسلم .

منهجـــه :

تكاد تنحصر معالم المنهج لدى ابن تيمية فى مميزات ثلاثة — أحدها اثبات اتفاق الدليل العقلى مع الدليل النقلى ، والثانية رفضه لمصطلحات المتكلمين والفلاسفة واخضاعها للمعانى الاسلامية قبل البت فى قبول استخدامها او رفضها لأن التعبير عن حقائق الايمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بألفاظ محدثه فيها اجمال واشتباه ونزاع ، الثالثة هدمه للمنطق الارسطاليسى واستبعاده .

فبالنظر الى الدليلين العقلى والنقلى فان التعارض يأتى بسبب ضعف احدهما او كليهما اما الدليلان القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين او سمعيين او احداهما عقليا والآخر سمعيا ، لأن القرآن دل على الادلة العقلية وبينها ونبه عليها ونستطيع أن نستدل بالآيات العديدة على الامر بالتدبر والفهم والتعقل . ولكن ابن تيمية يشترط الا نقدم العقل بالاطلاق يرى أن الجزم تقديم الدليل العقلى ظاهر الفساد بالضرورة لأن وجود الله سبحانه وتعالى لا يتوقف على وجود الانسان بلا عقله المخلوق ، وقد جاءت آيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادفة لا يناقض بعضها بعضا .

واذا تكلم اهل الكلام فيما يسمونه بـ (اصول الدين) كمسائل التوحيد والصفات الالهية والنبوة والقدر والمعاد وغيرها ، فلابد أن يكون المبين الاول والشارح لها هو الرسول صلى الله عليه وسلم مادامت باعترافهم اصولا فى الدين ، ولا حجة لهم بالاستمساك بدعوى (الادلة العقلية)

---

(٢٦) محمد أبو زهرة — التعريف بابن تيمية ص٦٩٠ من كتاب أسبوع الفقه الاسلامى .

لأنه كان (صلى الله عليه وسلم) يتمتع بأكثر العقول واعلاهم ذكاء وفطنة ، وهو — كغيره من الانبياء الذين خاطبوا عقــول البشر وتسلحوا بأدلتهــا المتوافقــة مع الفطــرة فأخبروا الامم التى بعثوا اليها بمجيزات العقول لا بمحالات العقول .

وقبل استخدام المصطلحات الكلامية والفلسفية كان على ابن تيميــة توضيح مدلولاتها لاسيما ما تردد كثيرا بحكم القضــايا المعروضــة للبحث والمناقشة كالتأويل مثلا ، فالتأويل لغة ما يؤول الامر اليه ان كان موافقــا لمدلول اللفظ ومفهومه فى الظاهر ، أو تفسير الكلام وبيان معنــاه وان كان موافقا له . أو صرف اللفظ من الامثــال الراجحــة الى الاحتمال المرجوح . ويظهر معنى التأويل الذى استأثر الله بعلمه وهو الحقيقة التى لا يعلمها الا هو كصفة النزول والاستواء والمجىء والاتيان فلا نعرف كيفيتهــا — فان ذات الله سبحانه ليست كذوات المخلوقين وكذلك صفاته وافعاله ليست كصفات المخلوقين وافعالهم .

وعارض الفلسفة التى اعتبرها اسلامية مجازا لانها فى اصلها يونانية . وكان يشير دائما الى ان الرومان واليونان مشركين كانوا يعبدون الهيــاكل والاصنام الارضية ومنهم أرسطو وامثاله من الفلاسفة المشائين .

كذلك فى مناقشاته مع المتكلمين ، عارض الالفاظ والمصطلحات التى استخدمها علماء الكلام لانها لا تعطى مدلولات اسلامية صحيحة ، ولكنــه لم يعارض استخدام الادلة العقلية ، بل ذهب الى خطأ القــول بأن الادلة الورادة بالكتاب والسنة مجرد ادلة نقلية ، فذهب الى أنها عقلية ايضا — اى ان العقول تجيزها فتزنها مستندا لآيات القرآن المنوهة بشأن العقــل كقوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لاولي النهى) اى العقول وقوله عز وجل (هل فى ذلك قسم لذى حجر) لذى عقل وقوله عز وجل (فاتقون يا أولي الالباب) وقوله سبحانه وتعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فان الله سبحانه وتعالى مدح واثنى على ذوى العقول وبالعكس

فإذا تحدث عن الاستواء ، فإننا لا نعلم الكيفية التي اختص بها الرب عز وجل ، مع أننا نعرف أنه تفسيره العلو والاعتدال (و لكننا لا نعرف الفارق الذي امتاز به الرب ، فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه ، وذلك تأويله)
تفسير سورة الإخلاص ص ١١٧

ثم غيرهم ممن لا يسمع او يعقل فى قوله تعالى عن أهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير)(٢٧) .

وسيأتى بيان ذلك كله عند حديثنا عن طرق القرآن .
الواجب اذن ان يجعل ما انزله الله من الكتاب والحكمة أصلا فى جميع أصول الدين فان القرآن جعله الله تعالى شفاء لما فى الصدور . ومن هنا عارض كافة البدع التى يعارض بها الكتاب والسنة التى يسميها اهل كلاميات وعقليات وفلسفات او ذوقيات ووجديات وحقائق وغير ذلك لابد أن تشتمل على لبس حق بباطل وكتمان حق .

ويعلل ابن تيمية ظهور البدع الكلامية والصوفية والفلسفية بسببين أحدهما ذاتى والآخر خارجى : —

فالاول : ابتداع الفاظ ومعانى جعلوا هى الاصل المعقول المحكم وساروا فى طريق التأويل تبعا لما اعتقدوه صحيحا وفقا لاحكامهم العقلية .

والخارجى : وموجزه انه قد تخفى آثار الرساله فى بعض الامكنة والازمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاما أن لا يعرفوا اللفظ واما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه .

اما طريقة القرآن الحكيم فى الجدل فقد تضمنتها الآية الكريمة فى قوله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن) حيث انها راعت حال المخاطبين حسب احوالهم لأن الانسان له ثلاثة احوال : —

اما ان يعرف الحق ويعمل به فيدعى بالحكمة ، واما أن يعرفه ولا يعمل به ، اذ تخالفه نفسه فهذا يوعظ الموعظة الحسنة ، فهاتان هما الطريقان — الحكمة والموعظة . وعامة الناس يحتاجون الى هذا وهذا .

---

(٢٧) مجموع فتاوى شيخ الاسلام جـ١٠ ص٤٣٥ — ٤٣٦ .

فى النفس لها هوى يدعوها الى خلاف الحق وان عرفته فالناس يحتاجون الى الموعظة الحسنة والى الحكمة . فلابد من الدعوة بهذا وهذا .

ولكن النوع الثالث من الناس لا يعرف الحق فحسب بل يعارضه . ولهذا فلا يدعى بالجدل بل هو من باب دفع الصـــائل فاذا عارض الحـــق معارض جودل بالتى هى احسن ولهذا قال (وجادلهم) فجعله فعلا مأمورا به مع قوله (ادعهم) فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وامره أن يجادل بالتى هى احسن وقال فى الجدال بالتى هى احسن ولم يقل بالحسنة كما قال فى الموعظة لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتى هى احسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة .

وهكذا فان مقصود القرآن بيان الحق ودعوة العباد اليه لا الجدال بغير علم ، فهذا مما ذمه الله تعالى بقوله (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم)(٢٨) .

كذلك من سمات منهجه — الاكتفاء بالقرآن والسنة — ففيهما بيـــان كاف لما يحتاج اليه الانسان فى معرفة الدين وتنظيم المعـــاش فى الدنيـــا ، واستلزم منه هذا التصور أن يجمع فى مؤلفاته بين **المباحث** التى شغلت المتكلمين والفلاســـفة والصوفية ، فأخذ يناقش كل طائفـــة مســـتدلا على صحة أقواله بالآيات والاحاديث ، مثبتا أن فى هذين المصدرين وحدهما كافة ما يحتاج اليه من معارف فى أمور الدين ، وانهما يعبران عن ذاتية الاســـلام فى مواجهة كل الآراء والنظريات والفلسفات التى ابتدعها البشر على اختلاف طرقهم فى البحث والاستدلال .

قال شيخ الاســـلام فى هذا الصـــدد (ومن تأمل ما تكلم به الاولون والآخرون فى أصول الدين والعلوم الالهية وأمور المعاد والنبوات والاخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحهـــا وسعادتها ونجاتها ، لم يجد عند الاولين والآخرين من اهل النبـــوات ومن أهل الراى كالمتفلسفة وغيرهم الا بعض ما جاء به القرآن . ولهـــذا لم تحتج الامة مع رسولها صلى الله عليه وسلم وكتابها الى نبى آخر وكتاب آخر ، فضلا عن أن نحتاج الى شىء

---

(٢٨) الرد على المنطقيين ص٤٦٨ لابن تيمية .

لا يستقل بنفسه غيره ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين او من أرباب النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء(٢٩) .

وسنعرض فيما يلى بالترتيب لتفاصيل منهج شيخ الاسلام الذى برهن به على ضرورة الاكتفاء بطرق القرآن وادلته العقليـــة اليقينية المتفقـــة مع الفطرة الانسانية .

وكانت عنـــاية الشيخ الفائقة متجهة الى هدم المنطق الارسططالسى واستبعاده ونقض حدوده وقضاياه والى القارىء فكرة مختصرة عن ذلك :

وكان يحاول ايضا التقريب بين وجهات النظر مادامت الاصول المتفق عليها واحدة ، اذ بالرغم من الخصومات العنيفة الحادثة بين الفرق والمذاهب فى عصر شيخ الاسلام ، فانه حاول التقريب بين الاتجاهات المتقاربة اذ وجد مواضيع الالتقاء كثيرة ، فأظهر الاتفاق فى الاصول واغضى عن الخـــلافات فى دقائق المســـائل التى تخفى على الكثير فان الكلام فى مســـألة الكلام حير عقول اكثر الانام ودوافعـــه فى ذلك أن اللـــه تعـــالى أمرنا بالجمـــاعة والائتلاف ونهانا عن الفـــرقة والاختلاف فقال لنـــا فى القـــرآن (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) ١٠٣ آل عمران

وقال (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) . ١٥٩ الانعام

وقال (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات) ١٠٥ آل عمران

وكان يبرز أمام مخالفيه الاصول الكبار المتفق عليها فيذكرهم بأن ربنا واحد وكتابنا واحد ونبينا — صلى الله عليه وسلم — واحد ، واصـــول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف(٣٠) .

وفى احدى مرات النقاش والجدل قال لمخالفيه :

---

(٢٩) ابن تيمية — جواب اهل العلم والايمان ص٤٤ — ٤٥ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .

(٣٠) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٦٣ .

لا شك أن الناس يتنازعون ، يقول هذا (انا حنبلى) ، ويقول هذا (انا اشعرى) ويجرى بينهم تفرق وفتن واختلاف على امور لا يعـــرفون حقيقتها .

ثم شجب هذا الاختلاف والتفرق آتيا بما يثبت اعتناق الاشعرى بعـد رجوعه من الاعتزال عقيدة الامام احمد بن حنبل مؤيدا ذلك بما اعلنـــه ابو الحسن الاشعرى نفسه فى كتابه (الابانة) وما حكاه عنـــه ابن عســـاكر فى كتابه (تبيين كذب المفترى فيما ينسب الى الشيخ ابى الحسن الاشعرى) .

وقال :

وانا قد احضرت ما يبين اتفاق المذاهب فيمـــا ذكرته ، ولم يصنف فى اخبار الاشعرى المحمودة كتاب مثل هذا ، وقد ذكر فيه لفظه الذى ذكره فى (الابانة)(٣١) .

هدم المنطق الارسططاليسى واعلاء الميزان القرآنى :

لعل من أبرز معالم منهج شيخ الاسلام ابن تيميـــة هو هدمه للمنطق الارسطاليسى وتقويضه من اساسه ، فقدم بذلك خدمة لا تقدر — لا للعقيدة والفكر الاسلامى فحسب — بل اسهم فى انتشال فلسفة اوربا وحضارتهـــا من عقم المنطق الصورى وعرقلته للعقل البشرى ، بها الى المنهج الحقيقى الوحيد الصحيح للتقدم العلمى والمعارف الصحيحة الا وهو المنهج التجريبى. ويرى أستاذنا الدكتور النشار — رحمه الله — انه ليس هناك فى الحقيقة من تكلم — فيما قبل العصـــور الحديثة — بما تكلم به ابن تيمية . لقـد وصل الى اوج الدرج فى فلسفة المنهج التجريبى ، بنقـده للمنطق اليونانى القياسى وبدعوته الى المنطق الاسلامى التجريبى وعبر عن روح الحضـــارة الاسلامية الحقة . ويصف الى ذلك رأى الشيخ مصطفى عبد الرازق بقوله

---

(٣١) ابو المعـــالى الصلابى : غاية الامانى فى الرد على النبهـــانى جا ص٢٨٩ .

(ان الدراسات المنطقية لو سارت منذ عهد ابن تيمية على نهجه فى النقد بدل الشرح والتعمق ، لكنا بلغنا بها من ارتقى مبلغا عظيما)(٣٢) .

وقد نقد ابن تيمية بشدة المنادين بتطبيق المنطق الرسطاليسى والمعجبين به فى العالم الاسلامى باعتباره القانون الذى يعصم الذهن من الوقوع فى الخطأ ، فأظهر بكتاباته ومناقشاته العميقة لحدود هذا المنطق وطرق استدلالاته — اظهر انه لا يجوز لعاقل ان يظن ان الميزان العقلى الذى انزله الله هو منطق اليونان للاسباب الآتية : —

اولا — ان الله تعالى انزل الموازين مع كتبه قبل أن يخلق اليونان ، فى عهد نوح وابراهيم وموسى عليهم السلام وغيرهم ، وهذا المنطق اليونانى وضعه ارسطو قبل المسيح بثلاثمائة سنة فقط ، فكيف كانت الامم المتقدمة تزن به ؟ ويثبت بذلك أن الله تعالى خاطب الامم بالميزان العقلى ، فان الوحى المنزل قائم على ادلة العقول(٣٣) .

ولما كان القرآن الكريم هو الكتاب الالهى الاخر للبشرية ، فقد عظم من شأن العقل ، وجعله اساسا للتكليف فان مسلوب العقل او المجنون غير مكلف وقد رفع عنه/ العقاب ، ولا يصح ايمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شىء من اعماله ، فان الاعمال كلها لا تقبل الا مع العقل فمن لا عقل له لا يصح شىء من عباداته — لا فرائضه ولا نوافله — ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من اولياء الله تعالى .

ولهذا قال تعالى (ان فى ذلك لآيات لاولى النهى) اى العقول . وقال تعالى (هل فى ذلك قسم لذى حجر) اى لذى عقل ؟ . وقال تعالى (فاتقون يا اولى الالباب) وقال تعالى (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) .

ويتضح من آيات قرآنية اخرى ان الله تعالى قد مدح واثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فان الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير

---

(٣٢) د . على سامى النشار — مناهج البحث عند مفكرى الاسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الاسلامى ص٢٨٩ ، ٣٠٣ ط دار المعارف ١٩٦٥م .

(٣٣) السيوطى — صون المنطق ج٢ ص١٥٥٧ .

فظ ، بل قال تعالى عن اهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى اصحاب السـعير) وقال (ان شر الدواب عنـد الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . وقال سبحانه (ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بهـا اولئك كالانعام بل هم اضـل اولئك هم الغافلون) . وقال (أم تحسب ان اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم كالانعام بل هم اضل سبيلا)(٣٤) .

ثانيا — كان السلف من هذه الامة يستخدمون الموازين العقلية التى بينها القرآن الكريم ولم يلجأ احد منهم الى المنطق اليونانى الذى لم يعرف فى العالم الاسلامى الا بعد الترجمة فى عهد دولة المأمون أو قريبا منه .

وقد لجأ ابن تيمية لاستخلاص طرق الحجاج العقلى من القرآن الحكيم مستنداً الى مواقف الرسل والانبياء عليهم السلام مع الكافرين ، فقد ذكر الله تعالى فى كثير من السور القرآنيـة المناقشات التى دارت بين الملوك والعلماء التابعين لهم من ناحية والرسل من جهة اخرى ، ولذلك فقد اعلمنا القرآن بما دار مع المعاندين ، فذكر فى كتابه فى غير موضع قصص فرعون والذى حاج ابراهيم فى ربه لما اتاه اللـه الملك ، والملأ من قوم نوح وعاد وغيرهم من المتكبرين المكذبين للرسل ، اخبرنا بردود علمائهم ، كقول الله تعالى (فلما جائتهم رسلهم بالبيان فرحوا بما عنـدهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فلما راوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفـرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون)(٣٥) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما (كل سلطان فى القرآن فهو حجة) وقد قصت لنا سورة (غافر) احوال مخالفى الرسل من الملوك والعلمـاء ، مثل اقوال الفلاسفة وعلمائهم ومجادلتهم واستكبارهم مما يشكل عبرة لمن أتى بعدهم .

---

(٣٤) ابن تيمية — مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية المجلد العاشر ط الرياض ص٤٣٥ .

(٣٥) السيوطى — صون المنطق جـ٢ ص١٥٧ — ١٥٨ .

وكذلك فى سورة الانعام وعامة السور المكية وطائفـــة من الســـور المدنية ، فانها تشتمل على خطاب هؤلاء وضرب **الامثـــال والمقاييس** لهم ، وذكر قصصهم وقصص الانبياء واتباعهم معهم ، فقـــال سبحانه (ولقـــد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصـــار وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا افئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)(٣٦) .

فكيف يعقل أن يترك المسلمون هذه الحجج العقلية ويلجأون الى منطق اليونان ؟ لقد اغناهم الله عز وجل **بالميزان** التى انزلها الله مع الكتاب حيث قال (الذى انزل الكتاب بالحق والميزان) وقال عز وجل (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان) وهى ميزان عادلة تتضمن اعتبـــار الشىء بمثله وخلافه ، فيسوى بين المتماثلين ويفـــرق بين المختلفين بما جعله الله فى فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف .

ويضاف الى القرآن الحديث ايضا ، وبهما تتبين الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة ، ويتبين طريق التسوية بين المتماثلين والفـــرق بين المختلفين ، ويتبين الانكار على من يخـــرج عن ذلك ، كقـــوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا الســـيئات ان نجعلهم كالذين آمنـــوا وعملـــوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقوله سبحانه وتعالى (افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون)(٣٧) ؟

يتبين اذن مما تقدم أن حجج القرآن وادلته ميسرة مفهومة للناس وفقا للفطرة التى فطرهم الله تعالى عليها ، وبها يعرفون ويستدلون .

ويقتضى التوضيح المامنا أولا بنظرية ابن تيميـــة فى المعـــرفة ثم شرح الاصطلاحات التى استقراها من القرآن الكريم وهى على الترتيب :

١ — الميزان القرآنى .
٢ — قياس الاولى
٣ — دليلا اللزوم والاعتبار .

---

(٣٦) فتاوى ابن تيمية ج٩ ص٣٨ — ٣٩ .
(٣٧) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣٨٢ — ٣٨٣ .

أولا — الفطرة الانسانية وطرق المعرفة :

لا يمكن فهم عملية المعرفة الانسانية الا بالنظر الى الانسان ومكوناته ، ذلك أن تضخيم احد جوانبه على الجوانب الاخرى يؤدى الى اخطاء فى التصورات ناشىء عن انحراف الفهم .

وبعد تعريف ابن تيمية للانسان مدخلا للنظر الى تفسير كيف تتم عملية المعرفة ، لأن الاختلاف الاساسى فى رايه بين الفلاسفة والمتكلمين من ناحية والصوفية والفقهاء من ناحية اخرى يرجع الى تجزئة القدرات الانسانية وعدم التصور الصحيح للانسان كما خلقه الله تعالى . ومن ثم فان الاسلام جاء مخاطبا الفطرة الانسانية كما خلقها الله تعالى باعتبار الانسان حى حساس متحرك بالارادة — أو انه علم وعمل ، عقيدة وعبادة ، معرفة وسلوك ، فاثبت ابن تيمية أن الاسلام جاء موافقا لهذه الثنائية فى خلقة الانسان ، فيعلمه بكل ما هو حق ويأمره باتباع المعروف ، ويلفت انظاره الى الآيات الكثيرة الدالة على وجود الله عز وجل ، وعلى حكمته وعدله ورحمته وقدرته وسائر الصفات والاسماء الكاملة له سبحانه ، كما انه لا يأمره الا بمعروف ، ولا ينهاه الا عن المنكر .

ويهتم ابن تيمية ببيان الصلة التى ينبغى أن تكون بين العبد وربه حتى تستقيم الحياة ويسعد الانسان فيقول (أما النفس فان لها قوة الارادة مع الشعور وهما متلازمان ، والنفس تتقوم بمرادها ، وهو المعبود ، والله سبحانه هو المقصود المعبود وحده لا بمجرد ما تشعر به)(٣٨) .

ويستند ابن تيمية الى النصوص يفسرها ويشرحها ، فالانسان قد سماه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (اصدق الاسماء حارث وهمام) فهو دائما بهم ويعمل ، لكنه لا يعمل الا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته . وينطبق ذلك الوصف على من صحت فطرته ، فالفطرة السليمة تعرف الحق وتحبه وتطمئن اليه وتكذب بالباطل وتبغضه وتنكره ، كما قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر)(٣٩) .

---

(٣٨) ابن تيمية — النبوات ص٩٠ — ٩١ .
(٣٩) ابن تيمية — نقض المنطق ص٢٩ .

ولكن المشاهد فى احوال كثيرة ان من الناس من يعلم أن شيئا يضره ومع ذلك يفعله ، ويعلم ان شيئا ينفعه ومع ذلك يتركه ، فما تعليل ذلك ؟

يرى شيخ الاسلام ان ذلك عارضـــة ما فى نفسه من طلب لذة أخرى أو دفع الم آخر ، فأصبح جاهلا ، حيث قدم هذا على ذاك ولهـــذا قال أبو العالية (متوفى ٩٠هـ وهو من كبار التابعين) سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) . (٤٠) فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

واذا عدنا الى مبدأ الثنائية فى خلق الانسان ، وعرفنا حقيقة العداء بينـــه وبين الشـــيطان ، استطعنا الوقوف على أسباب أخرى للمفاســد والمعاصى ، لأن مبدأ العلم الحق والارادة الصالحة من لمة الملك ، ومبـــدأ الاعتقاد الباطل والارادة الفاسدة من لمة الشيطان ، وذلك تفسير قول الله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منـــه وفضلا) وقال تعالى أيضا (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياؤه .

الاصل اذن ان الله تعالى خلق عباده على الفطرة التى ان تركت على سجيتها عرفت الحق وعملت به — لأنها جبلت على الصحة فى الادراك وفى الحركة(٤١) لذلك يأتى دورالرسل عليهم السلام بتكميل الفطرة الانسانية لا بتغييرها . قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . فصلت) وهذا التطابق والتوافق بين آيات الله تعـــالى فى الآفاق والانفس يأتى متطابقا مع الآيات القرآنية السمعية (لأن القـــرآن الذى اخبر به عباده حق ، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانيـــة العيانية ويتصادق موجب **الشرع المنقول والنظر المعقول)**

ومما يساعد الانسان فى الوصول الى معرفة الحق أن يهتدى بالطرق العقلية التى استخدمها القرآن الكريم والتوافق بين آيات الله تعـــالى فى الآفاق وفى الانفس — اى العيانية والعقلية وكذلك السمعية .

---

(٤٠) ابن تيمية — نقض المنطق ص٢٩ — ٣٠ .
(٤١) ابن تيمية — منهاج السنة جـ١ ص٨٢ والنبوات ص٣٠٢ .

وينقد ابن تيمية الفلاسفة القائلين بأن العبادات التى أمرت بها الرسل مقصودها اصلاح النفس لتستعد للعلم الالهى وهو الحكمة النظرية فى تعريفهم الذى زعموا أنه كمال النفس ، أو مقصودها اصلاح المنزل والمدينة — أى الحكمة العلمية .

ويظهر تميز ابن تيمية فى نقده للمناطقة والفلاسفة عندما يربط فى مناقشاته لهم بين العلم الالهى عندهم وعند المسلمين — فالعلم بالله هو (العلم الاعلى) ، ويتحقق هذا العلم على الوجه الصحيح باكتمال ناحيته النظرية والعلمية ، ولا يقتصر الامر على أن النفس تكمل بمجرد العلم به فقط كما زعموه ، لأن النفس لها قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة ارادية علمية ، فلابد لها من كمال القوتين بمعرفة الله تعالى ، وعبادته .

وبناء على هذا التفسير يسقط زعم الفلاسفة — ويقصد ابن سينا خاصة — بأن العبادات التى أمرت بها الرسل مقصودها اصلاح اخلاق النفس لتستعد للعلم الذى زعموا أنه كمال النفس ، فيجعلون العبادات وسيلة محضة الى ما يدعونه من العلم (ولهذا يرون ذلك ساقطا عمن حصل المقصود ، كما تفعل الملاحدة الاسماعيلية ، ومن دخل فى الالحاد أو بعضه ، وانتسب الى الصوفية ، أو المتكلمين ، أو الشيعة ، أو غيرهم)(٤٢) .

ويبدع ابن تيمية فى تحليله لمكونات النفس الانسانية واشتمالها على القوة العلمية والقوة الارادية العلمية لكى يعطى العبادات مكانتها الصحيحة ودورها الفعال فى العلاقة بين الانسان وربه ، فان عبادته — سبحانه وتعالى — تجمع محبته والذل له .

تتميز اذن نظرية ابن تيمية بنظرة شمولية جامعة ، فالنفس لها قوة نظرية علمية ، وقوة ارادية عملية ، وهى مفطورة على معرفة الله عز وجل كذلك تعرف المعروف وتنكر المنكر ويؤيدها الملك بالعلم الحق والارادة الصالحة ، بينما الاعتقاد الباطل والارادة الفاسدة من هواتف الشيطان .

---

(٤٢) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٤٥ .

وازاء هذا التصور للانسان ومكوناته ودوافعـــه النفسية ، لا تكفى المعرفة لأنها تتصل فقط بالقوة النظرية العلمية ، بل لكى يقف الانسان على قدميه مقاوما الاهواء وهواتف الشيطان ومعوقات سيره نحو الله تعـــالى لابد له من عبادة الله وحده لا شريك له (والعبادة تجمع معرفته ، ومحبته والعبودية له . وبهذا بعث الله الرسل ، وانزل الكتب الالهية : كلها تدعو انى عبادة الله وحده لا شريك له)(٤٣) .

وبهذا يتبين انحراف قول الجهمية بأن الايمان مجرد معرفة الله ففصلوا بين علم النفس وبين ارادتها وجعلوا الكمال فى نفس العلم وان لم يصدقه قول ولا عمل — ولا اقترن من الخشية ، والمحبة ، والتعظيم وغير ذلك من أصول الايمان ولوازمه(٤٤) .

الهدى والبينـــات :

تحدثنا من قبل عن نقد ابن تيميـــة المتكلمين لاســـيما فى ظنهم بأن الصحابة لم يكونوا اهل نظر ، واستخدامهم لاساليب كلامية بدعية مخالفة لاساليب القرآن فى النظر والاستدلال العقلى . بينما استدل القرآن الحكيم **بالهدى والبيان والادلة والبراهين وهى تغنى عن مناهج النظر** التى اسسها أهل الكلام ، فان الله تعالى ارسل رسوله **بالهدى ودين الحق** ، وارســـله بالآيات **البينات ومن الممتنع ان يرسل الله رسولا يأمر** النـــاس بتصـــديقه ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه . وقال تعـــالى (ان الذين يكتمـــون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) ١٥٩ البقرة .

---

(٤٣) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٤٤ — ١٤٥ .

(٤٤) ويلحظ الباحث أن ابن تيمية يشتد فى خصومته للجهمية ويحملهم مسئولية الانحرافات كلها وانهم أصل البلاء الذى حدث بتفـــرق المسلمين شيعا واحزابا ويصفهم بقوله فهـــولاء الجهمية من أعظم مبتـــدعة المسلمين ، بل جعلهم غير واحـــد خارجين عن الثنتين وسبعين فرقة ، كما يروى ذلك عن عبد الله بن المبارك ، ويوسف بن أسباط (الرد على المنطقيين ص١٤٦) .

ويفصل **ابن تيمية المعانى القرآنية لكلمات** البينات والهدى والفــرقان كما يلى : —

١ — فان **البينات** جمع بينه وهى **الادلة** والبراهين التى هى **بينـــة فى نفسها** أى بديهيات وأوليات وضروريات وكلها الفاظ مترادفة تطلق منهجيـــا على القواعد الاساسية للمعارف والعلوم ، وبها يتبين غيرها ، يقـــال بين الامر أى تبين فى نفسه ويقال بين غيره ، فالبين اسم لما ظهر فى نفسه ولما أظهر غيره ، وكذلك المبين كقوله فاحشة مبينة اى **متبينة** . ومقدمات الادلة تكون معلومة بنفسها كالمقـــدمات الحسية والبديهية ، وبهـــا يتبين غيرها فيستدل على **الخفى** بالجلى والهدى ايضـــا هو بيان ما ينفـــع به النـــاس ويحتاجون اليه وهو ضد **الضلالة** ، فالضال يضـــل عن مقصـــوده وطريق مقصوده وهو سبحانه عرفهم ان الله هو المقصـــود المعبـــود وحده وانه لا يجوز عبادة غيره .

ويوضح الصلة بين البينات والهدى فيذكر أن البينات فيها بيان الادلة والبراهين على ذلك فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولا مجردا عن دليله ليؤخذ تقليدا واتباعا للظن ، بل هو مبين بالآيات البينـــات — وهى الادلة اليقينية والبراهين القطعية .

ثم يخطو خطوة أخرى فيذكر أن الهدى التام لا يكون الا مع **الفرقان** ، ولهذا قال تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ، فالفرقان هو المفـــرق بين الحق والبـــاطل والخير والشر والصدق والكذب والمأمور والمحظور والحلال والحرام ، وايضا فان الادلة تشتبه كثيرا بما يعارضها فلابد من الفرق بين الدليل الدال على الحق وبين ما عارضه ليتبين ان الذى عارضه باطل،فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحـــق لكن لابد مع ذلك من الفرقان وهو الفـــرق بين ذلك الدليـــل وبين ما عارضه(٤٥) .

ويضرب الامثلة عليما يقصده بالفرق **بين الهدى والفرقان** ، **فالهـــدى**

---

(٤٥) ابن تيمية — النبوات ص١٦٢ .

مثل ان يأمر بسلوك الطريق الى الله كما يؤمر قاصد الحج بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله ، والبينـات ما يدل ويبين ان ذلك هو الطـريق وان سالكه سالك للطريق لا ضال ، والفرقان ان يفرق بين ذاك الطريق وغيره وبين الدليل الذى يسلكه ويدل الناس عليه وبين غيرهم ممن يدعى الدلالة وهو جاهل مضل . وهذا وأمثاله مما يبين ان فى القرآن الادلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الاخبار والاوامر كثير(٤٦) .

والله سبحانه انزل فى كتبه البينات والهدى ، فمن تصور الشىء على وجهه فقد اهتدى اليه ، ومن عرف دليل ثبوته فقد عرف البينات ، فالتصور الصحيح اهتداء والدليل الذى يبين التصديق بذلك بينات ، والله أنزل الكتاب هدىللناس وبيناتمن الهدىوالفرقان.وهو — سبحانه —اذا ذكر الانبياء— نبينا وغيره — ذكر انه ارسلهم بالآيات البينات وهى الادلة والبراهين البينة المعلومة علما يقينيا اذ كان كل دليل لابد ان ينتهى الى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات وقد تسمى ضروريات وقد تسمى اوليات ، وقد يقـال هى معلومة بأنفسها ، فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات(٤٧) .

ايحتـاج الناس بعد ذلك الى اقيسة وأدلة المتكلمين والفلاسفة ، ان الكتب المنزلة وآخرها القرآن الحكيم — كلها بذاتها — آيات بينة لأنها كلام الله تعالى أوحى به الى انبيائه ورسله ، كذلك اتجه الوحى الى مخاطبـة الفطرة التى فطر الناس عليها ، ومنها تمييزها الموازين العقلية بين الحق والباطل اذا حافظت على فطرتها ولم تنصت الى هواتف الشيطان أو تجنح مع هوى النفس .

موافقه ازاء القضايا الكلامية

الصفات الالهيـة : —

ان أهم المسائل التى اثارت الجدل بين ابن تيمية وخصومه المعاصرين هى صفات الله سبحانه وتعالى ، فقد اختلفت أهم الفرق بين نفيها — كجهم

---

(٤٦) النبوات ص١٦٣

(٤٧) نفس المصدر ص١٦٥ .

بن صفوان والمعتزلة — او الغلو فى اثباتها فوقعوا فى التشبيه والتجسيم — كالشهامية والكرامية وقلة الحنابلة الذين يصفهم ابن تيميـة بأنهم اتوا من المنكرات والامام احمـد برىء منهم — او اتخاذ الموقف الوسط كما فعـل الاشاعرة الذين اثبتوا لله صفات سبعة هى الحياة والعلم والقدرة والارادة والكلام والسـمع والبصر ، وفرقوا بين صفات الذات وصفات الفعـل ، وعدوا صفات الفعل كالنزول والاتيان والخلق والرضى والغضب وغيرها من الحوادث التى ينبغى تنزيه الله عنهـا تبعـا للاصـل (ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث) .

وفى اعتراض ابن تيمية على المتكلمين ، يرى انهم اقاموا على محاولة اثبات الصانع باثبات حدوث الاجسـام الذى لا يثبت حدوثه الا بحـدوث ما يقوم به من الصفات والافعال فألجأهم هذا الى نفى صفات الله تعـالى وافعاله القائمة به وظنوا بهذه المقدمة انهم سيبطلون قول الدهرية ، ولكن الدهرية — فى رأين ابن تيمية — كانت حجتهم اقوى اذ قالوا : كيف يحدث الحادث بلا سبب حادث ؟

ويستند منهج المتكلمين بعامة الى قاعدة (مالا يخلو من الحوادث فهو حادث) وان كان معتقدهم ان كل ما يرى وتقـوم به الصفات فهو جسم ، ومن قال انه جسم واراد انه مركب من الاجزاء .

وربما كان الخطأ بسبب البدء بمنهجهم ونقطة البداية فيه القول بنفس التجسيم . ولكن ابن تيمية يرى أن هذا الطريق طويل ويؤدى الى الوقوع فى الخطأ . اما الطريق الصحيح فهو اثبات صفات الكمال لله عز وجل ، اذ يثبت له — تعالى — صفات الكمال المطلق ذاتا وصفاتا مستخدما قيـاس الاولى — اى انه ما من صفة يثبت وجودها للمخلوق فان اثباتها للخـالق أولى ، فضلا عن ثبوت الصفات الالهية بالسمع والعقل . وقد جاء الانبياء جميعا باثبات هذه الصفات بالتفصيل — اى باثبات مفصـل ونفى مجمـل كقوله تعالى (ليس كمثله شىء) فعكس المتكلمون الآية وجاءوا بنفى مفصل واثبات مجمل ، والدليل وصف المعتزلة لله بأنه ليس كذا وليس كذا .. الخ

ويستخلص ابن تيميـــة من مذاهب المتكلمين الزامات يؤدى اليهـا السياق : فان التوحيد عند المعتزلة — وهو فى حقيقته نفى الصفات الالهية — قول من أبطل الباطل عنـــده ، لأنهم يسلمون بأن الله حى عليم قدير . ومن المعلوم ان حيا بلا حياة وعليما بلا علم وقديرا بلا قدرة يعبر عن موقف معاند للعقل والشرع واللغة ، فان الصفة اذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، لا غيره .

وكذلك الامر بالنسبة للاشاعرة الذين أثبتوا صفات الذات وفروا من اثبات الافعال ، اذ لا يعقل أن يكون الموصوف حيا عالما قادرا متكلما رحيما مريدا بحيـــاة قامت بغيره ولا بعلم وقدرة قامت بغيره ، ولا بكلام ورحمـة وارادة قامت بغيره ، والكلام بمشيئة المتكلم وقدرته أكمـــــل ممن لا يكون بمشيئته وقدرته . وفى تناوله لصفة الكلام بالذات التى اثارت أشد الوان الجدل بين السلف والمعتزلة والاشاعرة ، فان ابن تيميـــة يثبت أن السلف قالوا ان الله لم يزل متكلما اذا شاء وكيف شاء لأن الكلام صفة كمال لا صفة نقص وانما تكون صفة كمال اذا قام به لا يتصف بما هو بائن عنه ، فبرهن على خطأ المعتزلة لقولهم بأن كلام الله مخلوق ، واعتبر قول الاشـــــاعرة بدعة ، لأنهم ميزوا — تأثروا بابن كلاب — بين الكلام النفسى وغيره .

وعلينا بعد هذا البيان ، الانتقال لمعالجة واحدة من اهم القضايا التى اثارت الخصومات ضد شيخ الاسلام ، والبت الخصوم عليه ورمته بسببها بتهمة التجسيم ، وذلك توطئة لمناقشة هذه التهمة وتفنيدها فيما بعد :

اثبات صفات الله تعالى وافعاله بالأدلة العقلية :

يثبت علماء السنة والحديث ما يقوم بالله تعالى من **الصفات** كالحياة والعلم والقدرة والارادة والكلام والسمع والبصر كمـــا يثبتون الافعال التى يشاؤها ويقدر عليهـــا كالخلق والاحيـــاء والاماتة والاستواء وغير ذلك من الافعال .

ولا نزاع بين اهل السنة وغيرهم بطبيعة الحال ان ادلة السمع توافرت على اثبات هذه الصفات والافعال ، لكن الذين يخالفـــون دلالة السمع من

المتكلمين يدعون أنها دلالة ظاهرة لا قاطعة ، ويرون أن الدلالة العقلية القاطعة خالفتها .

ولكن شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح القواعد التى يستند اليها فى الدلالة العقلية القاطعة التى يشجب بها راى الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم وينقد بها ايضا المتكلمين — سواء المعتزلة الذين نفوا الصفات والافعال — أو الكلابية الاشاعرة الذين اثبتوا الصفات ونفوا الافعال بالتأويل .

قال شيخ الاسلام :

معلوم بالسمع اتصاف الله تعالى بالافعال الاختيارية ، كالاستواء الى السماء ، والاستواء على العرش ، والقبض ، والطى ، والاتيان ، والمجىء ، والنزول ونحو ذلك . بل والخلق ، والاحياء ، والاماتة ، فان الله تعالى وصف نفسه بالافعال اللازمة كالاستواء، وبالافعال المتعدية كالخلق، والفعل المتعدى للفعل اللازم ، فان الفعل لابد له من فاعل ، سواء كان متعديا الى مفعول أو لم يكن . والفاعل لابد له من فعل ، سواء كان فعله مقتصرا عليه أو متعديا الى غيره . والفعل المتعدى الى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله ، اذ كان لابد من الفاعل . وهذا معلوم سمعا وعقلا)(٤٨) .

واستعان ابن تيمية فى شرحه ببعض قواعد اللغة العربية التى يقرها الكافة ويعرفونها ، فان اهل اللغة العربية التى نزل بها القرآن متفقون على ان الانسان اذا قال (قام فلان وقعد) أو قال (اكل فلان الطعام وشرب الشراب) فانه لابد ان يكون فى الفعل المتعدى الى المفعول به ما فى الفعل اللازم وزيادة ، اذ كلتا الجملتين فعلية ، وكلاهما فيه فعل وفاعل ، والثانية امتازت بزيادة المفعول .

فاذا وضعنا هذه القاعدة نصب اعيننا فى التفسير لتبين لنا التفسير الواضح لمثل قول تعالى (هو الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش اذ تضمن فعلين : أولهما متعد الى المفعول به ، والثانى

---

(٤٨) موافقة جـ٢ ص٣ .

مقتصر لا يتعدى ، فاذا كان الثانى — وهو قوله تعالى (ثم استوى) — فعلا متعلقا بالفاعل ، فقوله (خلق) كذلك ، بلا نزاع بين أهل العربية .

ويستكمل ابن تيمية الشرح من حيث الادلة العقلية ، فيوضح أن من جوز أن يقوم بذات الله تعالى فعل لازم له ، كالاستواء والمجىء ونحو ذلك ، لم يمكنه أن يمنع قيام فعل يتعلق بالمخلوق ، كالخلق والبعث والاماتة والاحياء كما أن من جوز أن تقوم به صفة لا تتعلق بالغير كالحياة ، لم يمكنه أن يمنع قيام الصفات المتعلقة بالغير ، كالعلم والقدرة والسمع والبصر .

وينبغى أن نقرر أيضا تبعا لما نشاهده فى الكون من مخلوقات حادثة ، ان هذه المخلوقات بأفعال الله تعالى الاختيارية القائمة بنفسه ، وهذه الافعال سبب حدوثها ، والله تعالى حى قيوم لم يزل موصوفا بأنه يتكلم بما يشاء . فعال لما يشاء .

اذن يثبت بذلك خلق السموات والارض بما جاء به الشرع ، ولا يمكن القول بحدوث العالم كما يزعم نفاة الافعال الذين يزعمون ان العقل دل على نفيها فالعقل عند التحقيق يبطل النفى ويوافق الشرع ، لأن نفى الافعال يؤدى الى انكار حدوث المخلوقات ، بينما هى مشهودة مرئية لنا جميعا ، دالة بنفسها على خالق حكيم قدير .

كذلك بالنظر الى أفعال الله تعالى ، يمكنا وضع القضية فى الصيغة المنطقية الآتية :

ان الله تعالى موصوف بصفات الكمال ، منزه عن النقائص ، وكل كمال وصف به المخلوق من غير استلزامه لنقص ، فالخالق احق به ، وكل نقص نزع عنه المخلوق فالخالق احق بأن ينزه عنه ، **والفعل صفة كمال لا صفة نقص** ، كالكلام والقدرة ، وعدم الفعل صفة نقص ، كعدم الكلام وعدم القدرة ، فدل العقل على صحة ما دل عليه الشرع ، وزال الاشكال ، وهو المطلوب .

ثانيا : طرق البراهين القرآنية

١ — الميزان القــرآنى :

ويرى ابن تيمية ان القياس الصحيح هوالميزان المنزل من الله تعــالى الذى يستدل به العقل ، فان من اعظم صفات العقــل معــرفة التمــاثل والاختلاف ، فاذا راى الشيئين المتماثلين علم ان هذا مثل هذا فجعل حكمهما واحدا ، قال الله تعالى (الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان)الشورى١٧ وقال سبحانه (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتــاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحــديد ٢٥ وفسر السلف الميزان بالعــدل وفسره بعضهم بما يوزن به ، وهما متلازمان وقد اخبر انه انزل ذلك مع رسله كمــا أنزلمعهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط ، ويبين ايضا فى موضــع آخر ان القياس الصحيح هو من العدل الذى انزله الله تعــالى ، وانه لا يجوز أن يختلف الكتاب والميزان ، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح — لا قياس شرعى ولا عقلى ، ولا يجوز قط أن الادلة الصحيحة النقلية تخالف الادلة الصحيحة العقلية ، وليس فى الشريعــة شىء على خلاف القيــاس الصحيح على خلاف القياس الفاسد(٤٩) .

وبعد عرض مسهب مقارن للاقيسة المنطقية والميزان القرآنى ، يقرر ابن تيمية أن الله تعالى يبين الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة . ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين(٥٠) . وينكر على من يخرج عن ذلككقوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ســاء ما يحكمون) الجاثية ٤٥ وقوله سبحانه (افنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) القلم ٦٨ — اى هذا حكم جائر ، لا عادل فان فيه تسوية بين مختلفين . وقال عز وجل (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) ص٤٨ وقوله سبحانه (أم حسبتم أن تدخلوا الجنــة ولما يأتكم مثــل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأســاء والضراء وزلزلوا) البقرة ٢١٤ .

---

(٤٩) الرد على المنطقيين ص٣٧١ .
(٥٠) نفس المصدر ص٣٨٢ .

واذا سأل سائل : اذا كان مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى بما ارسلت به الرسل ؟ وهذا السؤال فى غير موضعه لأن صاحبه يفترض أن العقل مباين للشرع ، وان ما يعلم قسيما — او مقابلا — للعلوم النبوية وبعبارة اخرى يجعل الاحكام العقلية منفصلة عن العلوم النبوية ، فهذه نقلية سمعية وتلك عقلية برهانية .

والاجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة اذا قرانا القرآن ، حيث يتبين منه ان الرسل ضربت للناس الامثال العقلية التى يعرفون بها التماثل والاختلاف ، فان الرسل خاطبت الناس بما يعرفونه ، ودلت على ما يفهمونه بفطرتهم التى خلقهم الله بها،فليست العلوم النبوية اذن مقصورة على مجرد الخبر كما يظنه اهل الكلام ، بل الرسل — صلوات الله عليهم — بينت العلوم العقلية التى بها يتم دين الناس علما وعملا ، وضربت الامثال ، وذلك بظهر دور الرسل الذين جاءوا بتكميل الفطرة واصلاحها ، فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وارشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه لاسباب الغفلة ، وكذلك تصلح الفطرة وتعيدها الى طبيعتها اذا قيست بالآراء والاهواء الفاسدة ، ويكون دور الرسل ايضا ازالة ذلك الفساد وتذكير البشر ... كانت فطرتهم معرضة عنه(٥١) .

وكانت طريقة السلف الصالح تتلخص فى الاستدلال بالادلة العقلية التى يحتاج اليها فى العلم بما لا يقدر عليه المتكلمون باتيانه ، بل ان غاية ما يذكرونه قد جاء القرآن بخلاصته على احسن وجه ، وذلك كالامثال المضروبة التى يذكرها الله تعالى فى كتابه التى وصفها بقوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) .

ولا يمل ابن تيمية من تكرار واعادة القول بأن الامثال المضروبة فى القرآن الكريم هى الاقيسة العقلية ، ويضيف الى ذلك انه يدخل فيها ما يسميه المناطقة براهين ، وهو القياس المؤلف من المقدمات اليقينية ، بل ان لفظ البرهان فى اللغة اعم من ذلك كما سمى الله تعالى آيتى موسى عليه السلام برهانين فقال سبحانه ~~(فذلك برهان من ربك)~~(٥٢) (فذانك برهانان من ربك) آية ٣٢ القصص

(٥١) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣٨٢ .
(٥٢) ابن تيمية — موافقة صحيح المنقول جا ص١٤ .

قال تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ١٠٧ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ١٠٨) الأعراف

~~العلم الاعلى الذى هو الفلسفة عندهم ، الذى هو الفلسفة الاولى والحكمة العليا (علم ما بعد الطبيعة) — العلم الاعلى .~~

٢ — قياس الاولى :

ولعل اهم نقد لشيخ الاسلام ابن تيمية الارسطاليسى ان هذا القياس اذا استخدم فى الاستدلال على (واجب الوجود) تبارك وتعالى لا يدل على ما يختص به ، وانما يدل على امر مشترك كل بينه وبين غيره ، لأن قياس الشمول تستوى افراده ، والله تعالى ليس كمثله شىء .

ولا يجتمع سبحانه هو وغيره تحت كل تستوى أفراده ، وقد جعلوا الوجود المطلق موضوع الفلسفة الاولى .

فان وصفهم (للوجود) — الذى هو موضوع العلم الالهى عندهم — اما ان يكون (كل موجود) أو بعضه ، هو (الواجب) أو (العكس) . ولكن كون وجود الواجب اكمل من وجود الممكن من اتفاق الاثنتين فى مسمى الوجود ، فالوجود معنى كلى مشترك ولكن هذا (الوجود الكلى) انما يكون كليا فى الذهن ، لا فى الخارج .

فاذا كان هذا هو (العلم الاعلى)عندهم ، لم يكن (الاعلى) عندهم علما بشىء موجود فى الخارج ، بل علما بأمر مشترك بين جميع الموجودات ، وهو

= وجاء فى (تفسير الجلالين) (ادخل يدك اليمنى بمعنى الكف فى جيبك — وهو طوق القميص واخرجها (تخرج) خلاف ما كانت عليه من الآدمة (بيضاء من غير سوء) أى برص ، فادخلها وأخرجها تضىء كشعاع الشمس تغشى البصر (.. فذلك) بالتشديد والتخليف أى العصا واليد . والآية كاملة (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سواء واضمم اليك جناحك من الرهب فذلك برهانا من ربك الى فرعون وملائه أنهم كانوا قوما فاسقين) .

ويقول الاصفهانى (فالبرهان أوكد الادلة ، وهو الذى يقتضى الصدق أبدا ، لا محالة .. قال تعالى (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين — قل هاتو برهانكم هذا ذكر من معى — قد جاءكم برهان من ربكم) المفردات فى غريب القرآن ص٤٥ .

مسمى (الوجود) ، وذلك كمسمى (الشيء) ، و (الذات) ، (الحقيقة) و (النفس) و (العين) و (الماهية) ونحوها من المعانى العامة .

ويرى ابن تيمية ان العلم بهذا ليس هو علما بموجود فى الخارج ، لا بالخالق ولا بالمخلوق ، وانما هو علم بأمر مشترك كلى تشترك فيه الموجودات ، لا يوجد الا فى الذهن(٥٣) .

وهذا بخلاف (العلمى الاعلى) عند المسلمين . فانه العلم بالله تعالى الذى هو فى نفسه اعلى من غيره من كل وجه . والعلم به اعلى العلوم من كل وجه ، والعلم به اصل لكل علم وموضوع هذا العلم هو (الوجود المطلق الكلى) المنقسم الى واجب وممكن وقديم ومحدث وجوهر وعرض (٥٤) .

ولاختصاص الله تعالى بصفات الكمال بالاطلاق ، فقد استعمل الانبياء عليهم السلام فى الاستدلال عليه تعالى قياس الاولى (على وزن الاخرى) ، لاثبات أن كل ما ثبت لغيره من كمال فثبوته له بطريق الاولى وما تنزه عنه غيره من النقائص فتنزهه عنه بطريق الاولى .

والآيات الكثيرة فى القرآن فى هذا الصدد تستند الى قياس الاولى قال تعالى (ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخفيتكم انفسكم) الروم ٣٠ .

وقال تعالى (ويجعلن لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب الا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم النحل ١٦(٥٥) .

ويستخدم القرآن الكريم ايضا قياس الاولى فى بيان امكان المعاد (ا) فتارة يخبر عمن اماتهم ثم احياهم ،كما أخبر عن قوم موسى بقوله (واذ

---

(٥٣) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٣٠ — ١٣١ .
(٥٤) الرد على المنطقيين ص١٢٦ .
(٥٥) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص١٥٠ ، ٣٥٠ .

قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقـة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) البقرة ٥٥ ، ٥٦ .

وكما اخبر عن المسيح عليه‌السلام أنه كان يحيى الموتى باذن الله

وبنفس الطريقـة اخبر عن اصحاب الكهف انهم لبثوا نياما فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا الكهف ١٨ وقال تعالى (وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم) الكهف ٢١ .

وقد ورد تفسير هذه الآية عن غير واحد من العلماء أن قضية البعث اثيرت فى ذلك الزمان ايضا فتنازع الناس حول حقيقته ، هل هو بالارواح فقط ام بالارواح والاجساد ؟ ولذلك اعثر الله تعالى هؤلاء على أهل الكهف ، وعلموا انهم بقوا نياما لا يأكلون ولا يشربون ثلثمائة سنة شمسية وهى ثلثمائة وتسع هلالية ، فأعلمهم الله بذلك امكان اعادة الابدان(٥٦) .

(ب) وتارة يستدل القرآن الحكيم على البعث بالنشأة الاولى ، وأن الاعادة أهون من الابتداء ، كقوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييهـا الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس ٧٨ — ٧٩ وقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيـده وهو أهون عليه) الروم ٢٧ .

(جـ) وتارة يستدل على امكان ذلك بخلق السموات والارض ، فان خلقها اعظم من اعادة الانسان ، كقوله تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العظيم) يس ٨١ وقوله سبحانه (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على ان يحيى الموتى بلى انه على كل شىء قدير) الاحقاف ٣٣ .

(د) وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات ، كقـوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) الاعراف ٥٧ .

---

(٥٦) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٣١٨ — ٣٢٠ .

وقوله سبحانه (والله الذى ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) فاطر ٩ .

طرق الميزان القرآنى : اللزوم والاعتبار :

استخدم ابن تيمية/تقدم لقياس المنطقى الارسطاليسى للوصول الى اثبات أنه لايفيد العلم،ولا يدعى شيخ الاسلام ان النقد نقده،ولكن يرجعه الى نظار المسلمين مع كثرة التعب ليس فيه فائدة علميـــة بل كل ما يمكن علمه بدونه ، ففيه تطويل كثير متعب فانه متعب للاذهان مضيع للزمان . ويضرب مثالا على ذلك بمن يريد مثلا الوصول الى مكة أو غيرها من البلاد فاذا سلك الطريق المستقيم المعروف وصل فى مدة قريبة بسعى معتدل ، ولكن اذا قيض له من يدور به طرقا دائرة — ويسلك به مسالك منحرفة يتعب تعبا كثـــيرا حتى يصل الى الطـــريق المستقيمة ان وصـــل . والا فقد يصـــل الى غير المطلوب ، فيعتقد اعتقادات فاسدة . وقد يعجـــز بسبب ما يحصل له من التعب والاعياء ، فلا هو نال مطلوبه ولا هو استراح .

ويرى ويشارك ابن تيمية نظار المسلمين فى وصف هذا القيـــاس بأنه استعمال لطرق غير فطرية ويعذب النفوس بلا منفعة ، كما ان القيـــاس الارسطى لا يفيد الا بأمور كلية ، لا يفيد العلم بشىء معين من الموجودات ، بل الايسر والابين العلم بالمعينات لا الكليات(٥٧) .

هذا القياس الذى لا يتضمن الا شكل الدليل وصورته ان الكليـــات تقع فى النفوس بعد معرفة الجزئيات المعينة ، اى ان النظريات العلميـــة العامة لايتوصل اليها الا بعد معرفة الجزئيات فى العلوم المختلفة والتوصل منها الى استنباط القانون العام الذى ينتظمها جميعا (ومن تدبر جميع مايتكلم فيه الناس من الكليات المعلومة فى الطب والحساب والطبيعيات والتجارات وغير ذلك وجد الامر كذلك(٥٨) .

---

(٥٧) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص٢٤٨ — ٢٥٢ .
(٥٨) السيوطى — صون المنطق جـ٢ ص١٥٥ .

ويستنتج من ذلك ان قياس التمثيل اقوى وأكثر يقينا من قياس الشمول لأنه بالاول يصل الى المفـــردات المعينة للقضية الكلية ، ومن اعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف ، اى قياس الطرد وقياس العكس ، وهو ما استخدمه القرآن الكريم بهدف **الاعتبار** .

أولا الاعتبار :

ويمضى ابن تيمية فى الاستشهاد بالآيات القرآنيـــة الدالة على ذلك ، فان ما أمر الله به من الاعتبار فى كتابه يتناول قيـــاس الطـــرد وقيـــاس العكس ، قال تعالى (كذبت قوم نوح المرســـلين) وقال سبحانه (كذبت عاد المرسلين) ، فانه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم ، كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل مثل ما فعلوا اصابه مثل ماأصابهم فيبقى تكذيب الرسل حذرا من العقوبة ، وهذا قياس الطرد . كما يعلم أن من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك ، ، وهـــذا قيـــــاس العكس . ، وهـــو المقصـــــــود من الاعتبار بالمكذبين . والاعتبار يكون بهذا وبهذا ، قال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى البـــاب) يوسف ١١١ وقال (لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا .. الى قوله ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار)آل عمران١٣(٥٩).

ولهذا المدلول يرى ابن تيمية ان كثرة الاشارة الى قصة موسى عليـــه السلام وفرعون فى القرآن الكريم يرجع الى الاعتبار فى كل مرة تذكر فيها . انه ينكر فكرة (التكرار) فى القرآن . لأن المقصود من اعادة القصـــة فى سورة وآيات متعددة هو توضيح عبرة جديدة لم يشر اليها فى موضع آخر من الكتاب . ومن هنا فليس فى القرآن تكرارا اصلا .

أما أهميـــة قصـــة موسى وفرعون فترجع الى أنهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل . فان موسى عليه السلام بلغ الغاية القصوى من الايمان وكلمه الله سبحانه تكليما بلا حجاب ، بينما كفر فرعون بالربوبية وبالرسالة ،

ومعنى الاعتبار (العبور) بالتفكر في المخلوقات الى قدرة الخالق، فينتج عن ذلك ونقدس ونعظم ونضبط حركاته بالليل والنهار لله تعالى، ولا يمشي فيما لا يعنيه ولا يفعل شيئا عبثا، بل تكون حركاته وسكناته لله تعالى فيثاب على ذلك في حركاته وسكناته

(٥٩) صون المنطق ج٢ص١٥٦ .

فعاله (شرح الأربعين النووية - الحديث الثامن والثلاثون)

وكان موقفه اشد انكارا من باقى المخالفين للرسل لأن أكثرهم لا يجحـــدون وجود الله (وربما يقصد هنا انهم مشركون) . كذلك لم يكن للرسل من التكلبم لرب العالمين .

فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتبارا لاصل الايمان ولاصل الكفر ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقص على أمته عامة عن بنى اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل ابى جهل يوم بدر قال : هذا فرعون هذه الامة)(٦٠) .

ويرى ابن تيمية ان الحقيقة المعتبرة فى كل دليـــل هو (اللزوم) ، فمن عرف ان هذا لازم لهـــذا استدل بالملزوم على اللازم بغير ذكر لفظ اللازوم ولا تصور معنى هذا اللفظ لأن الانسان بفطرته السوية يعـــرف أن كل شىء مصنوع لابد له من صانع ، وكثيرا ما يستخدم الناس أمثال هذه القضية بقولهم (ان كذا لا بد له من كذا أو انه اذا كان كذا كان كذا) وبغير اســـتخدام لفظ (اللزوم) فان الصياغة نفسها تتضمن العلم باللزوم باعتباره حقيقة معتبرة . كذلك الامر فى المخلوقات ، فان كل ما فى الوجود فهو آية لله تعالى ، مفتقـــر اليه محتاج اليه ، لابد له منه ، **فيلزم من وجوده وجود الصـــانع** . والآيه القرآنية الاتية واضحة الدلالة على معنى اللزوم (قال تعالى : أم خلقوا من شىء أم هم الخالقـــون) ؟ ــ الطـــور ٥٢ ــ ٥٣ وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم انه لما قدم فى فداء الاسرى عام بدر سمع النبى صلى الله عليهوسلم يقرا فى المغرب بسورة (الطور) قال فلما سمعت قوله تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) ؟ أحسست بفؤادى يتصدع .

ولا شك ان الآية تقسيما حاصرا بين أمرين لا ثالث لهما ، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع بالبداهة ، أم خلقوا أنفسهم ؟ فهذا أشـــد امتناعا . فعلموا ان لهم خالقا خلقهم ، وهو ســـبحانه وتعـــالى . ويمضى ابن تيمية فى شرح الاستدلال العقلى فى هذه الآية بقوله (ذكر الدليل بصيغة استفهام الانكار ليبين ان هذه القضية التى استدل بها فطرية ، بديهيـــة ، مستقرة فى النفوس ، لا يمكن انكارها . فلا يمكن صحيح الفطـــرة ان يدعى

---

(٦٠) فتاوى ابن تيمية ج١٢ ص٩ .

وجود حادث بدون محدث احدثه ، ولا يمكنه ان يقول هو احدث نفسه)(٦١).

— النبـــوة :

استوعب ابن تيمية آراء السابقين عليه فى موضوع النبوة والبرهنة عليها ، وقد تدخل فى المواد التى قراها فأضاف اليها وعدل بعضها ، لانه لم يوافق على ما كتبه الرازى — وهو أقرب المتكلمين اليه زمنا .

ويقوم برهانه على اثبات النبوة بعامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومجيئه بالقرآن عند اهل الأرض وتواتر معجزاته واخباره . ويستدل ايضا على نبيه بنسبه المنتهى الى سلالة ابراهيم الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يأت نبى من بعد ابراهيم الا من ذريته ، وجعل له أبنين اسماعيل واسحاق ، وذكر فى التوراة هذا وهذا وهو من قريش صفوة بنى ابراهيم .

وأيضــا يستند الى سيرته وآياته واخلاقه واقواله وشريعته من حين ولد الى ان بعث ومن حين بعث الى ان مات وبتــدبر نسبه وبلده واصله .
فاذا قارن بين تواتر اخبار الفلاسفة واخبار الانبياء ، رجع اخبار الانبياء كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم لأن انباءهم معلومة عند الناس من تواتر وجود أولئك فضلا عن تواتر ما يخبرون به ، ولهذا صار ظهور الانبياء مما تؤرخ به الحوادث فى العالم لظهور امرهم عند الخاصة والعامة ، فان التاريخ يكون بالحادث المشهور الذى يشترك الناس فيه ليعفوا به كم مضى قبله وبعده .

كما يفضلون من حيث اساليبهم فى الاقناع والدعوة ، فيأمرون البشر بما فيه صلاحهم وينهونهم عما فيه فسادهم ، ولا يشغلونهم بالكلام فى اسباب الكائنات كما يفعل الفلاسفة ، فان هذا الاسلوب كثير التعب قليل الفــائدة أو موجب للضرر . ويضرب مثلا على النبى صلى الله عليه وسلم بالطبيب الذى يأمر مريضه بتناول

---

(٦١) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، والسيوطى — صون المنطق ج٢ ص١٣٠ — ١٣١ .

الدواء المفضى الى علاجه ، فيسترد صحته اذا استمع لنصحه ، ولكن الفيلسوف يتجه باهتمامه الى الحديث عن أسباب المرض وصفته وذمة وذم ما اوجبه ولو سأله المريض عن الدواء الشافى لعجز عن الاجابة .

وقد يثار حول من لم تبلغهم الرسالات العصور السماوية ، أو من لم تقم عليه الحجة فى الدنيا بالرسالة كالاطفال والمجانين وأهل الفترات الخالية من الانبياء والرسل — وهنا ، يختار من الاقوال أرجحها ، وخلاصتها أن هؤلاء يمتحنون يوم القيامة فيبعث اليهم من يأمرهم بطاعته ، فان أطاعوه استحقوا الثواب وان عصوه استحقوا العقاب . أما الحجة بالقرآن فقد قامت على من بلغه كما قال تعالى (لأنذركم به من بلغ) فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة فيما بلغه دون ما لم يبلغه .

كما تظهر وظيفة الانبياء — أو دورهم ، ومهامهم — فى كونهم وسائط بين الله وبين عباده فى تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ، وما أخبر به عن نفسه وملائكته وغير ذلك مما كان ويكون .

وتفصح الآيات القرآنية عن الرسول بأنه لا يعلم الغيب وأنه ليس ملكا يملك الخزائن ، وانما هو بشر لا يستغنى عن المأكل والمشرب .

ولابن تيمية كتاب النبوات عالج فيه الموضوع باستفاضة ، كما أشار فى كتب كثيرة ربما أكثرها استفاضة (الجواب الصحيح لمن يدل دين المسيح) اذ عرض فيه لادلة وبراهين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها الادلة العقلية التى استخدمها هرقل ملك الروم ، اذ سأل أبا سفيان قبل اسلامه (كيف نسبه فيكم ؟ قال قال هو فينا ذو نسب قال فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط ؟ قال : لا قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال — لا قال — فاشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم فقال أيزيدون أم ينقصون؟ قال بل يزيدون قال فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد يدخل فيه؟ قال لا قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال — لا قال فهل يغدر قال لا ، قال فهل قاتلتموه ؟ قال نعم قال فكيف كان قتالكم اياه قال الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه قال — فبماذا يأمركم قال — يقول أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة) .

ومن هذه الاجابات كلها تأكد هرقل من نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وفسر اجابات ابى سفيان بالآتى (أن الرسل تبعث فى احساب قومها ولو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك ابيه والضعفاء هم اتباع الرسل وانه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على اللـــه وسأتدل من عدم أرتداد اتباعه عن دينه لأن الايمـــان اذا خالطت بشاشته القلـــوب وانهم يزيدون — فكذلك الايمان حتى يتم ومن الحرب الدائرة بينه وبين قومه وأنها سجال ينالون منه وينـــال منهم دلت على ان الرســـل يبتلون ثم تكون لهم العاقبة الى جانب انه لا يغدر ولم يسبقه احد قبله بقوله — وكذلك اوامره بعبادة الله تعالى أى الصلاة والزكاة والعفاف . قال هرقل فى النهاية (ان يكن ما تقول فيه حقا انه لنبى وقد اعلم انه خارج ولم اكن اظنه منكم ولو اعلم انى اخلص اليه لاحببت لقـــاءه ولو كانت عنـــده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمى(٦٢). صلى الله عليه وسلم .

براءة ابن تيمية من تهمة التجسيم :

بحثنا فيماتقدم موضوع الصفات ورأينا ابن تيمية يسلك مسلكا سلفيا ؛ ولا يمل من ترديد العبارات التى ينقلها عن السابقين حيث اتفق اهل السنة والجماعة على الايمان (بما اخبر الله فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ؛ ومن غير تكييف ولاتمثيل بل هم الوسط فى فرق الامة كما ان الامة هى الوسط فى الامم ، فهم وسط فى باب صفات الله سبحانه وتعالى بين اهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل)(٦٣) .

وفى اثناء مناظرته فى (العقيـــدة الواسطية) التى نوقش فى مضمونها أمام الحاضرين يخبرنا ابن تيمية عن اهم النقاط التى اثاروها فيقول (واخذوا يذكرون نفى التشبيه والتجسيم ويطنبون فى هذا ، ويعرضون **بما ينسبه بعض الناس الينا من ذلك**)(٦٤) .

---

(٦٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جا ص ٩٣ — ٩٤ و ج٤ ص٣١٦ .
(٦٣) مجموعة الرسائل جا ص٤٠٠ .
(٦٤) ن . م ص٤١٦ .

فالشـــيخ اذن كان على علم بما وصفوه به من تهمة التجسيم ، وفى الدفاع عن نفسـه اورد اقوال اصحاب القرون الثلاثة الاولى وكلها تؤيدها ما ذهب اليه وابدى استعداده لامهال من خالفه ثلاث سنين ليأتى ولو بحرف واحد مما ذكره ، وهو على استعداد للرجوع عن عقيدته لو فعل . ثم نفى التشبيه والتجسيم عن اصحاب احمد ، وصاح فى وجه مخالفه لكى يحدد له من يقصد من الحشوية من اصحاب الامام على وجه التحديد (الاثر م٢٧٣ﻫ ابو داود ٢٧٥ﻫ الخـــلال ٣١١ﻫ الترمذى ٢٧٩ﻫ ابو الحســـــن التميمى ابن عقيل ٥١٣ﻫ القاضى ابو يعلى ٤٥٨ ؟!!

ويبدو ان مخالفه لميحر جوابا لأن ابن تيمية دافع بحرارة عن شيوخ الحنابلة مبرئا اياهم من التجسيم . واذا وجد فى القلة منهم ، فان المشبهة والمجسمة فى غير اصحاب الامام احمد أكثر منهم فيهم (فهؤلاء اصناف الاكراد كلهم شافعية ، وفيهم من التشبيه والتجسيم ما لا يوجد فى صنف آخر ، واهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، واما الحنابلة المحضة فليس فيهم من ذلك ما فى غيرهم ، والكرامية المجسمة كلهم حنفية)(٦٥) .

وقد اتهم الشيخ بأنه وقع فى التجسيم ، بينما هو فى الحقيقة قد اعاد الى العقيدة السلفية المتوارثة بواسطة كتب شيوخ المدرسة ، وهى العقيدة المتلقاة منذ الصدر الاول للاسلام جيلا بعد جيـــل وقد اثارت هذه التهمـــة من الجدل قديما وحديثا . وسنتناولها بايجاز لما لها من صلة بحيـــاة الشيخ من جهـــة ، فضـــلا عن انهـــا من الموضـــوعات التى مازلت تثير كثـــيرا من الجدل .

ولا شك ان من يقرا كتب الشيخ ورسائله المتعددة ، سرعان ما يتضح له براءته مما يلصق به ، والادلة كثيرة ومتنوعة ، سواء من كلمـــاته التى نقراها له فى كتبه نفسها — فضلا عن المصادر التى تجل عن الحصر فى هذا المقام ، والتى تجمع كلها على ان ائمة المسلمين منذ الصحابة والتـــابعين قد تلقوا هذه العقيدة بالقول ، وهى اثبات الصفات التى اثبتها الله تعالى لنفسه

(٦٥) ابن تيمية .مجموعة الرسائل الكبرى جا ص٤١٨ .

بلا تمثيل او تعطيل او تأويل ، ونفى ما نفــاه عن نفسه ، مستندين فى ذلك الى الآيات والاحاديث .

وقد نوقش ابن تيمية فى قوله بأن الله تعــالى مستو على العــرش حقيقة بذاته بلا تكييف ولا تشبيه ، وجاء ضمن حججه المؤيدة له قوله (أنا قد احضرت اكثر من خمسين كتابا من كتب اهل الحديث والتصوف والمتكلمين والفقهاء الاربعة والحنفية والمالكيــة والشافعية والحنبلية يوافق ما قلته . وانا امهل من خالفنى ثلاث سنين أن يجيىء بحرف واحد عن ائمة الاســلام يخالف ما قلته)(٦٦) .

ودافع عن نفسه بقوله ايضا (انى لم اقل شيئا من نفسى ، وانما قلت ما اتفق عليه سلف الامة وائمتها) .

أما القول المنسوب اليه بواسطة ابن بطوطة وقوله (إن اللــه ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة(٦٧) .
فقد أثبت التحقيق العلمى الدقيق انه محض افتراء ، وهو يرجع اولا الى انه نوع من حديث القصاصين والرواة الذين يطلقون الروايات على عواهنهــا دون تحقيق أو ضبط ، فضلا عما اثبته الشيخ محمد بهجة البيطار فى كتــابه (حياة شيخ الاسلام ابن تيمية) من تهافت هذه الواقعــة وعدم صحتها ، لعدة أسباب ، **منها أن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمـــع به** ، ومرجحا أن نصرا المنبجى هو الذى اشاع مسألة النزول عن الدرج (ينظــر كتاب البيطار من ص ٤٦ الى ص ٥٣) . كذلك ينظر مقدمة كتاب (مجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية) بقلم عبد الصمد شرف الدين طبعة الهنــد (بمباى) .

ومن حيث المضمون ، فان مؤلفات الشيخ بين أيدينا ، وهى مع كثرتها خالية من اى بادرة تشير الى التشبيه او التجسيم ، بل انه يحــرص فى كل

---

(٦٦) « ص٥٥ من كتاب محنة شيخ الاسلام ابن تيمية فى سجنه ودفاعه عن نفسه » مجموعة علمية بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .
(٦٧) ص ٥٧ من رحلة ابن بطوطة جـ١ الطبعة الازهرية ، طبعة أولى

المواضع على تأكيد التنزيه ، واثبات الصفات بلا كيف . وكيف يتهم الشيخ بالتجسيم وهو نفسه يرى ان (لفظ الجسم ، والجوهر ، ونحوهما لم يأت فى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسائر ائمة المسلمين — التكلم فى حق الله تعالى لا بنفى ولا باثبات(٦٨) .

ويحلل ابن تيمية اقوال المعتزلة مفندا لها ناقدا اياها ، حيث ينبه الى العبارات المجملة التى يستخدمونها ويوهمون بها انه يريد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين بينما الفاحص لحقيقة اقوالهم يصل الى فهم مقصودهم بنفى صفات الله تعالى قال : وهذه المسألة كانت المعتزلة تلقبها بمسألة **(حلول الحوادث)** وكانت المعتزلة تقول (ان الله منزه عن الاعراض والابعاض والحوادث والحدود ، ومقصودهم نفى الصفات ونفى الافعال ، ونفى مباينته للخلق وعلوه على العرش، وكانوا يعبرون عن مذاهب اهل الاثبات اهل السنة بالعبارات المجملة التى تشعر الناس بفساد المذهب ، فانهم اذا قالوا (ان الله منزه عن الاعراض) لم يكن فى ظاهر هذه العبارة ما ينكر ، لأن الناس يفهمون من ذلك انه منزه عن الاستحالة والفساد كالاعراض التى تعرض لبنى آدم من الامراض والاسقام ، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ، ولكن مقصودهم انه ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا كلام قائم به ، ولا غير ذلك من الصفات التى يسمونها هم اعراضا .

وكذلك اذا قالوا ان الله منزه عن الحدود والاحياز والجهات) اوهموا الناس ان مقصودهم بذلك انه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ومقصودهم انه ليس مباينا للخلق ولا منفصلا عنه ، وانه ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش اله ، وأن محمدا — صلى الله عليه وسلم — لم يعرج به اليه ، ولم ينزل منه شىء ولا يصعد اليه

---

(٦٨) ص٣١٣ من مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج١٧ وينظر أيضا على سبيل المثال مقالته بعنوان (الرد على القائلين بأن الله — عز وجل — جسم) الرد على المنطقيين ص٢٢٤ .

شىء ، ولا يتقـــرب الى شىء ، ولا ترفع اليـــه الايدى فى الدعاء ولا غيره ، ونحو ذلك من معانى الجهمية)(٦٩) .

ويتضح من هذا التحليل المقارن فهم ابن تيمية للالزامات التى تؤدى اليها نفى صفات الله تعالى ، ومعرفته بأن الاصـــل الجهمى الذى اخذ بـه المعتزلة وغيرهم هو ما يسمونه بمســـألة (حلول الحوادث فى ذات اللـــه تعالى) ، ومحاولتهم ارغام مخالفيهم بالقول بأقوالهم والا اتهموهم بالتشبيه والتجسيم .

ونظرا لترابط النتائج التى حاول بها المعتزلة ومن سار على طريقهم ، فان مســـألة (التجسيم) تتصـــل ايضـــا بهـــذا الاصل المأخوذ من جهم بن صفوان . وهنا يقول ابن تيمية :

(واذا قالوا (انه ليس بجسم) اوهموا النـــاس انه ليس من جنس المخلوقات ، ولا مثل ابدان الخلق ، **وهذا المعنى صحيح** ، ولكن مقصودهم بذلك انه لا يرى ولا يتكلم بنفسه ، ولا يقوم به صفة ولا هو مباين للخلق ، وأمثال ذلك .

واذا قالوا (لا تحله الحوادث) اوهموا الناس ان مرادهم انه لا يكون محلا للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الاحداث التى تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم ، وهذا معنى صحيح ولكن مقصودهم بذلك انه ليس له فعل اختيارى يقوم بنفسه ، ولا له كلام فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته ، وانه لا يقدر على استواء او نزول او اتيان او مجىء ، وان المخلوقات التى خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل اصلا ، بل عين المخلوقات هى الفعـــل ، ليس هنـــاك فعل ومفعول وخلق ومخلـــوق ، بل المخلـــوق عين الخلق ، والمفعول عين الفعل ، ونحو ذلك)(٧٠) .

أما اذا قيل بأن اعتقاد الشيخ بجواز حلول الحوادث فى الذات الالهية يؤدى الى التجسيم ، فان هذا من نوع الالزام الذى لا يسلم به ابن تيميـــة

---

(٦٩) ابن تيمية موافقة .. ج٢ ص٧ .
(٧٠) نفس المصدر ص٨ .

وقد كتب مئات الصفحات ليفند الاصل الجهمى الذى يستند اليه المتكلمون بقولهم ان (ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث) ، لاثبات حدوث الاجسام باعتبار ان الصفات اعراض وبهذه الطريقة نفوا صفات الله تعالى .

وقد اسهب الشيخ فى كتبه ومناقشاته فى بيان خطأ هذا الاصل ، كما انه صرح فى اكثر من موضع ان صفات الله تعالى ليست اعراضا وليست حادثة .

واذا ذهبنا نستقصى النصوص النافية لهذه التهمه عن الشيخ لما كفانا هذا الكتاب بأكمله ، ولكننا سنختار بضعة اقوال للشيخ تفيد القارىء فى اجتثاث تهمة التجسيم من جذورها ، فانه يقول مرة (وما ذكرت من اجتهاد الراى فى تكييف صفات الله ، فانا لا نجيز اجتهاد الراى فى كثير من الفرائض والاحكام التى نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا ، فكيف فى صفات الله التى لم ترها العيون وقصرت عنها الظنون ؟!! غير انا لا نقول فيها كما قال المريسى ان هذه الصفات كلها شىء واحد)(٧٧) .

كذلك خصص الشيخ كتابا بأكمله شارحا ومفندا اقوال المذاهب والفروق جميعا سماه (شرح حديث النزول) ، قال فيه بالحرف الواحد (والذى يجب القطع به أن الله ليس كمثله شىء فى جميع ما يصف به نفسه ، فمن وصفه بمثل صفات المخلوقين فى شىء من الاشياء **فهو مخطىء قطعا** ، **كمن قال : انه ينزل فيتحرك وينتقل كما ينزل الانسان من السطح الى اسفل الدار** ، فهذا باطل يجب تنزيه الرب عنه كما تقدم . وهذا هو الذى تقوم على نفيه وتنزيه الرب عنه الادلة الشرعية والعقلية ، فان الله سبحانه وتعالى قد اخبر انه الاعلى وقال (سبح اسم ربك الاعلى) ، فان كان لفظ العلو لا يقتضى علو ذاته فوق العرش لم يلزم أن يكون على العرش وحينئذ **فلفظ النزول ونحوه يتناول قطعا** اذ ليس هناك شىء يتصور فيه النزول ، وأن كان لفظ العلو يقتضى علو ذاته فوق العرش ، فهو سبحانه الاعلى من كل شىء ، كما انه اكبر من كل شىء(٧٢) .

---

(٧١) ابن تيمية — شرح العقيدة الاصفهانية ص٣٥ .
(٧٢) شرح حديث النزول ص١٨٩ .

وليس هناك أوضح وادق واصرح من هذا البيان للدفاع عن شـــيخ الاسلام وتبرئته من تهمة التجسيم .

ونرى بعد ذلك استكمال الحديث عن المنهج الذى عاش ابن تيمية من أجل توضيحه ولفت الانظار اليه وحث المسلمين — خاصتهم وعامتهم — الى اتباعه والاستضاءة به اذ أن العـــلاقة بين اجتهادات شيخ الاســـلام وبين قضايا أصول الدين لم تنقطع بموته ، فهى تمتد لكل الاعصار لأن محـــورها يتمثل فى أهم قضية للانسان ويترتب عليها النتيجـــة الحاسمة فى مصيره ، أى قضية الايمان بالله تعالى وعبادته والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والعقاب والملائكة وغيرها من كائنات عالم الغيب وحقائقه حيث لا تكتمل المعرفة الانسانية الحقة الا بعد الاحاطة بها مقترنة بالعبادة والاستسلام لله تعالى وحده .

ولهذا فان دراسة اجتهادات شيخنا تصبح متجددة أبدا لأنها تتصـــل بأهم ما ينبغى أن يشغل الانسان اذا ما تطلع الى مبدئه ومعاده وســـبل تحقيق سعادته .

وكان من دواعى اطمئنان ابن تيمية ويقينه — بل تفاؤله رغم العوامل التى عاشها وكانت مثبطة للهمم ، ان الاسلام يحمل فى ذاته بعناية الله تعالى وحفظه وظهوره الى قيام الســـاعة . قال الشيخ (وذلك إن الله تبـــارك وتعالى اكمل الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وبينه وبلغه البلاغ المبين ، فلا تحتـــاج امتـــه الى احد بعده بغير شيئا من دينه ، وانما تحتاج الى معرفة دينه الذى بعث به فقط ، وامته لا تجتمع على ضلالة ، بل لايزال فى امته طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة فان الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فاظهره بالحجة والبيان واظهره باليـــد واللسان . ولايزال فى امته أمة طاهرة وهذا حتى تقوم الساعة(٧٣) .

---

(٧٣) ابن تيمية — الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ١ ص١٢٤ مطبعة المدنى .

وكل ما تحتاجه الامة اذن ، هو معرفة الدين بالمنهج الذىوضعه الله تعالى فى كتابه وبالهدى النبوى الحق ، وصحة المنهج ليست مرتبطة بعصر من العصور او بمصر من الامصار ، بل صحته ثمرة اصوله ويقينية براهينه ؛ وما على المسلمين الا اتباعه .

وسننظر فى الباب القادم ، كيف وقف هذا المنهج شامخا ثابتا لمواجهة التحديات .

الباب السابع

القضايا الكلامية فى العصر الحاضر

ـ المشكلات الكلامية فى ضوء التفسير التاريخى .

ـ مسائل الاجماع فى العقيدة والعبادات .

ـ الالتقاء بالغرب وآثاره على القضايا الكلامية .

ـ ما هى الحضارة ؟

ـ صلة العلم بالدين فى العصر الحديث (أو العلاقة بين المادة والروح) .

ـ المشكلات الكلامية الطائفية فى العصر الحديث .

ـ ملامح الفكر الاسلامى المعاصر .

ـ الاسلام والعلم .

القضايا الكلامية فى العصر الحاضر

المشكلات الكلامية فى ضوء التفسير التاريخى :

كانت الموضوعات الآنفة من هذه الدراسة بمثابة ايضاح للمنهج الذى استخدمه الاوائل والسائرون على طريقهم ، وقد رأينا كيف اتخذ علماء السلف من القرآن والسنة سلاحا لحماية العقيدة ، واثبتوا ان هذا المنهج افضل واحكم من منهج المتكلمين .

ولكن بعد انقضاء القرون ، وابتلاء الامة الاسلامية بمحن وتجارب استهلكت طاقات ضخمة من قواها البشرية والاقتصادية والعسكرية ، وتراوحت خلالها مكانتها الحضارية — التى احتلتها عن جدارة طيلة عدة قرون — بين مد وجزر ، ثم تحطم اخيرا — فى بداية القرن الحالى فقط — كيان دولتها بالغاء الخلافة ، واصبحنا الآن ، ربما اكثر اقتناعا من اى وقت مضى بمخاطر الخلافات وتصارع الفرق الاسلامية وتشتت الجهود وبعثرة القدرات .

وبسبب الثغرات الخلافية الجسيمة ضاعت الاندلس وتسللت الشيعة الباطنية الى حكم مصر والمغرب والشام والبحرين ، وسقطت بغداد تحت سنابك خيل التتار عام ٦٥٦هـ ، ثم كانت الخاتمة — لهذا السبب ولغيره من الاسباب — نجاح الاستعمار الغربى فى اواخر القرن السادس عشر فى عقد الانشوطة حول المسلمين — كما يذكر ارنولدتوينبى — وذلك بفضل غزوه للمحيط ، وبعدها ضيق الغرب الانشوطة فى القرن التاسع عشر(١) فاذا انصتنا الى صوت آخر ، ارتفع من وراء القرن الثامن الهجرى — وهو ابن تيمية — وجدناه يبرهن فى ايجاز على أن العقيدة المتلقاة عن الاوائل فى شمولها وكمالها ، انتجت اجيالا مؤمنة دافعت عنها وعضت عليها بالنواجذ . وظهر السر فى استمساك اهل السنة والجماعة بها انهم عرفوا انها المعبرة عن صدق العقيدة المتلقاه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل انحراف

---

(١) ارنولد توينبى : الاسلام .. والغرب .. والمستقبل ص١٩ ط دار العربية — بيروت ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩ م .

عنها او ميل بها ذات اليمين او ذات اليسار ، سيفقدها قوتها فى القلــوب والصدور ، فضلا عن انحرافها عن أصول الايمان والاسلام الصحيح .

والتطبيق التاريخى لهذه القاعدة يوضح انتصار المسلمين عندما كانت غالبيتهم مستمسكة بهذه الاصول ، وبالعكس انهزامهم وانحدار حضـــارتهم عندما تفشت العقائد الزائفة .

ولتقريب المعنى الى اجيالنا الشابة ، فان العقيدة هى حجر الزاوية وقطب الروحى لحضارة الاسلام ، شأنها فى ذلك شأن الايدولوجية فى العصر الحديث ، فان عقيدة المسلمين هى (ايدلوجيتهم بالاصطلاح الغربى) الثابتة الدائمة ، بها سادوا ، وبها اقاموا حضارة انارت العالم ، وســارت معهم اينما كانوا فى عصور مجدهم وانتصاراتهم ، وعندما انحرفوا عنها وتركوها وراء ظهورهم انطفــأ نور الحضــارة ، وتقهقروا الى الوراء ، وذلوا أمام غيرهم .

وكانت هذه الظاهرة تتدرج على مراحل للمتتبع لتــاريخ المسلمين . يقول ابن تيمية (ونجد الاسلام والايمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها اظهر واقوى ، وان ظهر شىء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك ، مثل دولة الهدى والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الاسلام والايمان ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين ، كان اهل السنة فى تلك الايام اقوى واكثر وأهل البدع اذل واقل(٢) .

وبمثــل هذه القاعدة ينتقل الى النظر الى تاريخ المسلمين بعــامة ، فيبرهن ابن تيمية على ان اتبــاع محمد صلى الله عليــه وسلم ادعى للعلم والتوحيد والسعادة . ويعنى بذلك المقارنة بين اصحابه والتابعين لهم ، وبين

(٢) ابن تيمية — نقض المنطق ص١٨ — ١٩ .
وفى منهــاج السنة جـ٢ ص١٤٩ يقــول (فان الكفــار بالشام وخراسان طمعوا وقت الفتنة فى بلاد المسلمين لاشتغال المسلمين بعضهم ببعض) .
وينظر تفسيره التاريخى بكتابنــا (قواعد المنهــج السلفى فى الفكر الاسلامى ص١٢٥) ط دار الانصار ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .

المتكلمين وفلاسفة المسلمين ، ويقف امام الاحداث التاريخية فيعللها بسبب مخالفة الاصول الاسلامية فى القرآن والحديث ، فيرى أن انقراض دولة بنى امية كان بسبب الجعــد بن درهم والجهم بن صفوان ، الى جانب أسباب اخرى أوجبت ادبارها .

ويعنى بذلك أن العقيدة عندما خمدت فى النفوس وفقدت فاعليتها عما كانت لدى المسلمين الاوائل ، ظهر الضعف فى الامة . اذ تحولت العقيــدة الراسخة من قوة محركة ناجمة عن اقتناع عقلى ويقين قلبى الى مجرد أفكار جدلية تتطاول الى الحديث عن الذات الالهية ، ففقدت القلوب الهيبة . ولما تضاءلت العقيدة فى النفوس واصابها الوهن ، وتحولت الى مناقشات وجدل كلامى وفلسفى ، وظهر النفــاق والبدع والفجــور ، هان المسلمون على أعدائهم ، فغزى الصليبيون أراضى الاسلام ، واستولوا على بيت المقدس فى أواخر المائة الرابعة(٣) وكذلك الامر بالنسبة لحــروب التتــار ، حتى أن البعض رأى أن هولاكو ملك التتار بمثابة بخت نصر لبنى اسرائيل ، مستندين إلى تفسير سورة بنى اسرائيل التى توعدهم فيها الله تعالى اذا أفســدوا فى الارض(٤) .

ويمضى شيخ الاسلام فى تفسير الاحداث التاريخية وفقا لهذه القاعدة ، فيذكر أن محنة خلق القرآن كانت بداية لتشجيع القرامطة الباطنية فى اظهار آرائهم ، بعد ترجمة كتب الفلسفة ، ولما رأت الفلاســفة أن المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيتــه هو هذا القــول الذى يقــوله المتكلمون الجهمية ومن اتبعهم ، ورأوا أن هذا القول الذى يقولونه فاســد من جهة العقل ، طمعــوا فى تغيير الملة ، فمنهم من اظهــر انكار الصانع ، واظهر الكفر الصحيح ، وقاتلوا المسلمين ، واخذ قرامطة البحرين الحجــر الاسود(٥) ، ولم يقتصر الامر على انتصار الخصــوم فى مجال الحــروب فحسب ، بل امتد الخطب الى مجال الفكرة والعقيدة ، لأن فتح باب القياس الفاسد فى العقليات بواسطة المتكلمين ، شجع الزنادقة على المضى فى تنفيذ

(٣) الفرقان بين الحق والباطل ١٢٠ — ١٢٢ .
(٤) ن . ص١٢٠ — ١٢١ .
(٥) شرح حديث النزول ص١٧٣ .

مخططاتهم ، فانتهى بالقرامطة الى ابطال الشرائع المعلومة كلها ، كما قال لهم رئيسهم بالشام : قد أسقطنا عنكم العبادات فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة(٦) .

وقبل الانتهاء من هذه اللمحة لموقف ابن تيمية من التاريخ ، فاننا نعجب من تفاؤله بينما كان فى وسط ظروف حالكة الظلام ، ومع هذا فانه يقدم تفسيراً لحديث (ان الله يبعث لهــذه الامة فى راس كل مائة سنة من يجــدد لهــا دينها) ، فالتجديد انما يكون بعد الدروس ، وذاك هو غربة الاســلام ، ثم يحاول ادخال الطمأنينة على القلوب بقوله (وهذا الحديث يفيد المسلم انه لا يغتم بقلة من يعرف حقيقة الاسلام ، ولا يضيق صدره بذلك ، ولا يكون فى شك من دين الاسلام ، كما كان الامر حين بدأ ، قال تعــالى « فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » الى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الاسلام(٧) . ولكنه فى الوقت نفســه يحذر من **مخالفة** الاوامر الالهيــة ، لأن الذنوب تورث الهــزائم والكوارث للمسلمين ، كالهزيمة التى أصابتهم يوم احد .

وهكذا يعود بنا الى نفس الاصــل الذى يفسر به التــاريخ ، ويعلل المقصود بقصص بنى اسرائيل فى القــرآن اتخــاذهم عبرة لنا ، مستشهدا ببعض السلف القائلين (ان بنى اسرائيل ذهبوا وانما يعنى انتم) .

مسائل الاجماع فى العقيدة والعبادات :

وفى ضوء هذه التفسيرات التاريخية والعبرة مما حدث ، فان الحكمة تقتضى التخفيف من غلواء التفرق ، مع تلمس مسائل الاجماع بين المسلمين لأن الاحوال المعاصرة تجعــل من الاستمرار فى بث الفــرقة لونا من الوان التدمير العقائدى والحضارى للمسلمين كافة .

وقد رأينا خلال البحث نتائج بارزة تثبت من ناحية ما يلى :

---

(٦) ن . م ص١٦٩ (وينظر ايضا ص ١٦٣ و ١٦٥) .

(٧) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ج١٨ ص٢٩٨ — ٢٩٩ ط الرياض .
ومن الامثال السائرة (اياك اعنى واسمعى يا جارة) .

أولا : عودة ائمة الاشاعرة الى المنهج السلفى بعد المعاناة الطويلة فى طريق التأويل الكلامى .

ثانيا : اجماعهم — بالاتفاق مع علماء السنة والحديث — على ان ادلة الشرع متوافقة مع قوانين العقل وموازينه ، ومن ثم اصبح ضروريا جمع المسلمين حول المادة العظمى : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن ناحية اخرى ، نود فى ختام هذا البحث اضافة اكثر العوامل أهمية ، وابرزه والالتفاف حوله ، ونعنى به عناصر الوحدة التى تجمع بين المسلمين قاطبة ، لأن تحليل عناصرها يثبت انها تفوق اسباب الخلاف والفرقة .

اضف الى ذلك أن المشكلات الكلامية المثارة فى الماضى نشأت عن أسباب وعوامل نبعت من البيئة الثقافية حينذاك ، وقد قتلت بحثا وتحليلا ومناقشة وظهر فيها الحق بين المذاهب والفرق ، وربما كانت محتملة عندما كانت الحضارة الاسلامية سائدة ،

أما وقد آل الحال الى ما نحن عليه ، فلم يعد من المحتمل اثارة هذه المشكلات من جديد .

وقد سبقنا علماء الحديث والسنة الى توجيهنا الى هذا الاصل الجامع ، منهم ابن حزم بكتابه (مراتب الاجماع فى العبارات والمعاملات والاعتقادات) وعنوانه يشير الى مضمونه ، يعنينا ما سجله فى باب الاعتقادات ، قال :

(اتفقوا ان الله عز وجل وحده لا شريك له خالق كل شىء غيره ، وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شىء غيره معه ، ثم خلق الاشياء كلها كما شاء ، وان النفس مخلوقة ، والعرش مخلوق ، والعالم كله مخلوق ، وان النبوة حق ، وانه كان انبياء كثير منهم من سمى الله تعالى فى القرآن ومنهم من لم يسم لنا ، وان محمد بن عبد الله القرشى الهاشمى المبعوث بمكة المهاجر الى الى المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جميع الجن والانس الى يوم القيامة .

وان دين الاسلام هو الدين الذى لا دين لله فى الارض سواه ، وأنه ناسخ لجميع الاديان قبله ، وانه لا ينسخه دين بعده ابدا ، وان من خالفه ممن بلغه كافر مخلد فى النار ابدا ، وان الجنة حق وانها دار نعيم ابدا لا تفنى ولا يفنى اهلها بلا نهاية ، وانها اعدت للمسلمين والنبيين المتقدمين واتباعهم على حقيقة ما اتوا به قبل ان ينسخ الله تعالى اديانهم بدين الاسلام .

وان القرآن المتلو الذى فى المصاحف بأيدى الناس فى شرق الارض وغربها من أول (الحمد لله رب العالمين) الى آخر (قل اعوذ برب الناس) هو كلام الله عز وجل ووحيه انزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مختارا له من بين الناس وانه لا نبى مع محمد صلى الله عليه وسلم ولا بعده ابدا .

الى أن يقول (واتفقوا انه منذ مات النبى صلى الله عليه وسلم فقد انقطع الوحى وكمل الدين واستقر وانه لا يحل لأحد ان يزيد شيئا من رايه بغير استدلال منه ، ولا ان ينقص منه شيئا ولا أن يبدل شيئا مكان شىء ولا أن يحدث شريعة ، وان من فعل ذلك كافر ، واتفقوا أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صح انه كلام بيقين فواجب اتباعه ...)(٨) .

وكذلك العبادات ، هناك اجماع فى أمور رئيسية لخصها ابن تيمية كما يلى :

وذلك مثل اجماعهم على أن محمدا صلى الله عليه وسلم ارسل الى جميع الامم ، وكذلك اجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام فى صلاتهم .. وكذلك الاجماع على وجوب الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت العتيق ، اجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة وتحريم الخبائث وايجاب الطهارة للصلاة ، فان هذا كله مما نقلوه عن نبيهم ، وهو منقول عنه صلى الله عليه وسلم نقلا متواترا ، وهو مذكور فى القرآن)(٩) .

---

(٨) ابن حزم — مراتب الاجماع فى العبادات والمعاملات والاعتقادات ص١٦٧ — ١٧٥ باختصار ط دار الكتب العلمية — بيروت .

(٩) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جا ص١٢٤ — ١٢٥ ط المدنى — بدون تاريخ .

لذلك ينبغى أن تخف أصوات الخـلافات ويجتمع المسلمون على مادة الاســلام العظمى : كتــاب الله وسنة رســوله صلى الله عليــه وسلم والاسترشاد باجتهادات علماء الحديث والسنة ، لاسيما وقد جدت تحديات فى هذا العصر تقتضى منهم الوقوف جبهة واحدة .

ولما كانت حضارة العصر الغالبة هى الحضارة الغربيــة ، فيجــدر الاشارة باختصار الى اثر الالتقاء بها فى محيط المشكلات الكلامية .

فكيف حدث الالتقاء ؟ وما هى آثاره فى الماضى والحاضر ؟

الالتقاء بالغرب وآثاره على القضايا الكلامية :

يحدد توينبى اللقاء الاول بين الاسلام فى الماضى عندما كان المجتمــع الغربى فى دور طفولته بينما كان الاسلام الدين المميز للعــرب فى عصرهم البطولى ، وكان العرب قد فرغوا من فتح وتوحيد البلاد التى كانت مهــد الحضارات القديمة فى الشرق الاوسط ، وكانوا يحــاولون توســيع هذه الامبراطورية — كما يراها — لتصبح دولة عالمية ، وينتهى المؤرخ الانجليزى الكبير الى التقرير بأنه فى هذا اللقاء الاول اكتسح المسلمون نصف المجتمــع الغربى تقريبا وكادوا يفرضون سيادتهم على البلاد الغربية كلها(١٠) .

وفى التنابذ والمعارضة لآثار اليونان الفلسفية ، ظهــرت المعارضــة الشديدة بواسطة علماء السنة والجماعة ، وربما شكلت آثار المعارضــة للفلسفة اليونانية آثارها فى صفحات الكتب وكانت احد عوامل ظهور الافكار والاصطلاحات المترجمة كالجوهر الفرد والحدوث والقدم ، فضلا عن آثار المنطق الارسطاليسى وردود الفعل الذى احدثه بين الآخذين به كالغزالى وغيره من بعض علماء أصو لالفقه ، والمعارضين له كابن تيمية ومن سبقه من علماء السنة والحديث الذين اعلنوا (انه من تمنطق تزندق) .

وبوجه عام ، كان التنافر بين العقيدة الاسلامية والفلسفة معبرا عن اختلاف بين حضارتين . يقول الاستاذ الدكتــور عبد الرحمن بدوى (واذا رأينا الاتجاه العام لروح الحضارة الاسلامية ينفر نفورا شديدا من التراث

---

(١٠) آرنولدتوينبى — الاســلام .. والغــرب .. والمستقبل ط دار العربية بيروت ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م ص١٢،١٩ .

اليونانى فيحمل عليه حملة عنيفة شعواء هى رد فعل قوى لهذه الروح ضد روح حضارة اخرى ، شعرت بما بينها وبينها من تباين يكاد يصـــل الى حد التناقض)(١١) .

وفى ضوء هذا التحليل الدقيق ، تزداد معرفتنا لاسباب معارضة علماء السنة والجمـــاعة لآراء المعتزلة المستمدة من فلاسفة اليـــونان ، ولنفس السبب أيضـــا سنرى كيف تكونت معارضـــة علمـــاء المسلمين للفلسفة الغربيـــة وتصوراتها عندما حدث الالتقاء الثانى الذى بدا منـــذ القرن السادس عشر الميلادى فى شكل غزوات وحروب استعمارية متوالية ظلت نحو ثلاثة قرون ، بدات بشكل حاسم — كما يذكر توينبى — فى أواخر القـــرن السادس عشر وأوائل السابع عشر — وحسب تعبيره الذى اسلفناه قال (لم يقتصر الامر على الاحداق بالعالم الاســـلامى . . ولكن امكن تطويقه تماما ، ثم يستطرد قائلا (وضع الطوق حول رقبة الفريسة) !!

ولكن مما يدهشـــه — وغيره من المؤرخين والباحثين — ان العـــالم الاسلامى قد استطاع ان يصمد للعدوان الاوربى طوال القرون من الخامس عشر حتى الثامن عشر ويعزو صموده المذهل الى ما يصفه (بالاعتداد بالذات التى رسبت فى عقل المسلمين الباطن بفعل الامجاد الرائعة التى حققوها فى إبان عصور الازدهار الاسلامية) . ويدهشنا هذا التعليل — مع وجاهته — الا أنه يغفل ذكر العامل الاساسى المباشر المتمثل فى العقيـــدة ، لاسيما أنه يرى عند بحث الاسلام — كعقيدة دينية بالحضـــارة الاسلامية — ان هذه الحضارة قد ولدت مع العقيدة الدينية!!(١٢)

وفى ضوء هذه الاحداث التاريخيـــة حتى العصر الحاضر تتشكل ملامح الفكر الاسلامى المعاصر ، ويظهر طبيعة القضايا (الكلامية) المثارة .

---

(١١) د . عبد الرحمن بدوى — التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية — المقدمة — ط دار النهضة العربيـــة بالقـــاهرة سنة ١٩٦٥ م

(١٢) فؤاد محمد شبل — حضارة الاسلام فى دراية توينبى للتـــاريخ ص٣٩ ، ٦١ المؤسسة المصرية العامة — المكتبة الثقافية (العدد ٢١١) ١٩٦٨م

لذلك يجدر بنا اعطاء فكرة عامة عن حضارة العصر وسماتها البارزة ، وسنبدأ بتعريف الحضارة :

ما هى الحضـــارة ؟

لفظ « الحضارة » من الالفاظ التى اختلف الباحثـــون حوله ، ولعله خضـــع بدوره للثقافة والبيئة والاحوال الاجتماعيـــة والاقتصادية للمفكرين والفلاسفة الذين قاموا بتعريف الحضارة فكثيرا ما تعكس الافكار والنظريات ظروف العصور وأحواله اما تأييدا أو معارضة او تعديلا .

ويمكنـــا طرح وجهتى النظـــر الرئيسيتين حول تعـــريف الحضـــارة كما يأتى : —

أحدهما ، يعنى بطرق الثقافة والقيم الاخلاقيـــة والآداب والفنـــون ، والثانى ، يعنى بالمنجزات والاعمال التى حققها الانسانفى مجـــال التشييد والبناء والانتاج الصناعى والزراعى ، أو بعبارة أخرى (التكنولوجيا) أى استخدام النتائج المكتشفة بالتجارب العلمية فى مجـــالات الحياة المختلفـــة والاستفادة بها .

وتبسيطاللتعريف الثانى وتوضيحه ، فان الحضارة بهذا المعنى تعتبر عنوانا على كل ما أحدثه الانسان او ابدعه أو بدله فى كائن طبيعى ، وجعـــل له قيمة .

وأبسط مثال على ذلك ان الحجر الذى نجده فى الطبيعة كما خلقه الله تعالى هو طبيعى ، بينما الحجر الذى صقلته يد الانسان لتستخدمه فى أمر ما هو حضارى(١٣أ) .

ولكننا نرى نقص هذا التعريف،لأنه يشير فقط الى ما استحدثه الانسان فى العالم الطبيعى من تغييرات تعبر عن مواهب الانسان وامكانياته العقلية والجسدية وتكشف عن رغبة الانسان فى تذليل الصعاب التى تعترضه أثناء رحلة حياته الطويلة فى الدنيا ، حيث قام السدود للاستفادة من فيضـــانات الانهار ، وقطع أشجار الغابات ليحولها الى أراضى زراعية ، وتسلح ضد

(١٣أ) د . جورج عطية : من حضارتنا ص١٦ .
منشورات دار النشر الجامعية — بيروت سنة ١٩٥٦ .

الحيوانات المفترسة ليأمن على نفسه واولاده وعشيرته الى تشييد المنازل ورصف الطرق واختراع الآلات . ولعلنا نعيش الآن أرقى مرحلة اجتازها الانسان ، ولكننا لا نغفل أيضا أعمال الانسان فى مجالات الحروب والتدمير ، فكلها من قبيل تدخل الانسان فى (الطبيعة) ، فهل تعد أيضا من الاعمال الحضارية ؟ فما حكم صنع القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ النووية والاشعاعات القاتلة المهلكة ؟

اننا نرى ان أعمال الانسان الحضارية « واللاحضارية » تعبر عن مداركه وقدراته الى جانب غرائزه وشهواته ودوافعه ، فاذا كان يبنى وينشىء لجعل الحياة اسهل واجمل وامتع مدفوعا بالقيم الاخلاقية ومستهدفا اقامة الحق والخير والعدل فانه يقيم حضارة حقيقية يسعد فى ظلها الناس ، فانه يخترع الاسلحة المدمرة ليقتل ويفتك بأعدائه وقد يعتدى على غيره ويفرض ارادته وينهب الخيرات ويستولى على أراضى غيره وممتلكاته طمعا وحسدا واشباعا لشهوة السيطرة والامتلاك والتعالى.

واستكمالا للحديث عن الحضارة فاننا لا نستطيع دفع المخاطر عن تصور الحضارة المعاصرة التى يحيا فى ظلها بالتقليد والمحاكاة (١٣*) ، كما لا نستطيع فى مجال المقارنة بينها وبين الحضارة الاسلامية اغفال حالة التأخر التى تحياها المجتمعات — التى كانت فى يوم ما معبرة عن الحضارة الاسلامية ابان القرون الخوالى !!

ومهما يكن من أمر ، فقد كان اصطدام الحضارتين امرا حتميا توجيه اختلاف العقائد والتصورات والقيم والنظم وهو أمر حتمى لسنن الله تعالى فى قيام الامم وسقوطها قال تعالى (لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) الآية (البقرة — الحج) ، نجم عنه تفاعل مشكلات (كلامية) بالمصطلح المعروف، **اذ أن الهزائم فى الميادين العسكرية لم يمنع علماء** الاسلام من التصدى للحضارة الغازية ونقدها من واقع الاصول الاسلامية فى الكتاب والسنة

(١٣*) يرى ابن خلدون بعد تحليله للنفس الانسانية أن المغلوب يتشبه بالغالب فى شعاره وبخلقه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها وأشكالها بل وفى سائر احواله وعوائده .
المقدمة : الفصل الثالث والعشرون .

فضلا عن المنجزات التى حققها المسلمون عندما كانت حضارتهم هى السائدة والقـــائدة .

ولعل الترتيب المنطقى فى موضوعنا يلزم تسلسل الافكار بحيث نبـدأ بتعريف **مسمات الحضارة** المعاصرة واثرها على الفـــكر الاســـلامى تأييدا أو معارضة مما نجم عنه ظهور قضايا لازالت موضع البحث والجدال .

ولعلنا نصل الى هدفنا من خلال بيان نقد هذه الحضـــارة أن التقـــدم الصناعى والتجارة العالميـــة هما اللذان اديا الى وقوع الحـــرب العالميـــة الاولى ، كما أن الاختراعات التى وضعت فى أيدى الجيوش جعلت الحـــرب ذات طابع مدمر فأصبح الغـــالب والمغلـــوب ســـيان . ثم ان الانجـــازات التكنولوجية جعلت الدول فى وضع يسمح لها بالقتـــل من مســـافة بعيـــدة والقضـــاء على اعداد ضخمة من الناس كالاشـــعاعات والاسلحة السامة وغيرها .

ويستخلص — شـــنيزر — من هذا كله ان الانجـــازات المادية ليست حضارة ، ولا تصبح حضارة الا بمقدار ما تستطيع عقلية الشعوب المتمدينة توجيهها وجهة كمال الفرد والجماعة ، ويرى ان اهل أوربا خدعوا بمظـــاهر التقدم فى المعـــرفة والقوة فلم يفكروا فى الخطـــر الذى يتعرضون له جراء تضاؤل القيمة التى يعطونها للعناصر الروحية فى بناء الحضـــارة ، ومن ثم فان اعادة بناء الحضـــارة على الوجه الصحيح يتطلب أولا الاخذ من جديد بالنظرة الاخلاقية التى سادت فى القرن الثامن عشر .

ويتطلب ثانيا تكوين نظرية فى الكون ، فالواقع أن كل تقدم انســـانى يتوقف على التقدم فى نظريته فى الكون ، وينبغى ان نهز الناس فى هذا العصر وندفعهم الى التفكير الاولى فى حقيقة الانســـان ومكانته فى هذا العالم فان توكيد العالم والحياة ، وكذلك الاخلاق ، كلها أمور لا عقلية . ويجب أنيكون لدينا الشجاعة للاعتراف بذلك(١٤) .

---

(١٤) البرت اشفتيسر — فلسفة الحضارة ص١٠٠ — ١١٥ ترجمـــة د . عبد الرحمن بدوى مراجعة د . زكى نجيب محمود ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ .

ولشرح الغرض من ضرورة نظرية عن الكون للحضـــارة ، سنعطى القـــارىء فكرة موجزة عن الاصل الذى تنبثق منه الافكار الفلسفية والنظم الاجتماعية ، فان المتتبع للنظم والمبادىء الاجتماعية التى ظهـــرت فى عصر العلم بأوروبا جعلت الاقتصـــاد اساسا للمجتمـــع — والحق ان القـــاعدة الاقتصادية مجرد فرع من مبدأ عام فى العقيدة من أصل الوجود ، ثم يتفـــرع الى استخلاص الاحكام والمبادىء اللازمة لصلاح المجتمع .

يقول الدكتور الفنـــدى (والعجيب ايضـــا ، بل اعجب العجب ، ان المادية فى نظر اساطينها ، مثل الماركسية ، انما تصل فى نهـــاية المطاف الى ما وراء الطبيعـــة . اى لا يمكن ان تقتصر المادية على عالم المادة فحسب ، وانما تنتهى الى ما هو اكبر من ذلك عندما تتطرق الى الحـــديث عن نظـــام الكون العام)(١٥) .

وكثيرا ما يحلل الفلاسفة معالم المادية الظاهرة الوضوح على الحضارة المعاصرة ، ويفسرونها بغياب العقيدة الدينية وانكار الجـــانب الروحى فى الانسان . ويعالج هذا المبحث عادة بتحليل العلاقة بين العلم والدين :

صلة العلم بالدين فى العصر الحديث : (أو العلاقة بين المادة والروح)

ان الانبهار والذهول امام التقدم العلمى الذى ســـحر اعين النـــاس وقلوبهم قد شـــكل معـــالم القضية الماثلة للاذهان وهى ضمور الاعتقـــاد بالغيبيات والحقائق الدينية حيث ساد الاعتقاد ان العلم سيحقق الســـعادة الكاملة وبذلك يمكن الاستغناء عن العقائد الدينية .

هذه هى القضية الملحة التى دارت حولها المناقشات وتشكل حجـــر الزاوية فى ملامح العصر الحاضر .

ويرى براتراندرسل ان العلوم فى العصور الجـــديدة اسكرت البشر ودفعت الكثيرين للسيطرة على بقية البشر بواسطة القـــوى التى حققهـــا التقدم العلمى . وهو لا ينتقد هذه المعارف العلمية فى ذاتها ، ولكن ينتقـــد

---

(١٥) د . محمد جمال الدين الفندى : الكون بين العلم والدين ص١٤ ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٧٢م .

وضعها فى أيدى اناس يفتقدون الحكمــة . ولو وضعت فى ايدى الحكمــاء لعرفوا كيف يستخدمونها . ان هذه الحكمة موجودة الا انها — مع الاسف — لا حول لها ولا قوة على الاحداث ، ثم يعطينا فكرة عن ضرورة تحقيق التعادل بين قوتى العلماء والحكماء فيقول :

(لقد دعا الانبياء والحكماء الى تجنب الدنايا والصغائر ، ولو اننــا انصتنا اليهم لعشنا فى سعادة متجددة)(١٦) .

والراى الذى ذهب اليه رسل يشاركه فيه الكثيرون فى الآونة الاخيرة بعد المراحل التى مر بها العلم منذ عدة قرون ، فقــد توقع اغلب العلماء فى القرن التاسع عشر الميلادى الذين آمنوا بالعلم ، توقعوا له القــدرة على الاحاطة فى المستقبل بمجهــولات الغيب التى لم يحط بهــا فى ذلك الحين ، ولكن حينما اطل القرن العشرون تواضعت دعوى العقل(١٧) .

واخذت عقــول العلمــاء تنحنى اجلالا لحقــائق ما فوق طور العلم التجريبى الحسى ، ورأينا الاعترافات تصدر من علمــاء كثيرين لهم مكانتهم فهاهو اينشتين يقــول (العلم بغير دين أعرج ، والدين بغير علم أعمى) . ويقف مندهشا امام السر فى نجاح العلماء معللا بالالهام مقــررا فى يقين (ان العاملين فى العلم الجاديين فى عصرنا هذا المادى هم وحدهم الذين يتصفون بالتدين العميق)(١٨) .

وعزا شفيتزر انعدام المدنية الى عدم التوازن بين تقدمنا المادى وتقدمنا الروحى(١٩) .

ويقرر كارليل ان التقدم الهائل الذى احرزته علوم الجماد على علوم الحياة هى احدى الكوارث التى تعــانى منهــا الانسانية ، ويعلل ذلك بان قوانين العلاقات البشرية مازالت غير معروفة ، لأن علوم الاجتماع والاقتصاد والنفس علوم تخمينية افتراضية ، على عكس ما ظنه الكثيرون عندما خدعوا

---

(١٦) رسل — هل للانسان مستقبل ؟ ص١٢ — ١٣ .
(١٧) العقاد : عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص٣٢ — ٣٥ .
(١٨) رومز : آراء فلسفية فى ازمة العصر ص١١٢ .
(١٩) نفس المصدر ص١٣ .

فى بعض المذاهب التى حازت شهرة فى صفحات التاريخ وعلى السنة الناس — كمبادىء الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين(٢٠) .

ما هى النتيجة اذن بين التقدم الهائل فى العلوم التجريبية وبين قصور العلوم الانسانية عن اللحاق بها ؟

يجيب الدكتــور حسين مؤنس على هذا السؤال بقوله : (فان الذين يفكرون فى الدمار انشط بكثير ممن يفكرون فى البناء ، فهناك من صنع القنبلة الذرية التى قتلت مائة الف فى ثوان وزاد عليــه الذى صــنع القنبلة الهيدروجينية التى تقتل المائتى الف فى ثوان ، ثم جاء صاحب قنبلة النيوترون التى تشــل اهل البلــد الضخم وتصرعهم دون أن تؤذى العقـــارات والاشياء(٢١) .

ويتبين من ذلك اذن ان العلم التجريبى اقام مدنا ومصانع وجامعات ، وعبد الطرق ، وساهم فى تسهيل المواصلات وتذليل عقبات لا تحصى فى حياة الانسان ، ولكنه ساهم فى الوقت نفسه فى تعاسته للاسباب الآنفة . كذلك يرجع فشل العلوم الانسانية فى علاج الازمات لكونهــا افتراضية تخمينيــة وليست تقريرا لواقع وبرهانا على حقائق ، اذ لا تملك وسائل الاثبــات ، وتنقصها دقة مناهج العلوم الاخرى فى الهندسة والفيزيقا والكيمياء والطب وغيرها من العلوم .

وهــكذا اصبح العــالم المتحضر منتفخــا بالامكانيات ولكنــه ضامر بالارادات ، اشياؤه كثيرة وافكاره قليلة . وهذا الوضـــع البائس المتناقض بين وفرة الاشياء وفراغ النفس ادخل البشرية فى دوامة يصاب الانسان فيها بالدوار(٢٢) .

ولا نجد مبررا للدفاع عن الجانب العلمى التكنولوجى بحجة وصــول

---

(٢٠) الكسيس كارليل — الانسان ذلك المجهول ص٤٤ .
(٢١) د . حسين مؤنس — الحضارة ص١٣٦ .
(٢٢) د . خالص جلبى — الطب فى محــراب الايمــان جـ٢ ص٢٩ ط مؤسسة الرسالة — بيروت ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

الانسان الى القمر ، اذ ان هذا النجاح يحمل فى ذاته دلالة اخرى مفادها ان الصاروخ الذى يحمل مركبة الفضاء يستطيع ان يحمـــل قنابل ذات رؤوس نووية تصل الى اى مكان فى العالم فتهلك الحـــرث والنسل ، وقد تعـــود بالانسان فى طرفة عين الى العصر الحجرى من جديد !!

ولكن ما معنى ذلك كله فى ضوء البحث عن السعادة الحقيقية للانسان على هذه الارض ، وما اثره على موقف المدافعين عن العقيـــدة الدينيـــة فى مواجهة المسحورين بالمخترعات العلمية لاسيما فى العالم الاســـلامى الذى يشعر بالفارق الضخم بينه وبين العالم الغربى ؟

معناه ان منهج المعـــرفة الخاص بالكون قد هدى الله اليـــه الانسان بالتجربة (اما منهج المعرفة الخاص بالانسان نفسه ، فانه لما كان من العسير على الانسان ان يعرف نفسه بنفسه فقد هداه الله اليه بالوحى فى رسالات السماء(٢٣) .

ومعناه ايضا ان ركنى الحضارة الانسانية بمعنـــاها الصحيح لابد ان تحقق الارتقاء او التحسن المادى والمعنوى .

ونحن نميل الى الراى الذى يغلب التحسن المعنـــوى على التحســـن المادى ، (لأن الغاية القصوى للتحسين هى شـــعور الانســـان بالامـــان والاطمئنان والكفاية ، وقيام مجتمعه على التفاهم والتعـــاون والمحبة ، بدلا من قيامه على التحايل والانانية والقانون الذى تنفذه قوة غالبة)(٢٤) .

وبمثل هذا التحليل والتعليل الموجز لحضارة الغرب من حيث مقوماتها وآثارها ، نستطيع تلخيص الافكار والفلسفات الرئيسية التى تشكل ملامح المشكلات الكلامية) فى عصرنا الحاضر ، والتى استدعت اتخاذ موقف النقد

---

(٢٣) انور الجندى — سقوط العلمانية ص٧٤ .
دار الكتاب اللبنانى — بيروت ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م .

(٢٤) د . حسين مؤنس : الحضارة ص٥٤ .
سلسلة عالم المعرفة — المجلس الوطنى للفنون والآداب — الكويت محرم — صفر سنة ١٣٩٨هـ — يناير ١٩٧٨م .

والتمحيص من جانب علماء الاسلام ، ودورهم هنا كدور اسلافهم من علمــاء السنة عندما واجهوا فلسفة اليونان منذ القرن الثانى والثالث الهجرى .

المشكلات الكلامية الطارئة فى العصر الحديث

لا شك أن هناك جانبا هاما لا يزال محتفظا بجدته وحيويته فى القضايا المثارة فى كتب الكلام والفرق لانه متصل بالعقــائد كالايمان بالله تعــالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والبعث والحساب والعقاب وما الى ذلك من مسائل اصـــول الدين ، ولهذا فانه يحتفظ بأهميتــه ومكانته فى العقــول والقلوب ، وينبغى أن يكون الامر كذلك حيث يتحرى المسلمون معرفة اصول العقيدة ، فاذا درسناها وفق منهج صحيح واضح المعالم كما فعــل علماء الحديث والسنة ، فانه يتيسر الوصول الى الحقيقة بين وجهــات النظــر المتباينــة .

ولا شك ايضا أن مشكلات اخرى طرات فى العصر الحاضر لم تعرفها الاجيال الماضية ولا تدخل فى نطاق القضايا الكلاميــة المثارة آنذاك بنفس صيغها واساليب معالجتها وطرق عرضها وذلك تنــوع الثقافات وتعــدد المناهج ، بالاضافة الى الانقــلابات الحــادثة فى نظم التعليم والاقتصــاد والسياسة ، وظهور التخصص فى مجالات العلوم والمعارف . كل هذا ادى الى تشابك المشكلات وتداخلها .

ولكن اذا اعدنا للاذهان مرة اخرى تعريف ابن خلدون لعلم الكلام — اى انه يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية — راينا ان ظهور القضايا الجديدة تشكل فى مجموعها لونا من علم الكلام الحديث او المعاصر .

صحيح أن العلماء القائمين بدور الدفاع عن العقائد الايمانية فى عصرنا لا تنطبق عليهم اوصـــاف اسلافهم ، ولكن حصيلة انتاجهم العلمى يدخل فى دائرة القضـــايا الكلاميـــة حيث قاموا بالدفاع عن الاســـلام — كل حسب تخصصه — وقد صدرت لهذا الغرض مئات المؤلفات والابحـــاث ، وكتبت آلاف المقالات ، وانعقدت عشرات المؤتمرات والندوات ، وكلها نتيجة جهود مخلصـــة لعلماء المسلمين فى شتى صنوف العلوم والمعـــارف ، واستهدفت

الشرح والتفسير والدفاع عن الاسلام عقيدة وشريعة ونظما واخلاقا . وتشكل فى مجموعها ملامح عامة يدور حولها الفكر الاسلامى المعاصر ، نعرضها بايجاز :

ملامح الفكر الاسلامى المعاصر :

ومادمنا نتكلم عن الاسلام فى العصر الحديث ، فاننا نحترس من استخدام المصطلح الشائع الذى تأثرت به العلوم منذ ظهور فكرة دارون فى النشوء والارتقاء ونعنى به مصطلح (التطور) والذى استخدمه الكثيرون حتى فى مجال العقائد ، ونسترشد هنا برأى الاستاذ الدكتور قاسم رحمه الله فى رده على روجيه باستيد الذى ظن أن العقائد فى الاسلام قد تطورت كما هى الحال فيما يتعلق بالعقائد المسيحية ، واغلب الظن أن جهله بعقائد الاسلام وبالاسلام نفسه كان سببا فى جنوحه الى هذا الراى . واذا بيننا أن العقائد الاسلامية لم تتطور لهذا السبب اليسير ، وهو ان القرآن دون مباشرة،ولأن هذه العقائد تتجه الى العقل قبل كل شىء فلا يشعربحاجة الى تعديلها وتحريرها(٢٥)) .

ولا يحتاج الامر الى كبير عناء للاستدلال على أن الاتجاه العام للفكر الاسلامى المعاصر ، هو اتخاذ الاسلام محورا ترتكز عليه جهود المخلصين من المفكرين المسلمين ، للانطلاق نحو احياء جديد للحضارة الاسلامية التى ازدهرت فى عصور الارتقاء بفضله . ان القرآن خلق العرب خلقا جديدا . وقد وعد الله تعالى للمتمسكين به بالرفعة فى الدارين . والله عز وجل (غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير وانما المسلمون هم الذين تغيروا)(٢٦) .

ولسنا نؤرخ هنا لعوامل اضمحلال الحضارة الاسلامية — الا أننا لا نستطيع ان نغفل ظاهرة اخرى تشكل ملامح الفكر الاسلامى فى عصرنا الحاضر ، وهو اظهار فضل مفكرى الاسلام على الحضارة الاوربية

---

(٢٥) د . قاسم — مقدمة كتاب مبادىء الاجتماع الدينى لروجيه باستيد ص٦ .

(٢٦) شكيب ارسلان — لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ص١٢ ، ١٤ .

المعاصرة ، لقى بقى الغرب فى تأخره ثقافيا واقتصـــاديا (طوال الفترة التى عزل فيها نفسه عن الاسلام ولم يواجهه ، ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته الا حين بدا احتكاكه بالعرب سياسيا وعلميا وتجـاريا . واستيقظ الفـــكر الاوربى على قدوم العلوم والآداب والفنون العربيـــة من سباته الذى دام قرونا ليصبح أكثر غنى وجمالا وأوفر صحة وسعادة)(*) .

ان فهم هذه الحقيقة كان دافعا لاعادة الثقة بالنفس ، والتحـــول من موقف الخضوع لسلطان الحضارة الغربية ، الى موقف منابذتها واظهـــار القدرة الذاتية للاسلام فى مواجهة التحديات ، لأن العالم الاســـلامى (هدف ثمين من أهداف تصدير الافكار نظرا الى موقعهو خطورة موقفه بين الكتـــل المتصارعة .. وأن يبقى هذا العالم مفتقرا اليها على اختلافها وانيحـــال بينه وبين أفكاره الاصلية التى يمكن ان تغنيـــه عن الاستيراد ، وتحقق له الاكتفاء الذاتى(٢٧)) .

ونلمح نموذجا لهذا الموقف المتحدى من جانب الشيخ رشـــيد رضا فى قوله نتحداهم بالقرآن — وهو يقصد الفلاسفة والمؤرخين من جميـــع الامم ولاسيما أحرار الافرنج — بأن يأتوا بالاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى مؤكدا تقديم اسمى الحضارة على أساس قرآنى(٢٨) ويبدو أن هذه النزعة للشيخ السلفى احدثت تأثيرا حاسما فى أغلب مفكرى الاســـلام المحدثين ، اذ رأوا مثله ، بأنه لابد من اظهار حقيقة الاسلام كما عرفه السلف الصالح ، ورفض التأثيرات المتراكمة التى فصلت بين المسلمين فى عصـــورهم الاخيرة وبين فهم أجدادهم للاسلام فى القرون الاولى .

وفى ضوء ظروف العصر كان لابد للنظر الى الاسلام فى شموله فى ذاته يتناول الجانب المادى وحياة الروح معا . ويقتضى ذلك (فصـــل الاسلام فى ذاته عن فهم المسلمين للاسلام خلال العصـــور المتـأخرة(٢٩) لأنه بمضى

(*) زيجفرد هونكه شمس الله تسطع على الغرب ص٥٤١ ط المكتبـــة التجارى للطباعة والنشر — بيروت ١٩٦٩م .

(٢٧) كتاب (الاسلام يتحدى) لوحيد الدين خان ص ٧ .

(٢٨) رشيد رضا . الوحى المحمدى ص٢٦٥ .

(٢٩) محمد المبارك . الفكر الاســـلامى الحـــديث فى مواجهـــة الافكار الغربية ٦١ — ٦٢ ط دار الفكر ١٣٨٩هـ — ١٩٧٠م .

العصور ، وبسبب التقاء المسلمين بثقافات الامم الاخرى ، حدث أن تفرعت شعب ثلاث : احدها فقهى ، والثـــانى كلامى ، والثالث اخلاقى ، وكلمـــا تقدم الزمن ، انفصــــل بعضها عن بعض (بعــــد أن كان الاســــلام وحدة شاملة(٣٠) .

ومن اقوال محمد اقبال (اننا نحن المسلمين نواجه عمـــلا ضخما ، ان واجبنا ان ننظر فى الاسلام من جديد بصفته نظاما فكريا ، من غير ان نقطـــع صلتنا عن الماضى (٣١) ، وسنرى انه نقد اسس الحضارة الغربية المادية، موضحا أن المنهج الصحيح لفهم الاسلام هو أن (يطابق الكتـــاب والسنة وفهم السلف (٣٢) .

ولكن لا يعنى الاقتداءبالسلف الرجـــوع الى الماضى بحيث تصبح الأمة الاســـــلامية (كأنها تعيش فى متحف للتاريخ ، كلا ولكن المقصود اقامة روح الاسلام الذى عرفهالسلف واخرج العربمن جزيرتهم فسادوا الأمم (٣٣)).

الاســــــلام والعـــلم

هناك مقدمة لابد منها فى بيان صلة العلم بالاسلام ، عالجها كثير من الباحثين وافاضوا فى شرح جوانبها لتجلية العـــلاقة الوثيقة بين الاســـــلام والعلم واستبعاد التوهم المصطنع الذى حاول به البعض الفصل بينهما فى بدايةالالتقاء بالحضارة المعاصرة وكانالعالم الاسلامى حينذاك يغض فى نوم عميق(٣٤) ، فقـــام البعض محاولا الدفاع عن حقـــائق الدين فأدى به الى الفصل القاطع بين حقائق الدين ومعطيات العلم ، وبالتالى ايجاد ثنائية بين التفكير العقلى واليقين القلبى ، فموضوع العقـــل العلم وموضـــوع القلب الايمان ، وذلك تقليدا لما حدث فى اوربا فى عصر النهضة من انفصـــــال بين الدين والعلم للاسباب التى قامت هناك حينذاك .

---

(٣٠) ن . م ص٦١ .
(٣١) أبو الحسن الندوى . الصراع بين الفكرة الاســــلامية والفكرة الغربية ص١٢١ ط دار الندوة بلبنان ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م .
(٣٢) ن . م . ص١٨٥ .
(٣٣) أبو الاعلى المورودى . نحن والحضارة الغربية ص٢٣٥ — ٢٣٦ واول القضايا ازاء نقد حضارة الغرب هى قضية الاسلام والعلم : —
(٣٤) قام الاستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى بدراســـة بعض الآيات التى تحدثت عن الطبيعة : الهواء ، والماء ، والريـــاح ،

ثم تغيرت هذهالصورة رويدا رويدا عندما انتشر التعـليم ، واعيدت الثقة فى النفوس ، وقام العلماء بشرح الآيات القرآنية فى ضوء الاكتشافات العلمية ، وظهرت حقيقة التوافق بين الاسلام والعلم بالادلة التى لا تقبـل الشـك .

وهنا نجد الدكتور موريس بوكاى يبدى دهشته البالغة عندما يستكشف فى بحثه المبتكر فى هذا المجال التوافق التام بين النص القرآنى ومعطيـات العلم الحديث ، ثم سرعان ما يقرر انه لاداعى للعجب او الدهشـة فى هذا (اذا عرفنا ان الاسـلام قد اعتبر دائما ان الدين والعلم توأمان متلازمان . فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءا لا يتجـزأ من الواجبات التى امر بهـا الاسلام . وأن تطبيـق هذا الامر هو الذى ادى الى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضـارة الاسلامية ، تلك التى اقتات منهـا الغرب نفسه قبل عصر النهضة فى أوربا)(٣٥) .

أما عن وجهتى النظـر التى يقابلها الباحث فى هذه القضية ، واعنى بذلك وجهة النظر القائلة بأن النظريات العلمية كلها منصوص عليها بين دفتى القرآن الكريم ، والاخرى التى تفضل عدم الزج بالقرآن فى مجـالات علمية قابلة للتغير فى ضوء التجارب والمكتشفات المتوالية ، فان الرأى الوسط الذى نميل اليه ان كنا بالله عز وجل يستثير فى بنى آدم عملية التفكير ويحضهم على النظر فى آيات الله الكونية المحيطة بهم فى جوانب من مخلوقات فى عوالم النبات والحيوان والافلاك والمجتمعات والتاريخ ومهما يكن اختـلاف الآراء حول القرآن الكريم من آيات عرف العلماء الآن دلالتهـا العلميـة فى العصر الحاضر من شمس وقمر وكواكب ، أو تتحدث عن الارض والسماء ، او خلق

والجبال والنجوم والسماء ، ملفتا الانظـار الى ما فى بعض آيات العلم من اوامر صريحة تطالب المسلمين بالبحث والدراسة وتأمرهم بالاخذ بأسباب العلم ، حتى كأنها جزء لا يتجزأ من تعاليم الدين او من العبادات ذاتها.واذا كان المسلمون قد تخلفوا فمعنى ذلك انهم ولا شك قد ابتعدوا عن جوهر الاسـلام مهما احتفظوا بطقـوس من العبادات (الكون بين الدين والعلم ص٣٥) .

(٣٥) موريس بوكاى — القرآن الكريم ، والتـوراة والانجيـل والعلم ص١٤ ، ط دار المعارف سنة ١٩٧٩م .

الانســـان واطواره ، فان الراى الراجح بين كلا الرأيين السالف الاشـــارة اليهما — أن القرآن الحكيم ليس فى الواقع من مراجع العلوم (ولكنه وجه الحديث الى القلوب المتفتحةوالى العقول الواعية فى نفس الوقت، وهوبذلك كتاب مشاعر وأخلاق وفكر فى آن واحد ، يعطى من كل منها القـــدر اللازم للبشرية حتى لا تكون ثمة حجة لقارئه فى مختلف العصور ومنها عصر العلم(٣٦)

وهاهى طريقة القرآن تبرهن انها الوحيدة الثابتة بثبات طريقة القرآن مع تغير الدهـــور .

ويزيدنا الدكتور موريس بوكاى ايضا فيذهب الى ان القـــرآن ليس كتابا يهدف الى عرض بعض القـــوانين التى تتحكم فى الكون . ان له هدفا وسببا جوهريا . وأوصاف القدرة الالهية هى الناسبة الرئيسية فى توجيـــه الدعوات للبشر ان يتأملوا فى أعمـــال الخلق . وتصـــاحب هذه الدعوات اشارات الى امور يمكن للملاحظة الانسانية أن تدركها او قوانين عرفها الله — تلك التى تسود انتظام الكون — فى ميـــدان علوم الطبيعـــة وفيما يخص الانسان على حد سواء . وهنـــاك جزء من هذه الاقوال يسير الفهم ولكن هناك جزء آخر لا يمكن ادراك دلالته الا اذا كان **المرء يملك معارف** علميـــة لازمة لهذا) (٣٧ أ) .

ان ثبات القوانين الطبيعية والنواميس الكونية يقابلها فى انتظامهـــا فى مسيرتها ثبات احـــكام العقول وبديهيـــة الاوليات ، **اذ لو لم تستمد العـــلوم** أساسها من أوليات وبديهيات لانهار الصرح العلمى ، ولما أمكن اثبات نظرية علميـــة .

وبنفس البديهيات والاوليات ، عرف الانسان ربه عز وجل ، بل الاسبق فى فطرة الانسان أن يعرف خالقه ، فهو مفطور على ذلك كمـــا انه مفطـــور ايضا على معرفة القوانين الاولية والبديهيات العقلية .

ويرى الدكتور الفندى أن الذى يدرس ما جاء به القرآن الكريم من آيات

---

(٣٦) د . محمد جمال الدين الفندى : الله والكون ص٢٤ .
ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

(٣٧ أ) د. موريس بوكاى : القرآن الكريم ص ١٣ — ١٤ .

بينات فى شتى المجالات ، يجد ان الاسلام انما يخلق مجتمعا (طبيعيا) يساير الفطرة ويتمشى مع الناموس الطبيعى ، سواء من حيث ما فطر عليه ، او ما جبلت عليه الطبيعة .

وهى نفس الفكرة التى اجمع عليها علماء السلف عند تأكيدهم لتوافق الايات الغيبية والسمعية ، وان ادلة الشرع هى ادلة عقلية ، حيث يأتى النظر والاستدلال ايا كانت وسائله تبعا للعصور والازمنة ، معضدا للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وبانيا على العقيدة النظم الصالحة للمجتمع الانسانى .

وهنا تظهر روعة القرآن الكريم ، بل انه اروع الكتب التى توضح العقيدة على هذا النمط (وهو الى جانب هذا ، انما يعطى الاحكام والامثال والآيات كلها من الكون نفسه ، ولهذا نطلق على الاسلام اسم (الدين الكونى) أو دين الفطرة ، ولهذا أيضا يظل القرآن معجزا أبد الدهر ، وتبقى حجته قوية الى ما شاء الله (٣٧ب) .

واذا كان قيام علماء الكلام فى القرون الماضية باستخدام الادلة المنطقية والتفكير النظرى السائد آنذاك ، فان ما يتصل بالقضايا التى اصطلح على تسميتها (كلامية) فى تاريخ الفرق ، يتصل أوثق الصلات بالآفاق التى كشف عنها العلم وتجاربه فى العصور الحديثة .

ونود القول بأن الطريقة الاستدلالية التى استخدمها القرآن الكريم ظلت هى الوحيدة بين الطرق الاخرى — كالمتكلمين والفلاسفة — فهى ثابتة فى نفسها كميزان عقلى متوافقة مع الاجتهادات العقلية ، وتخاطب البشرية قاطبة مهما اختلفت الازمنة والامكنة .

واذا أردنا اثبات ذلك بنبذة موجزة عن دليل الآفاق ، فان هذا الدليل مازال — وسيظل — ثابتا ، لأن نواميس الله تعالى فى الكون والنفس لا تتغير ، وبقدر ما يمنح العلماء من علم لاكتشاف المجهول ، بقدر ما تتسع معارفهم وعلومهم عن الكون والمخلوقات والانفس .

(٣٧ب) د. الفندى : الكون بين العلم والدين ص١٤ .

وقد سبق الاشــــارة الى استخدام الصحابة رضى الله عنهم طريقـــة الاستدلال بحدوث العالم وهى طريقة عقلية شرعية كما قال تعالى (أو لم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وأنفسهم افلا يبصرون) ؟ السجدة — ٢٧ فهذا مرئى بالعيون ، وقال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق — ثم قال — أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد) فصلت — ٥٣ (٣٨) .

والآيات الكونية والنفسية أمامنا ثابتة النواميس ، ولكن وسائل العلماء اخذت فى التطور فاستطاعوا اختراع آلات المقاييس والمجاهر(٣٩) التى عمقت وزادت من القدرات الانسانية على الاكتشـــاف ووسعت قوى الادراك حيث يرى العلماء الآن فى عالم الافلاك ما لم يراه علماء العصور السابقة ويجـــرى العلماء المتخصصون التجارب بالوسائل المتطورة فى مجالات عوالم الطبيعـــة والبحار والحيوان والنبات والميكروبات وغيرها من الكائنات .

السنن الالهية اذن ثابتة ، ولكن التطور حدث فى وســـائل الانســـان لمعرفة اسرارها ، وفى ضوء هذه الحقيقة كيف أمر الله تعالى فى كتابه الحكيم بالتدبر والنظر والتفقه والاستدلال بآيات الله تعالى من حولنا وفى أنفسنا .

والمستقرىء لآيات القرآن الكريم يلحظ أن أسلوب الدعوة القرآنى تتوم على استثارة الفطرة الانسانية ، كمثل قوله تعالى (أفى اللـــه شـــك فاطر السموات والارض) . ؟ بدلا من لغة الفلسفة التى لجأ اليها أغلب المتكلمين ظنا منهم انها تؤدى للدفاع عن عقيدة الاسلام .

وفى ضوء الآفاق التى امتدت اليها البحوث العلمية ، أصبح الاســـلوب المقبول هو الذى استخدمه القرآن الكريم قبل نحو اربعة عشر قرنا ، ومن ثم

---

(٣٨) ابن تيمية : النبوات ص٥٢ .

(٣٩) منها على سبيل الامثال : المقـــراب أو (التلسكوب) المستخدم فى رؤية النجوم ، ومقاييس اعماق البحار والمحيطات ومقاييس الحرارة والزلازل والسرعة والضغط الجوى الى جانب المجاهر المستخدمة بواسطة الاطباء وعلماء الاحياء والكيميائيون والجيولوجيون وغيرهم من العلماء .

فان المنهج الذى اتبعه علمـــاء السنة اى الاقتصـــار على استخدام الادلة الشرعية هو المناسب ايضا لطبيعة العصر اذ يمكن اليوم وضع تعاليم القرآن أمام الناس بنفس الاسلوب الفطرى الذى نزلت به آياته .

والامثلة كثيرة مبسوطة فى المؤلفـــات التى عالجت موضـــوعات الدين بلغة العلم واكتشـــافاته ، يشير الى بعض الافكار الرئيسية بهـــا ، اذ يرى وحيد الدين خان أن الاسلوب العلمى — على عكس الاســـلوب الكلامى — يعتمد على البساطة والايجابية التى تراعى سرد الحقائق لغة وبيانا(٤٠) .

ويرى الدكتور الغمراوى أن العلم فى الاسلام جزء من الدين ، مستندا الى تفسير آية الفطرة المارة بنا ، مع النظر الى موقعها بعد آيات قبلهـــا فى سورة الروم كلها ، وهى آيات كونيـــة تتعلق بظـــواهر طبيعية لا يدرسها ولا يبحثها ويكشف عن اسرارها الا العلم التجريبى الحديث .

ولو نظر الانساق فى نفسه فيمن حوله لوجد نظريات العلم اتت متوافقة لقوانين الفطرة ، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبـــديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) الروم .

يقول الدكتور الغمراوى (والعلم الحديث يقوم وجوده على هذا القانون الالهى ، قانون (لا تبديل لخلق الله) اذ العلم وطريقته العلميـــة التجريبيـــة متوقفة على اتساق الفطرة ، واتساق سننها بالاطراد والثبوت)(٤١) .

خذ مثلا بعض الآيات القرآنية التى تتحدث عن بعض الظواهر الطبيعية، كقوله تعالى (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمـــرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمـــون) البقرة — ٢

وقوله سبحانه (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء

(٤٠) وحيد الدين خان : الاسلام يتحدى ص٣٠ .
(٤١) د . الغمراوى — بين الدين والعلم ص٧ .

فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) البقرة — ١٦٤ .

وقوله عز وجل (الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى) طه : ٥٣ و ٥٤ .

الى غير ذلك من الايات التى يسهل ادراكها بواسطة الناس جميعا ، ومنهم أولئك الذين كان القرآن موجها اليهم وقت نزوله ، ومن ناحية أخرى فهى تعبر عن تأملات عامة يستطيع الجمهور المتنوع للثقافة بحسب كل مكان وزمان (أن يستخرج منها تعاليم اذا ما كبد نفسه عناء التأمل ، تلك هى السمة الكونية الشاملة للقرآن)(٤٢) .

---

(٤٢) موريس بوكاى — القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص١٩٦ — ١٩٧ .

الباب الثامن

دراسة فى الفكر الاسلامى المعاصر

محمد اقبال

- حياته وعصره .
- موقف محمد اقبال من الحضارة الغربية .
- اقبال بين الغرب والشرق .
- منهجه .
- أهم آرائه .
- الانسان فى القرآن .
- الحقيقة بين التجربة العلمية والتجربة الدينية .

دراسة فى الفكر الاسلامى المعاصر

محمـــد اقبـــال

وفى مجال هذه الدراسة ، نرى استكمالا للبحث ، العرض بايجاز لافكار الشاعر المسلم **محمـــد اقبـــال ، اذ يعبر بآرائه عن نموذج** متكامل معبر عن القضايا الكلامية المعاصرة ، حيث جمع بين الثقافتين الغربيـــة والاسلامية ، واستطاع **بمنهجه وانتاجه اظهار** حقائق الاسلام والدفاع عنه بمنهج « كلامى » فلسفى مستخدما طريقة القرآن ومستلهما حقائقه ، ومتحدثا فى الوقت نفسه بلغة العلم .

وسنرى كيف وفق فى بيان موقف الاسلام من المشكلات الناجمة عن الالتقـــاء بالحضارة المعاصرة وعلاج المشكلات الناجمة عنه .

محمـــد اقبـــال

حيـــاته وعصره :

ولد محمد اقبال فى سيالكوت بالبنجاب عام ١٢٨٩هـ ـــ ١٨٧٣ وكان أبوه تقيا فألحقه بكتاب لحفظ القرآن الكريم ، وقد تلقى الابن أول تأثير روحى من الاب ، وكاد محمد اقبال يتخذ طريقا دينيا بحتا لولا أن صديقا لوالده ـــ الذى كان يعمل بالزراعة ـــ حثه على أن يتلق الابن العلـــوم الحديثـــة ، فالتحق بمدرسة البعثة الاسكتلندية فى سيالكوت فى رعاية صـــديق الوالد (مولانا مير حسن) وكان ضليعا فى الآداب الفارسية والعربيـــة . التحق بعـــد ذلك بالكلية الاميرية فى لاهور حيث اختار الفلسفة مجالا لتخصصه ، وفيها تتلمذ على يد المستشرق سيرتوماس أرنولد ، ثم سافر الى انجلترا للدراسات العليا فى الفلسفة حيث حصل على الماجستير ثم اتجه بعدها الى المانيا ، وهنـــاك حصل على الدكتوراه فى الفلسفة ، اذ منعه النظام البريطانى من الحصـــول عليها لأنه اجنبى . وذاعت شـــهرته فى أوربا اذ أخذ يترنم شـــعرا بأفكاره الاســـلامية .

وعاد من اوربا بانطبـــاع جديد عام ١٣٢٧هـ ـــ ١٩٠٨ . أنه اذا كانت مادية الغرب خالية من القيم الروحية والاخلاقية ، فان روحانيـــة الشرق قد اصبحت خاوية ، وان اعادة الروح الى الحضارة الاسلامية بنفحة من الشرق والغرب معا ، فعلم الغرب وتقدمه التكنولوجى يعملان على القضاء على الفقر والمرض ، ولكن ليس على الشرق أن يكرر خطأ الغرب بعبادة القوى المادية وانمـــا يجب أن نخضـــع هذه لاهداف روحيـــة ، لأن انقـــاذ البشرية لا يتم الا بالدين والمسلمون أنفسهم فى حاجة الى تجديد الفكر الدينى وازالة معالم الجمود والتحلل التى طمست معالم الاسلام الاصلية . وكان دقيقا فى اعتبار حركته الفكرية (اعادة بناء الفكر الحديث) لأن أية محاولة انسانية لا تتعلق بتعديل مبادئه طالما أن مصدره وهو القرآن له صفة الجزم والتأكيـــد الابدية فان دوره اذن يقتصر على افهام المسلمين لمبادئه ، فالتطور اذن فى تفســـير تعاليمه وليس هناك تطور فى الاسلام نفسه على النحو الذى تم بفعل (مارتن لوثر) فى المسيحية .

واشتغل بالمحاماة الى جانب اشتغاله بالتعليم والتدريس فى الجامعة من الخارج اذ درس الفلسفة فى المدرسة الاميرية ولكنه اضطر لتركها لأن اشراف الانجليز لم يسمح له بالتعبير عن أفكاره ، ثم عين عميدا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الفلسفة دون التفرغ للتدريس . وكان يلقى المحاضرات العامة فألقى محاضرات فى مدارس عام ١٩٢٨م جمعت فأصبحت أهم كتاب فلسفى له (تجديد الفكر الدينى فى الاسلام) .

شارك فى الحياة السياسية ، وكان عضوا عاملا فى حزب الرابطة الاسلامية وانتخب فى الجمعية التشريعية سنة ١٩٢٦ ، وكان يدعو الى استقلال المسلمين فى دولة تجمعهم ، ثم أصبح رئيس حزب الرابطة الاسلامية فى البنجاب ١٩٣٥م ، توفى فى ابريل سنة ١٩٣٨م(١) .

موقف محمد اقبال من الحضارة الغربية :

اذا انتقلنا الى التأريخ للحركات الاسلامية بالهند قبل انشاء الباكستان فى عام ١٩٤٧ فاننا نجد أن حركات كثيرة ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر تجعل شعارها (الرجوع الى القرآن) .

وكانت هذه الحركات بمثابة رد فعل لتزايد المؤثرات الخارجية فى حركة الغزو الاستعمارى الغربى لبلاد الاسلام ، وكان حامل لوائها محمد اقبال الذى كان (أهم ما يشغله هو الرجوع الى تلك العقيدة البسيطة ليسترد الاسلام ما فقده) ، وربما كان مرد اعجابه بحركة محمد بن عبد الوهاب يرجع الى هذا السبب ، فقد سماه (المطهر العظيم)(٢) .

وكافح محمد اقبال طويلا حتى ظهرت دولة الباكستان الى الوجود ومن ثم أصبح هو (الاب الروحى) لها ، كما أن غرس الثقافة الاسلامية الجديدة التى بدأت فى الهند قبل اقبال بنحو قرن كامل اثمرت النتاج العقلى له كما يذهب الى ذلك أبو الحسن الندوى ويصفه بأنه أعمق مفكر وجده الشرق فى عصرنا الحاضر(٣) .

---

(١) د . محمد البهى — صلة الفكر الاسلامى بالاستعمار الغربى ص٤٣٤
(٢) م . ل . فزار — وجهة الاسلام ص١١٩ ، ١٢٩ .
(٣) أبو الحسن الندوى — الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص٩٨ .

وكان محمد اقبال مشبعا بالثقافة الغربية ، ولكن — مع هذا — لم يدفعه ذلك الى الدعوة لتقليد الحضـــارة الاوربية كما فعل غيره من مفكرى المسلمين فى العصر الحديث حيث قنعوا بمظاهر الحضارة الاوربية الخلاب وأخفقوا فى فهم روحها الصحيحة . ذهب الى العكس من ذلك فان الماضى البعيد ظل ماثلا أمام عينيه حيث استمد الفكر الاوربى وحيه من الاســـلام خلال العصـــور الوسطى .

وفى النص الذى ننقل ترجمته فيما يلى ، يعبر لنا عن تحـــذيره الشديد للمسلمين من هذه الحضارة فيقول : —

(ولكن اياك والحضارة اللادينيـــة التى فى صراع دائم مع اهل الحق ، وان هذه الفتانة تجلب فتنا وتعبد اللات والعـــزى الى الحرم ان القلب يعمى بتأثير سحرها .. وانها تدع الانسان لا روح فيه ولا قيمة له)(٤) .

ان ثقافته الغربية التى اغترف منها بعمق ، هى التى جعلتـــه يدرك فى سهولة ويسر عمق الصلة بين فـــكرة فلاسفة الغرب المحـــدثين ، والفـــكر الاسلامى فى أوج نضجه ، ومن ثم فقد اكتشف أن أوربا كانت بطيئة فى ادراك الاصل الاسلامى لمنهجها العلمى ، ويعدد الادلة على الجـــذور الاســـلامية لنهضة الغرب ، فيعثر عليها فى منهج الشك الذى أفاض فيه الغزالى ومهد به السبيل الى ديكارت ، كما تنبه لنقد ابن تيمية للمنطق الارسطاليسى وبرهنته على أن الاستقراء هو الطريقـــة الوحيـــدة الموصلة الى اليقين ومن ثم (قام المنهج التجريبى القائل بأن الملاحظة والتجـــربة هما أســـاس العلم واصله لا التفكير النظرى) وانتقاله الى جون ستورات مل . كذلك تلقى روجر بيكون علومه من الجامعات الاسلامية بالاندلس الى غير ذلك من ميادين الفكر التى تتمثل فى الرياضيات والفلك والطب ، وكانت نتيجة ثورة عقلية اسلامية على الفلسفة اليونانية .

من هذه النظـــرة الواسعة يخلص مفكرنا الى ان الزعم (بأن أوربا هى التى استحدثت المنهج التجريبى زعم خاطىء) .

---

(٤) الترجمة العربية من قصيدة (ضرب كليم) — نقلا عن كتاب الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية للندوى ص٩٩ .

اضف الى ذلك ان نظر اقبال فى القرآن ، واحاطته بنتاج الفكر الاسلامى فى شموله واتساعه جعله يؤكد (معارضة القرآن لعلوم القدامى اكدت وجودها بالرغم من أولئك الذين كانت رغبتهم فى اول الامر هى تفسير الاسلام على ضوء التفكير اليونانى)(٥) .

انه لم يستبعد احتمال اعادة الحيوية للفكر الاسلامى من جديد اذا ما تخلص من جمود التقليد فهو يقول (عندما ندرس أصول الفقه الاسلامى الاربعة المتفق عليها . . . وهو يعنى القرآن والحديث والاجماع والقياس على الترتيب — وما ثار حولها من خلاف ، فان ذلك الجمود المزعوم عن مذاهبنا المعترف بها يتبخر ويبدو للعيان امكان حدوث تطور جديد) .

بهذا العقل الناقد للحضارة الغربية ، المطلع على التراث الاسلامى فى مظانه الحقيقية ، استطاع هذا المفكر ان يتخلص من روح اليأس من مظاهر أحوال المسلمين — مثلما فعل ابن تيمية من قبل بعدة قرون — ونظر بروح متفائلة مؤكدا امكان قيام الحضارة الاسلامية من جديد . اذا ما عادت الامة الاسلامية الى اساس حضارتها دون تقليد أوروبا التى (لا نصيب لها فى التوجيه السماوى والتنزيل الالهى انه يرى — فضلا عن ذلك — المخطط اليهودى مسيطرا على اوربا بحضارتها المادية ، فليست المعارف الا وليدة دهائهم ، بل (لا يستغرب ان يرث تراثها الدينى ويدير كنائسها اليهود)(٦) .

وعلى هذا فان المصدر الاصلى للتجديد الذى ينادى به هو الاسلام ، لأنه التوجيه السماوى ، وقد اثر القرآن فى عقلية اقبال وفى نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية .

اقبال بين الغرب والشرق :

وظل اقبال سنين طويلة يفكر فى حال المسلمين ، ويمعن النظر فى أسباب ضعفهم ، ويجول فى دروب تاريخهم الطويل ، فيتفتق ذهنه عن انظومة

---

(٥) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص١٤٩ — ١٦٤ .
(٦) قصيدة ضرب كليم (كتاب الصراع .. ص١٠٠) .

رائعة ، يخاطب بها الانسان المسلم المعاصر فيقول (يا شاكيا جور الزمان ، ويا اسير الوهم والحسبان ، اجعل قميصك ثوب الاحرام واطلع الصبح فى هذا الظلام ، واستغرق كآبائك فى السجود حتى تكون سجدة للواحد المعبود ، ان المسلم الاول خضع للخلاق فسيطر على الآفاق ، ومشى على الشوك فى سبيل الحق ، فأنبت الورد فى الغرب والشرق ...

ويوجه اليه اللوم ، فيقرعه ، ويتساءل فى اسى (انى لارعد من خزيك يوم يسألك الرسول : قد أخذت منا كلمة الحق ، فماذا لم تسلمها الى الخلق)(٧) ؟

ومعنى هذا أن الامة الاسلامية قد قصرت فى اداء رسالتها ، وهاهو يضع يده على عللها ، فقد استحوذت على عقول المسلمين الاوهام والخرافات وانهمكت نفوسهم فى الخلافات والخصومات ، فلم يفقدوا وحدتهم فحسب بل فقدوا جميع مرافق الحياة ووسائل النمو والتقدم فى هذا الكون ، اى أنهم تخلفوا فى ميدان القيادة فى العالم الفكرى والحضارى جميعا ففى الجانب الاول — كالتصوف أو الشريعة أو الدين — اصبحوا وثنيين وعباد آلهة العجم بعد أن كانوا موحدين ، ومعلمى التوحيد للعالم اجمع . وفى الجانب الثانى ، راى أن روح القرآن فى جملتها تعارض الفلسفة القديمة ، فانه ليس كتاب فلسفة ولكن فيه هدى الى مقاصد الحياة ورقيها ، ويجعلنا ندرك أن الاسلام دين يعنى بالعمل اكثر مما يعنى بالفكرة . ولكن المسلمين خالفوا روحه ، وطغت عليهم نزعة التواكل ، فالقول بالقضاء الذى يحمله نقاد الغرب للاسلام فى كلمة (القسمة) يرجع بعض سببه الى التفكير الفلسفى وبعضه الى مقتضيات السياسة ، وبعضه الى ما لحق القوة الحيوية التى كان الاسلام قد بعثها اتباعه أول الامر ، من ضعف تدريجى(٨) .

وايضا يولى فيلسوفنا وجهه قبل التصوف الذى كان له تأثير فى بداية حياته ، ولكنه يعد دراسته كأحد عوامل تأخر المسلمين ، يعود فيلفظه ، ويعنى به تصوف وحدة الوجود ، اى التفسير الفلسفى الصوفى الذى اخذ به

---

(٧) عبد الوهاب عزام — محمد اقبال — سيرته وفلسفته وشعره ص١٠٥ .

(٨) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص ١٢٧ .

ابن عربى اذ بينما يرى الاسلام (الانا) مخلوق ينال الخلود بالعمل ، جعل ابن عربى فلسفة وحدة الوجود عنصرا فى الفكر الاسلامى ، ثم اصطبغ كل شعراء العجم فى القرن السادس الهجرى بهذه الصبغة ، فخاطب فلاسفة الهند العقل فى اثبات الوجود ، وخاطب شعراء ايران القلب فكانوا اشد خطرا واكثر تأثيرا ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة فسلبوا الامة الاسلامية الرغبة فى العمل(٩) .

ليست اذن عقيدة وحدة الوجود من تعليم القرآن ، فان القرآن يبين المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق او العابد والمعبود ، ولكن امتد اثر هذه الفلسفة مع الايام فأحدثت آثارا هائلة فى تغيير مفاهيم اسلامية اخرى . ويضرب اقبال مثلا على ذلك بالجهاد كشعيرة يراها الاسلام من ضرورات الحياة ، ويلفت النظر الى هذه الرباعية ، التى ترنم بها الصوفية .

(يسلك الغازى كل سبيل من اجل الشهادة ، ولا يدرى أن شهيد العشق أفضل منه . كيف يستوى هذا وذاك يوم القيامة ، هذا قتيل العدو وذاك قتيل الحبيب) . ويعلق على مضمونها بقوله (وهذا جميل فى الشعر ، ولكنه خدعة لأبطال الجهاد) .

فلا نعجب اذن من الظاهرة التى تتضح فى شعر اقبال ، فالأمل يظهر فى شعر اقبال كله ، فهو باعث الحياة ، والجهاد الدائب فى رأيه هو حافظ هذه الحياة وان قارىء اقبال ليروعه اعظام اقبال الامل ، وتصويره اياه ، واشادته بالعمل الدائب ، والجهد المستمر ، بل يرى اقبال أن الجهاد فى سبيل المقصد أعظم لذة من بلوغه ، فيقول (طوبى لمن لايزال فى اثر المحمل ، اى لذة فى الاضطراب دون وصول) ؟!

واذا كانت فلسفة وحدة الوجود قد انتقلت حقا الى الغرب ونراها بوضوح عند الفيلسوف الهولندى الاسرائيلى اسبينوزا الا أن الذى انقذهم منها رغبتهم فى العمل ، فلم يلبث طويلا طلسم وحدة الوجود فقد تبين بأدلة رياضية سبق الالمان الى اثبات حقيقة (الانا) الانسانية المستقلة ، ثم تحرر من هذا الطلسم

(٩) عبد الوهاب عزام — محمد اقبال ص٥١ — ٥٢ .

الخيالى فلاسفة الغرب على مر الزمان ولاسيما فلاسفة الانجليـز الحسيين التجريبيين .

ويفسر لنا اقبال سبب عزوفه عن التصوف أمام حملة النقد التى وجهت اليه فيتول فى رسالة سنة ١٩١٥ (انى بفطرتى وتربيتى انزع الى التصوف ، وقد زادتنى فلسفة اوروبا نزوعا اليه . فان فلسفة اوربا فى جملتها تتوجه الى وحدة الوجود ، ولكن تدبر القرآن المجيد ، ومطالعة تاريخ الاسلام بامعـان اشعرانى بغلطى ، ومن اجل القـرآن عدلت عن افكارى الاولى ، وجاهدت ميلى الفطرى ، وحدت عن طريقة آبائى) .

ويتلخص منهجه فى بيان القيمة الايجابية فى توجيـه الاسـلام لانقـاذ المسلمين من ضغط الفكر المادى الطبيعى وسيادته فى اوربا ، وانتشار الدعوة اليه فى الهند خاصة فى ذلك الوقت عن طريق السيد احمد خان(١٠) .

اما تعليله للمادية فى الغرب ، فيرجع الى توجيه امه الى العالم بحثا وتنقيبا ودراسة واستخداما ، وغفلت عن الحق تعالى تماما ، فأدى بهـا الى عبادة المادة والتجرد من خلال الانسانية الحقة ،

ولكن امم الشرق اتجهت بكليتها الى الحق صارفة انظارها عن العـالم مما جعلها لا تعبـأ بتسخير الكون ، فتحـولت الى فقـر وعوز واستذلها غيرها(١١) .

ويرى اقبـال انه لا يمكن الوصـول الى الحقيقة الكاملة بواسـطة الفلسفة [البرهانية] مغلبا الجانب العملى الدائب لاصلاح النفس فيقول :

فتفكر فى ذاتك ، ولا تخش المرور من هذه البادية ، فأنت موجود ووجود العـالمين ليس شيئا ، اجتهـد فى اصلاح شخصيتك وتكميلها ، ولا تمضى فى

---

(١٠) د . محمد اسماعيل الندوى — نظرات جديدة فى شـعر اقبـال ص١٥٢ .

(١١) محمد اقبال : رسالة الخلود — أو — جاويد نامه ص٩٩ ترجمـة وشرح وتعليق د . محمد السعيد جمال الدين ١٩٧٤م .

الحياة خائفا مذعورا ، فوجودك هو الوجود ووجود العالمين ليس شـــيئا اذا قيس بوجودك باعتبارك مكرما من جانب الله تعالى .

وبعد عدة ابيات شـــعرية اخرى يصف فيهـــا طريق اصـــلاح النفس والوصول الى درجة عالية من الرقى الروحى ، مناديا بأنه ينبغى على الانسان ان يهمل كل ما لا يعنيه فى الوصول الى الهدف المنشود ؛ الا وهو وجود الحق تعـــالى .

وعندئذ فان الجنة هى الهبة النهائية وهى جزاء العمـــل (فالجنة التى وهبك الله اياها ليس لها اية قيمة او اعتبار ما لم تكن جزاء على عمل صالح قد قدمته)(١٢) .

وهكذا يتجه اقبـــال للاهتمام بالروح ويعطيهـــا المكانة الاولى فى جانب المعرفة والجانب الاخلاقى .

يقول اقبال (يا من تقول ان الجسد حامل الروح انظر سر الروح ولا تعبأ بالجسد) .. ان هذا الجسد ليس مخزنا لروحنا ولا رفيقا لها ، يذهب معها حيثما ذهبت ، بل انه لا يزيد عن كونه حفنة من التراب ، وهل تحول حفنـــة من التراب دون تحليق الروح ؟(١٣) .

ويرفع اقبـــال من شـــأن العمـــل وجهـــاد النفس لكى ترقى وتسمو بصاحبها . يقول :

(ان القرب من الله تعالى امر ليس يسير المنال ، انه فى حاجة الى جهاد مع النفس ومع قيود الزمان والمكان ، فلا تتحـــدث عن غربتك وعن رغبتك فى القرب الالهى وانت خامل ، وانما انهض واعمل على ترقية روحك حتى تصل الى هدفك)(١٤) .

ومادامت الروح هى الوجود الفعـــــال المؤثر ، ووجودها هو الوجود الجوهرى بينما وجود المادة وجود عرضى ، فان السبيل الوحيد لســـعادتها

---

(١٢) محمد اقبال : رسالة الخلود ص ١١٩ .
(١٣) نفس المصدر ص٨٣ .
(١٤) نفس المصدر ص١١١ .

هو التجربة الدينية ، لاسيما الصلاة . فالفلسفة معرفة جزئية والعلم كذلك ، ولكن الدين ينطوى على الاكمل لانه منهاج المعرفة الصحيح .

ويقيم اقبال تصوراته عن الانسان ومكانته ومصيره على اصــول من الآيات القرآنية اذ المعنى الحقيقى للانسان (انه هو الذى جعله الله خليفــة له وأودع فيه صلاحية الرقى ، وسيظل يطــوى مراحل الرقى الى ان يأتى اليوم الذى يتحقق له فيه التوازن فى الصفات فيكون معتدلا موزونا كبيت من الشعر ، عادلا كخالقه) .

ويرى استنادا الى قصة الخلق فى القــرآن الكريم وجود الانســـان فى الارض وجود مؤقت فهو فى شوق دائم الى موطنه الاصلى اى الجنة(١٥) .

يقول اقبال : « والانسان بما وهب الله من قوى متوازنة على احسن ما يكون قد القى نفسه فى اسفل ميزان الوجود » وقد احاط به من كل جانب قوى تقيم فى وجهه العقبات » ويرى ان انعكاس البيئة الدنيوية على الانسان هى سبب قلقه وشغله الدائم بالمثل العليا والبحث عن آفاق جديدة . ومع أن نصيب الانسان فى الوجود شـــاق وحياته وهن كورقة الورد ، فليس للروح الانسانية نظير بين جميع الحقائق فى قوتها ، وفى الهامها وفى جمالها .

وبهذا التحليل يرتفع فيلسوفنا بقيمـــة الانسان ومكانته حتى يقـــوم بمسئولية حمل الامانة ، ويستحق أن يكون خليفة الله تعالى فى الارض(١٦).

أهم آرائه :

تعد قصيدته المشهورة (اسرار خودى) سنة ١٩١٥م اول دواوينــه الفلسفية واهمهـــا ، وكلمة (خودى) تدل فى لغتهـــا الفارسية على الاثرة والعجب والانوية وما يتصل بها . وفى الاردية تعنى دعوة فى الاخلاق منكرة وفى التصوف أشد نكرا، ولكن اقبال نقل (خودى) الى مفهوم آخر، جعلهاصل

---

(١٥) نفس المصدر ص٦٩ ، ص١١٢ .

(١٦) د . محمد اسماعل — نظرات جديدة فى شعر اقبال ص٧٦ .
المجلس الاعلى للشئون الاسلامية صفر ١٣٨٩هـ — مايو سنة١٩٦٩م

فلسفة له ، فأراد بها الذاتية ، وهى مفتاح فلسفته كلها ، اذ رأى أن العالم قائم بهذه الذاتية ، وان الانسان بهــذه الذاتية يقوم ، على قــدر قوتهــا وضعفها بل يخلد أو يفنى باستحكامها او اضمحلالها ، ولهــذا فان الواجب الانسانى فى هذه الحياة ينبغى ان يتوجه لمعرفة ذاته وتقويتها وتنمية مواهبها واستنباط ما فى فطرتها ، وليس من الخير فى شىء انكار الذات او اضعافها ، بل هو الشر كل الشر ، كما لا ينبغى العمل لفنائها ولا الرضا به كما يفعــل الهنادك وصوفية العجم ، بل لا تفنى الذاتية فى الله تعــالى وليس من الخير السعى الى افنائها فيه(١٧) .

ونستطيع الالمام بأهــم آرائه اذا احطنا علما كما اســلفنا بالمؤثرات الثقافية فى تكوينه ، فقد نشأ فى بيئة اسلامية تميل الى التصــوف ، والتقى بحضارة الغرب فى أوج نضجها قبــل الحرب العالميــة الاولى ، وعكف على القرآن يدرســه ، بعقلية المتشبع بالفلسفة الغربيــة ، وأعلن (لو ان مسلما متفلسفا بين المسائل القرآنية فى ضوء الافكار والتجارب الجديثة ما صــح اتهامه بأنه يقدم شرابا جديدا فى زجاجة قديمة ، كما يقول مستر دكسن ، أنا لا اعرض افكارا جديدة فى ثياب قديمة ، ولكنى ابين حقائق قديمة فى ضــوء الافكار الجديدة . ما اشد أسفى لجهــل الغــرب الاســلام والفلسفة الاسلامية)(١٨) .

وتشير هذه العبارات الى مقومات فلسفته وأصولها ، فقد استمد من القرآن الحكيم أهم خصائص فلسفته الذاتية ، ونعنى بها تصوره للانسان ، أصل نشأته ومصيره ، فقد كشف القرآن الاسرار الكامنة والطاقات الهائلة فى الانسان ، وسخر له هذا الكون ، وجعله خليفة الله فى الارض ، اذ يصف اقبال الانسان بأن الله سبحانه وتعالى وهب له من القــوى متوازنة على أحسن ما يكون ، قد القى بنفسه فى أسفل ميزان الوجود ، وقد أحاط به من كل جانب قوى تقيم فى وجهه العقبات (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقــويم

---

(١٧) د . عبد الوهاب عزام : محمد اقبال — سيرته وحياته ص ٦١ مطبوعات باكستان ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م .
(١٨) د . عزام : محمد اقبال .. ص١٣١ .

ثم رددناه اسفل سافلين)(١٩) ، وكل ذلك لتقـوية ذاته بواسطة مقـاومة العقبات التى تصادفه كما سياتى .

الانســـان فى القــرآن :

ان الانسان كائن قلق كما راينا فى رأى اقبال . وهو على ما فيـه من نقائص اسمى من الطبيعة . اذ انه يكيف مصيره ومصير العالم كذلك وتسخير القوى .. ولكن المنهج الذى يضعه القرآن يجعل تفسير الانسان لنفسـه اساسا وآيات خلافته للارض تشير الى أن الانســان موهوب بالملكة التى تجعل له القدرة على وضع اسماء للاشياء اى انه يكون التصورات لها) (٢٠)

ولكن الانسان هو خليفة الله فى الارض والمعصية الاولى التى اوردها القرآن كانت بمثابة او فعل للانسان تتمثل فيه حرية الاختيار .

ويصور الحياة كمغامرة تيسر الابتلاء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

على ان المغزى لحادثة سجود الملائكة لآدم عليه السلام يتعلق بأمرين أولهما رغبة الانسان فى المعرفة حيث تبين الآيات رغبة الانسان فى المعـرفة حيث تبين الآيات القرآنية تفوق آدم على الملائكة فى معرفة اسماء الاشياء ، أما الامر الثانى فيتصل بخطاب الشيطان لآدم (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) (طه ١٢٠) — اى اشارة الى رغبة (لا تقاوم فى الحصول على ملك لا يبلى)(٢١) .

وقد توقف اقبال عند هذا الشرح مكتفيا بالاشارة الى ان معنى الحياة للانسان يتحقق فى الشكل الفردى (فان الحياة معناها أن يكون للانسان شكل معين ، وفردية متحققة الوجود فى الخارج) .

الا أنه يفسر قوله تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو) (الاعراف) بأنها تعبر عـن الصراع بين الافراد المتعـارضين أثنـاء سعى كل منهـم

---

(١٩) د . محمد اسماعيل الندوى — نظرات جديدة فى شعر اقبال ص٧٦ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية صفر ١٣٨٩هـ — مايو ١٩٦٩م .
(٢١) تجديد التفكير الدينى : ص١٠١ — ١٠٢ .

الكشف عن امكانيـــاته عن اسباب ملكه ، ان هذا الصراع عنـــده هو سبب الم الدنيـــا .

ومن نظرته للوجود الشخصى الفردى جعل الامانه التى ذكرتهـــا آية الميثاق — الاعراف آية ١٧٢ — ستشمل عنصرى الخير والشر لانها قائمـــة على اساس حرية الاختيار ، وقد خلقه الله تعالى للاختبار مع وضع الامثلة للرجولة الحقة كالصبر فى البأساء والضراء والاعتقـــاد فى الفوز فى النهـــاية لمن اجتاز الابتلاء بنجاح(٢٣) .

ويصور لنا اقبال الحياة الانسانية فى شكل معركة حقيقية ، تبرز فيها عناصر المقاومة والكفاح الدائم ، ولكن الانسان يملك فى نفسه من اســـلحة المقاومة ما هو كفيل بنجاحه وانتصاره . فبالرغم من ان نصيب الانسان فى الوجود شاق ، وحيـــاته كورقة الورد ، فليس للروح الانســـانية نظير بين جميع الحقائق فى قوتهـــا وفى الهامها وفى جمالها . وقدر على الانســـان أن يشارك فى اعمق رغبات العالم الذى يحيط به ، وأن يكيف مصـــير نفســـه ومصير العالم ، وتسخير هذه القوى لاغراضه ، على شرط ان يبـــدأ بتغيير نفسه (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (سورة الرعد) .

وهنا تظهر لنا الشخصية الانسانية كأوضح ما تكون ، لأن القرآن قد بينها — من وجهة نظر فيلسوفنا — مؤلفة من أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح على التفصيل الآتى :

اولا — أن الانسان قد اصطفاه اللـــه (ثم اجتبـــاه ربه فتاب عليـــه وهدى) .

ثانيا — ان الانسان بالرغم من اخطائه جميعا ، أريد به أن يكون خليفة الله فى الارض .

---

(٢٢) قال تعـــالى : « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهـــورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلون » صدق الله العظيم .

(٢٣) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص١٠٣ و ٩٧ — ٩٩ — ١٠٠

(واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : اتجعــل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقــدس لك . قال انى اعلم ما لا تعلمــون) . (وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) .

ثالثا — ان الانسان أمين على شخصية حرة اخذ تبعتها على عاتقــه (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبــال فأبين ان يحملنهــا ، واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) .

واستخلص اقبال من هذه الامور أن مهمة الاسلام الحقيقة هى كشف الذات الانسانية وابرازها ، والذات خالدة ابدا ، ولا تفقد وجودها حتى بعد الموت ، ويعد القرآن أعلى مراتب السعادة الانسانية وجزاؤه الاوفى تدرجه فى السيطرة على نفسه(٢٤) .

الحقيقة بين التجربة العلمية والتجربة الدينية :

كان لابد لاقبــال ان يدلى بدلوه وســط ضجة التجــارب العلميــة والاكتشافات التى تمت عن طريق المنهــج التجريبى بأوربا، وطغيــان هذه الظاهرة أمام انحسار موجة الدين/ . ولكن فيلسوفنا لم تخــدعه الظواهر ، فأخذ ينقب عن ضرورة الدين وأهميته للحضــارة البشرية ، ورأى ضرورة اعداد الانسان العصرى اعداداً خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث ، والدين كفيل بتحقيق هذه الغــاية لأنه سعى المرء سعيا مقصودا للوصول الى الغاية النهائية للقيم(٢٥) .

ونستطيع تفسير موقف محمد اقبال هنا بالمقــارنة بين فريقى العقــل والنقل فى الفكر الاسلامى ، فمن هذه الوجهة ، يعد من الآخذين بهما معــا — كسلفة ابن تيمية . وكان لابد للفيلسوف المعاصر لاوربا فى أوج حضــارتها ، القارىء لتراثها والفاهم لانتاج فلاسفتها ، أن يستلهم الإسلام فى حل المشاكل التى يراها تتفتق أمامه عن ازمات لا يستهان بها . قال (لا ريب فى ان اللحظة

---

(٢٤) د . الندوى — نظرات جديدة فى شعر اقبال ص٧٩ — ٨١ .
(٢٥) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ص٢١٧ .

الحاضرة تمثل ازمة خطيرة فى تاريخ الثقافة العصرية) بعد فشل اسلوب التصوف فى العصور الوسطى والقومية والاشتراكية الالحادية فى شفاء علل الانسانية البائسة ، لان اسلوب التصوف كان ابعد ما يكون عن تدعيم قوى الحياة النفسانية عند الرجل العادى بحيث يعده للمشاركة فى موكب التاريخ ، فعلمه نوعا من الزهد الزائف ، وجعله يقنع بجهله ورقه الروحى قناعة تامة ، وكان لاسلوب الاشتراكية الملحدة الحديثة ما للدين الجديد من حمية وحرارة ، ولكنها استمدت اساسها الفلسفى من المتطرفين امثال هيجل ، واعلنت العصيان عن المصدر الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف . ويؤكد أنها ستتأثر بغير شك بالقوى السيكولوجية للكراهية والارتياب فى نيات الغير ، والاحقاد ، تلك القوى التى تنزع الى اضعاف روح الانسان وانضاب ينابيع قوته الروحانية الخفية(٢٦) .

ولمعرفة رأى اقبال فى الحل المقترح ، لابد أن نعرض بايجاز شديد لمقارنة بين الحقيقة فى التجربة العلمية ، والتجربة الدينية :

عندما نضع (العلم) فى مجموع التجربة الانسانية ، يشرع ينكشف عن طبيعة مختلفة ، والعلوم جزئية بطبيعتها ، وعلى هذا فان الافكار التى تستخدمها فى تنظيم المعرفة جزئية بطبعها ، وتطبيقها اعتبارى بالنسبة لمستوى التجربة التى نستخدمها فيه . واظهر دليل على ذلك تطورات النظرية العلمية على مر الاجيال عن المادة .

تكلم محمد اقبال عن الادلة التى تسند عليها الفلسفة المدرسية وهى الدليل الكونى ودليل الغائبة والدليل الوجودى(٢٧) .

وربما اهم ما يوجهه من نقد الى الدليلين الوجودى ودليل العلة الغائبة لانهما لا يؤديان الى شىء) مستندا الى حقيقة مؤكدة وهى أن الوضع الانسانى ليس وضعا نهائيا — وربما يقصد انه يعيش فى هذه الحياة مؤقتا ومصيره الى الموت — ويرى أن الفكر والوجود هما فى النهاية امر واحد ولهذا فهو يرفع من شأن التجربة .

---

(٢٦) محمد اقبال — تجديد التفكير الدينى ص٢١٧ .
(٢٧) نفس المصدر ص ٢١٦ — ٢١٧ .

والتجربة كما تنكشف فى الزمان تتمثل فى ثلاثة مستويات كبرى هى :

مستوى المادة .. ومستوى الحياة .. ومستوى العقل والقـــدر وهى على التوالى موضوعات علم الطبيعة وعلم الاحياء وعلم النفس .

ولقد وجه النظر الى بعض آيات الكتاب الكريم التى تتصل بالموضـوع :

البقرة آية ١٦٤ (ان فى خلق السماوات والارض واختـــلاف الليل والنهـــار والفلك التى تجرى فى البحر ..) .

وآل عمران ١٩٠ — ١٩١ (ان فى خلق السموات والارض واختـــلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب ..) .

وسورة النور ٤٤ (يقلب الله الليل والنهـــار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصـــار)

ويقول هوايتهد ان العالم ليس شيئا قارا بل هو بناء من حوادث كأنها سيل متصل خلاق ، وهذه الصفة لسير الطبيعة فى موكب الزمان ربما كانت أبرز وجوه التجربة التى اكدها القرآن على وجه خاص .

والكون الذى يبدو لنا فى صـــورة مجمـــوعة من الموجودات ليس مادة صلبة تشغل فراغا ، انه ليس شيئا ، انما هو فعل وطبيعة الفكر المتجـــدد على ما يرى برجسون .

ان الطبيعيات تدرس العالم المادى والعالم الطبيعى الذى يبدأ وينتهى بالظواهر الحسية التى يستحيل بغيرها ان يتحقق من صـــدق نظـــرياته ، والطبيعيات مقصورة على درس عالم المادة اى عالم الاشياء المحسوسة .

أما الحركة العقلية التى يتضمنها هذا الدرس — وكذلك التجربة الدينية فانها أمور خارجة عن ميدان الطبيعيات .

وعلى سبيل المثال عندما اصف السماء بأنها (زرقاء) فان هذا لا يدل على أن هذا اللون صفة موجودة فى السماء وانما يدل على ان السماء تحدث فى العقل احساسا بالزرقة .

وقد اثبت عالم الرياضيات والطبيعة هوايتهد بطريقة قاطعة أن الالوان والاصوات .. الخ فى نظر العلم ليست الا احوالا ذاتية لمدركها لا جزءا من الطبيعة فاللون والصوت عبارة عن موجات اثيرية لا تراها العين وموجات هوائية لا تسمعها الاذن أى ان — بعبارة هذا العالم — تصبح نصف الطبيعة (حلما) ونصفها الثانى (ظنا) .

بعبارة اخرى ان النزعة التجريبية التى بدت أول الامر أنها تقتضى المادة العلمية انتهت الى ثورة على المادة .

ولقيت ايضا نظرية المادة اعظم لطمة على يد (أينشتاين) حيث زعزع بنظريته عن النسبة معنى الجوهر كما اصطلح عليه القدماء اكثر مما زعزعه جدل الفلاسفة كله ..

ان المادة عند قدماء الفلاسفة هى شىء يلبث فى الزمان ويتحرك فى مكان ، ولكن النسبية فى الطبيعيات قوضت دعائم هذا الراى حيث تذهب الى ان (القطعة من المادة ليست شيئا ثابتا له احوال متغايرة ، بل اصبحت مجموعة حوادث مرتبطة بعضها ببعض .

وبهذا ذهبت صلابة المادة التى قيل بها قديما ، وذهبت معها الخصائص التى كانت تجعلها تبدو فى نظر المادى شيئا اقوى فى حقيقته من الافكار التى تجول فى العقل .

وعلى هذا فليس ثمة شىء اسمه مادة لها وجود فى ذاتها كما كان الراى فى علم الطبيعيات القديم ،

ان قيمة نظرية النسبية بوصفها نظرية علمية لهـا قيمة مزدوجة من الناحية الفلسفية (فهى اولا لا تهدم حقيقة الوجود الخارجى وانما تهدم النظر الى الجوهر باعتباره مجرد شىء قائم فى مكان ، وهو راى انتهى الى المادية فى علم الطبيعيات القديم ، فالجوهر فى نظر الطبيعيات النسبية ليس شيئا قائما بذاته له احوال متغايرة ولكنه مجموعة من حوادث يتعلق بعضها ببعض) .

وهكذا اخذت (المادة) طبيعة مختلفة لان العلم لا يستطيع ان يقيم نظرياته على اعتبار انها راى كامل عن الحقيقة ، وعلى هذا فان الافكار التى يستخدمها فى تنظيم المعرفة جزئية بطبعها كما راينا ، وتطبيقها اعتبارى بالنسبة لمستوى التجربة التى نستخدمها . وقد اصبح هذا الاستدلال فى غاية الاهمية حيث أن العلماء قد اعترفوا بأن العلوم المادية لا تعطى الا علما جزئيا عن الحقائق .

أما الدين فهو السبيل الى معرفة (الذات الكلية) ، فالعبادة فيه — وعلى وجه اخص الصلاة — هى المدخل فى نظر اقبال الى ادراك تلك الذات الكلية ادراكا قريبا . ان حقائق الدين فوق العلم ، ولا تستطيع العلوم المادية الوصول اليها .

ويكشف اقبال عن خطأ التعريفات للدين التى وضعها (يونج) ومضمونها فى الجملة هو ان الدين لا يصل بين ذات الانسان وبين اية حقيقة واقعية خارج نفسه ، بل هو مجرد تدبير بيولوجى حسن القصد اريد به اقامة حدود ذات طابع اخلاقى حول المجتمع الانسانى لكى تحمى البناء الاجتماعى من غرائز الذات التى لا يكبح لها بغير ذلك جماح ، وكان بيونج قد راى فى المسيحية انها انتهت من رسالتها بسبب تصوره للحياة الدينية الرفيعة مجرد قهر النفس للبواعث الجنسية ، ولكن محمد اقبال يفند هذا الزعم الخاطىء لأن قهر البواعث الجنسية ليست الا مرحلة تمهيدية من مراحل تطور الذات وارتقائها . وكما يؤكد ايضا ان علم النفس الحديث لم يمس بعد الحياة الدينية حتى فى هوامشها ، وانه مازال بعيدا عما يسمى تنوع الرياضة الدينية .

ويرى فيلسوفنا ان الدين ، وهو فى جوهره حال من احوال الحياة الواقعة ، هو الطريقة الوحيدة للبحث فى الحقيقة ، وبوصفه نوعا من رياضة عالية رفيعة ، يصحح افكارنا فى فلسفة الالهيات لان الادراك وحده لا يؤثر فى الحياة الا تأثيرا جزئيا ، اما العمل — وربما يقصد هنا العبادة واخصها الصلاة — فيظهر فى السيطرة على الانفعال السيكولوجية والفسيولوجية لتهيئة الذات لكى تكون صالحة للاتصال المباشر بالحقيقة القصوى ، وهى وسيلة لادراك الحق ، يفتح لنا ابوابا جديدة من الشعور ، كما يفتح المجال لامكان وجود تجربة تهب الحياة وتفيد العلم (فالسؤال عن ان الدين يمكن ان

يكون نوعا من تجربة اسمى وارفع سؤال مشروع تماما ويتطلب منا الانتباه الجدى .

وأيضـــا فان مطمح الدين يسمو فوق مطلب الفلسفة ، فالفلسفة نظـــريات أما الدين فتجربة حية ومشاركة واتصال وثيق ، وينبغى على الفكر لكى يحقق هذا الاتصال ان يسمو فوق ذاته ، وأن يجد كماله فى حال من أحوال العقل يسميها الدين الصلاة ، والصلاة لفظ من آخر ما انفرجت عنـــه شـــفتا نبى الاسلام عند وفاته صلى الله عليه وسلم .

تم بحمد الله وتوفيقه

المراجـــع

ـ القرآن الكريم

(أ)

ـ اقتضاء الصراط المستقيم ـ ابن تيميـــة .

ـ ابن تيمية ـ المراغى (سلسلة اعلام المسلمين ط الحلبى) .

ـ آراء فلسفية فى أزمة العصر ـ ادريين كوخ مكتبـــة الانجلـــو المصر سنة ١٩٦٣م .

ـ ابو الحسن الاشعرى ـ د . حمـــود غراب ط مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

ـ ايثار الحق على الخلق فى رد الخـــلافات الى المذهب الحق ـ ابن الوزير اليمانى ط الآداب بمصر .

ـ احمد ابن حنبل والمحنة ـ ولتربنون .

ـ الله والكون ـ د . محمد جمال الدين الفندى .

ـ الاسلام قوة الغد العالمية ترجمة الدكتور محمد شامة ـ بول شميتز .

ـ الاسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان .

ـ الاسلام والغرب والمستقبل ـ ارنولد تونبى .

ـ الايمان ـ ابن تيمية ـ مكتبة انصار السنة المحمدية بالقاهرة .

(ب)

ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير .

ـ البرهان فى معرفة عقائد الاديان ـ عباس بن منصور السكسكى الحنبلى دار التراث العربى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م تحقيق : خليل احمد ابراهيم الحاج

ـ بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ـ ابن تيمية .

ـ البرهان القاطع ـ ابن الوزير اليمانى .

— البرهان فى علوم القرآن — الزركشى — ط الحلبى سنة ١٩٥٧م .
— بين الدين والعلم — د . الغمراوى .

(ت)

— تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام — د . محمد على ابو ريان .
— تاريخ الفلسفة اليونانية — يوم كرم .
— تاريخ الدولة العباسية — د . جمال الدين الشيال .
— تدوين العالم — الخطيب البغدادى .
— تأويل مختلف الحديث — ابن قتيبة .
— تاريخ الخلفاء — السيوطى .
— تجديد التفكير الدينى — محمد اقبال .
— تفسير سورة الاخلاص — ابن تيمية .
— تذكرة الحفاظ — الذهبى .
— التعريف لابن تيمية — محمد ابو زهرة من كتاب اسبوع الفقه الاسلامى .
— تيارات فى الفكر الاسلامى — د . محمد عمارة .
— تبيين كذب المفترى على الامام ابى الحسن الاشعرى — ابن عساكر .
— تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية — الشيخ مصطفى عبد الرازق ط لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة ١٣٦٣هـ — ١٩٤٤م .
— تفسير الامام عبد الحميد بن باديس .
— التراث اليونانى فى الحضارة الا سلامية — د . عبد الرحمن بدوى .
— تلبيس ابليس — ابن الجوزى .
— التنبيه والرد على الاهواء والبدع — الملطى .
— تاريخ بغداد — الخطيب البغدادى .
— تاريخ الكامل — ابن الاثير .
— التنبيه والاشراف — المسعودى ط القاهرة (١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م) — تصحيح ومراجعة عبد الله اسماعيل الصاوى .

(ج)

— جامع الرسائل الكبرى — ابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم — ط المدنى بالقاهرة سنة ١٩٦٩م .

— جلاء العينين فى محاكمة الاحمدين — ابن تيمية .

— جواب اهل العلم والايمان — ابن تيمية .

— الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح — ابن تيمية .

— جامع بيان العلم وفضله الحافظ ابن عبد البر القرطبى .

(ح)

— الحيدة — عبد العزيز المكى — مطابع الشرق الا وسط — الرياض .

— حضارة الاسلام — فؤاد محمد شبل .

— الحضارة — د . حسين مؤنس .

(د)

— دفاع عن العقيدة — محمد الغزالى دار الكتب الحديثة — القاهرة .

— دول الاسلام — الذهبى — ط حيدر آباد ١٣٤٦هـ .

(ر)

— **الرد على المنطقيين** — ابن تيمية ط لاهور (١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م) .

— الروض الباسم فى الزب عن سنة أبى القاسم — ابن الوزير اليمانى .

— الرد على الزنادقة والجهمية — احمد ابن حنبل .

— رجال الفكر والدعوة فى الاسلام — ابو الحسن الندوى .

— رحلة ابن بطوطة — المطبعة الازهرية .

— رسالة الخلود أو (جاويد نامة) — محمد اقبال .

(س)

— سقوط العلمانية — أنور الجندى .
— السلوك — ابن تيمية ط الرياض .
— الاستيعاب — ابن عبد البر .
— أسد الغابة فى معرفة الصحابة — ابن الاثير — ط الشعب .

(ش)

— شمس الله تسطع على الغرب — زيجفرد هونكة .
— شرح العقيدة الاصفهانية — ابن تيمية .
— شرح حديث النزول — ابن تيمية .
— شرح عقيدة السفارينى ط المنار سنة ١٣٢٣هـ بمصر .
— شرح أصحاب الحديث — الخطيب البغدادى ط دار احياء السنة النبوية أنقرة ١٩٧٢م تحقيق د . محمد سعيد خطيب أوغلى .
— شرح الطحاوية — تحقيق الالبانى .

(ص)

— الصفدية — ابن تيمية — تحقيق د . محمد رشاد سالم — مطابع حنيفة — الرياض ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م .
— صلة الفكر الاسلامى بالاستعمار — د . محمد البهى .
— صون المنطق — السيوطى ط البحوث الاسلامية .
— الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية — ابو الحسن الندوى — ط دار الندوة لبنان .

(ط)

— طبقات الشافعية — ابن السبكى .

— الطب فى محراب الايمان — د . خالص جلبى .

(ظ)

— ظاهرة الردة فى المجتمع الاسلامى الاول — محمد حسن بريغش — ط مؤسسة الرسالة — بيروت .

(ع)

— عقائد السلف — ابن قتيبة تحقيق د . النشار وعمار الطالبى — منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧١م .
— الاعتصام — الشاطبى — ط دار الشعب .
— العقود الدرية — ابن عبد الهادى .
— عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين — ابن القيم — مطبعة الامام .
— عقائد المفكرين فى القرن العشرين — عباس العقاد دار الكتاب العربى — بيروت ١٩٧١م .

(غ)

— غاية المرام فى علم الكلام — سيف الدين الآمدى — ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٣٩١ — ١٩٧١م تحقيق : د . حسن عبد اللطيف .
— غاية الامانى فى الرد على النبهانى — أبو المعالى السلامى .
— غياث الامم فى التياث الظلم (الامام الجوينى) ط دار الدعوة بالاسكندرية ١٣٩٩ — ١٩٧٩م تحقيق د . مصطفى حلمى و د . فؤاد عبد المنعم .

(ف)

— الفتاوى الكبرى — ابن تيمية تحقيق حسنين محمد مخلوف ط الرياض .
— فى الفلسفة الاسلامية — د . مدكور .

— فى الاصول عن الا ئمة الفحول — أبو الحسن الكرجى .
— الفهرست — ابن النديم ط فلوجل ليبك ١٨٧١م .
— الفرق وطبقات المعتزلة — القاضى عبد الجبـــار — ط دار المطبوعات الجامعية تحقيق د . النشار وعصام الدين محمد على .
— الفرقان بين الحق والباطل — ابن تيمية .
— الفكر الاسلامى الحديث فى مواجهة الافكار الغربية — محمد المبارك .
— فلسفة الحضارة — البرت اشفتيسر ترجمة د . عبد الحمن بدوى .
— فى الاخلاق والاجتماع — د . ابراهيم مدكور ط الهيئة العامة للنشر .

(ق)

— القول الجلى فى ترجمة شيخ الاسلام — صفى الدين الحنفى .
— قواعد التحديث — القاسمى .
— قواعد المنهج السلفى فى الفـــكر الاسلامى — د . مصطفى حلمى ط دار الانصار بالقاهرة .
— القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم — موريس بوكاى ط دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

(ك)

— كتاب السنة — أحمد ابن حنبل — المطبعة السلفية مكة المكرمة ١٣٤٩هـ .
— كشف اصطلاحات الفنون — التهانوى .
— الكون والثقوب السوداء — زهير الكرمى — سلسلة كتب عالم المعـــرفة بالكويت .
— الكون بين الدين والعلم — د . محمد جمال الدين الفندى .

(ل)

— لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم — شكيب ارسلان .

(م)

— مقالات الاسلاميين — ابو الحسن الاشعرى .
— المفردات فى غريب القرآن — الاصفهانى .
— مبادىء الاجتماع الدينى — روجيه باستيد — د . قاسم .
— ميزان الاعتدال فى نقض الرجال — الذهبى .
— معارج الوصول الى ان اصول الدين وفروعه قد بينهـا الرسول — ابن تيمية — المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .
— موافقة صحيح المعقول — ابن تيمية .
— الملل والنحل — الشهرستانى — ط بدران .
— منهاج السنة النبوية — ابن تيمية .
— منهاج السنة النبوية — ابن تيمية
— المغنى فى أبواب التوحيد والعـدل — القاضى ابو الحسن عبد الجبار — وزارة الثقافة والارشـاد .
— الموسوعة العلمية المختصرة — مكتبة الانجلو المصرية .
— المنتقى — الذهبى تعليق الاستاذ محب الدين الخطيب .
— محنة شيخ الاسلام فى سجنه — تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى .
— مناهج البحث عند مفكرى الاسلام د . على سامى النشار .
— من حضارتنا — د . جورج عطية .
— مدخل الى القرآن الكريم — محمد عبد الله دراز ط دار القلم — الكويت ١٣٩١هـ — ١٩٧١م .
— مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون ط دار الفكر ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ .
— مفاتيح العلوم — الخوارزمى ط المنيرية سنة ١٩٤٢هـ .
— مناقب الامام احمد بن حنبل — ابن الجوزى .

— محمد اقبال سيرته وفلسفته وشعره — عبد الوهاب عزام .
— مراتب الاجماع — ابن حزم .

(ن)

— نحن والحضـــارة — ابو الاعلى المودودى ، الانتصـــار والرد على ابن الراوندى الملحد — دار الكتب ١٣٤٤هـ — ١٩٢٥ م
— نظرات جديدة فى شعر اقبال — د . محمد اسماعيل الندوى .
— نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام — د . النشار
— نقد المنطق — ابن تيمية .
— نظريات شيخ الاســلام فى السياسة والاجتمـاع — المستشرق الفرنسى هنرى لاووست — ط دار الانصـــار بالقـــاهرة
— النبوات — ابن تيمية ط السلفية ١٣٨٦ هـ .
— نقد الدارمى على المريسى — الدارمى .
— الانسان ذلك المجهول — الكسيس كاريل — تعريب شفيق اسعد فريد مؤسسة المعارف ببروت .

(هـ)

— هل للانســـان مستقبل — بارتراند راســـل — ترجمة عايد الرباط الدار القومية للطباعة والنشر .

(و)

— وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان — لابى العباس شمس الدين أحمد بن خلكان تحقيق محمد محيى الدين — مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٨م
— الوحى المحمدى — محمد رشيد رضا

للمؤلف

١ — نظام الخلافة فى الفكر الاسلامى	دار الانصار — القاهرة
٢ — الخوارج ومسألة تكفير المسلم	دار الانصار — القاهرة
٣ — المشكلات التى تواجه الشباب المسلم وكيف نتوقاها	دار الانصار — القاهرة
٤ — قواعد المنهج السلفى فى الفكر الاسلامى	دار الانصار — القاهرة
٥ — نظرية شيخ الاسلام ابن تيمية فى السياسة (دراسة وتحقيق)	دار الانصار — القاهرة
٦ — غياث الامم لامام الحرمين (دراسة وتحقيق)	دار الدعوة بالاسكيدرية
٧ — الزهاد الاوائل	دار الدعوة بالاسكندرية
٨ — ابن تيمية والتصوف	دار الدعوة بالاسكندرية
٩ — التصوف والاتجاه السلفى فى العصر الحديث	دار الدعوة بالاسكندرية

اعتـــذار :

وقعت اخطاء مطبعيـــة خارجـــة عن ارادتنـــا ولا تغيب عن فطنـــة الاخ القارىء ، ونعتذر ونرجو التصحيح .

الصفحة	السطر	الخطأ	التصحيح
١٦	الاخير	صلى الله	صلى الله عليه وسلم
٢٧	—	الفصل الثانى	الباب الثانى

رقم الايداع ١٩٨٢/٤٦٢٤

دار نشر الثقافة
طبع . نشر . توزيع
١٣ ش حسبو منشا ــ محرم بك
ت : ٣٢١٩٨/٢٠٦٢٥